"بنات مصر الجديدة"

"رواية سيمفونية في ثلاث حركات"

د. نبيل راغب

الناشر
مكتبة مدبولي - القاهرة

الحـــركة الأولـــى

هالة المرعشلي

ماذا جرى لهذه الدنيا ؟ وما الذى يجرى فيها حتى هذه اللحظة ؟ ! فأنا لا أعرف لماذا أتيت ؟ وكيف انتهيت ؟ ! اذا كنت قد أنتهيت فعلاً ! فحتى هذه النهاية لست متأكدة منها إذ أن الأطباء يؤكدون لصديقتى عمرى مها ومنى أن مرحلة الخطر على وشك الزوال ، ويبدو أنهما أمسكتا بتلابيب هذه البشرى الخافتة ، فحرصتا على ترديدها أمامى دون ملل ، وعلى حبس دموعهما التى فاضت كالينبوع الساخن منذ احضارى إلى مستشفى هليوبوليس حيث أرقد الآن دون حراك . فقد اختفى جسدى الرقيق المتهافت تحت بحيرات من الحروق المشتعلة ، وتلال من الضمادات البيضاء التى جعلتنى أبدو كالأشباح فى ليل لا يريد أن ينجلى !

وبرغم الآلام التى صمدت لكل أنواع المسكنات ، فإن عقلى لا يكل عن اجترار الذكريات بكل تفاصيلها التى لم تكن تخطر لى ببال . كنت أظن أن الألم كفيل بتشتيت أى صفاء للذهن ، لكننى لم أر حياتى بمثل هذا الوضوح والتركيز من قبل ، وإن كنت لا أزال أفتقد المعانى التى تبرر لى الأحداث التى مرت بى ، والتى جرفتنى فى دوامتها دون هوادة حتى آمنت منذ البداية أن الإرادة الانسانية أكذوبة كبرى تعلل بها الإنسان منذ أن وجد على هذه الأرض حتى لا يبدو حقيراً فى هذا الكون ، وحتى لا يصبح مثله كمثل نملة تحت قدم فيل لا يشعر بها فى سيره الوئيد فى الغابة . وكثيراً ما اختلفت مع صديقتى مها حول مثل هذه الأفكار التى كانت تنعتها بالسواد والتشاؤم والضياع ، لكن

يبدو أن نظراتنا الى الحياة تختلف فيما بينها اختلاف بصمات الأصابع . والإنسان لا يستطيع أن يكون إلا نفسه ، شاء أو لم يشأ !

كانت صديقتى منى تؤكد لى غياب الإرادة الإنسانية تحت ضغط الظروف الإقتصادية الطاحنة ، نظراً لما مرت به من أهوال خاضتها مع أسرتها الفقيرة . أما أنا فلم تكن أسرتى ثرية فحسب ، بل من أعرق الأسر الأرستقراطية التى استوطنت مصر الجديدة منذ انشائها فى مطلع هذا القرن . كما كان جدى الأكبر من الباشوات الذين نزحوا من تركيا إلى مصر ابان الحكم العثمانى . وكم كان أبى فخوراً بكل هـذا ، لدرجة أنه لم يمر يوم دون أن يذكرنا به ؟ !

اذاً . . فتاة مثلى نشأت فى مثل هذا النعيم الأرضى ، فى إمكانها أن تحقق إرادتها تماماً فى كل ما تريده وما ترغبه ! لكن ما يراه الناس شئ ، وما يحدث فى الحقيقة شئ آخر تماماً ! فقد كان فى أسرتنا من أغلال الماضى وسلاسله الحديدية الصدئة ما جعل من هذا النعيم الأرضى جحيماً مقيماً ، جعلنى أحقد على متسولة كانت ترابط على ناصية عمارتنا الفاخرة ذات الطراز العربى العريق فى شارع دمشق . كنت أغبطها حريتها واستقلالها وهى قابعة على الطوار تمد يدها للسابلة وقد أخفت وجهها بملاءة سوداء . حتى الأيام المطيرة والعاصفة لم تفلح فى زحزحتها عن موقعها الأثير ، بل كثيراً ما ضاعفت من عطف المارة عليها .

لم تكن لى أخت سوى مايسة التى كانت تصغرنى بثلاث سنوات . شاركتنى فى تحمل الآلام التى تفنن أبى فى ممارستها بل والإستمتاع بها ، سواء أكان هذا عن قصد أو غير ذلك ! فقد كان يرى فى إنجاب البنات عالة بل وصمة لا يمحوها سوى إنجاب ولد تأخر مجيئه ، وكأننا ـ أنا وأختى ـ كنا مسئولتين عن هذا التأخير ، ولذلك كان علينا أن ندفع ثمنه : اهانات وسباب وأحياناً صفعات إذا حاولت احدانا أن ترد أو تبرر ! وكانت مايسة عملية وواقعية أكثر منى . فلم يكن كل ما جرى لنا سوى مرحلة عابرة فى نظرها ، سرعان ما تنتهى لتبدأ مرحلة أكثر استقلالاً وحرية . وكثيراً ما كانت ابتسامتها الحلوة العذبة تشرق خلف غمام الدموع .

أما أنا فكانت اللحظة الراهنة كفيلة بأن تستغرقنى فى دواماتها حتى القاع المظلم البارد الذى ربما مكثت فيه أياماً وليالى قبل أن أطفو على سطح الحياة مرة أخرى . فى تلك الأيام والليالى كنت أتوق لتلك اليد التى يمكن أن تمتد لى لتنتشلنى من أعماق الكابوس الذى لم يكن يخفف من وطأته سوى مها ومنى . ولما طال انتظارى لتلك اليد تعلقت بقشة كانت هى التى قصمت ظهر البعير . قشة حذرتنى منها مها بشدة ، ولم تسترح لها منى على الإطلاق ، ومع ذلك تعلقت بها لعل وعسى . كنت أريد أن أتجاوز ظلام اللحظة الراهنة بأى شكل ، لعل شعاع الفجر يصل إلى عينى !

●●●●●●

الله . . ما أحلى صفير المترو وصخب عجلاته فوق القضبان ! إنه يشعرنى بعجلة الحياة وهى تدور برغم كل المحطات التى تحاول الابطاء من سيرها ! فى صباى لم أكن أحتمل ضجيجها عندما ترتطم بأذنى فوق وسادة الفجر وأنا متدثرة بدفء الغطاء الذى منحنى أسعد لحظات حياتى مع سلطان النوم الهارب من مرارة الأيام ، أو مع موكب الأحلام المتدفقة بمياهها البلورية على تربة حياتى المتشققة جفافاً وعطشاً ! أما فى هذه اللحظات فصفير المترو وصخب عجلاته يربطنى بالحياة خارج هذه الغرفة البيضاء التى تحاكى العدم فى لونها !

●●●●●●

لا أعرف إذا كنت قد أخطأت فيما فعلته أو أنه كان نتيجة حتمية لمقدمات سبقته منذ لحظة ميلادى أو ربما قبلها عندما خلق الكون نفسه ؟ ! فقد ولدت فى تلك الأسرة الثرية الأرستقراطية ذات الأصول التركية ، وإن كانت أمى مصرية صميمة . لكنها كانت مثل معظم الأمهات المصريات ، لا رأى لها فيما يفعله زوجها . لم تكن تملك سوى الدموع الصامتة فى الخفاء ، أو النظرات المشفقة المتوسلة فى العلن ، أو الدعاء لنا بالفلاح ، والسعادة التى لم نعرفها إلا على لسانها .

أذكر فى طفولتى المبكرة تهديدات أبى لها بالطلاق أو بالزواج من أخرى إذا لم تنجب له ولداً ، وكأنه كان فى انتظار ولى العهد الذى سيرث عرشه . وكثيراً ما جرى على لسانه ذكر الملك فاروق الذى طلق الملكة فريدة وتزوج من ناريمان التى أنجبت له

ولى العهد . لكنه لم يكن يدرك أن العرش نفسه ومعه العهد كله سيتبدد هباء منثوراً فى نفس عام ميلاد ولى العهد ! لكن أبى لم يكن يذكر هذه العبرة . كان كل همه مجئ من سيحمل اسم الأسرة العريقة !

وأخيراً جاء وأنا فى السنة الأولى بمدرسة مصر الجديدة الإعدادية للبنات . وهى السنة التى بدأت فيها صداقة العمر مع مها ومنى ، والتى استمتعت فيها مع مايسة ببداية مرحلة اهمال أبى لنا بعد مجئ كمال الذى شغله عن أى شئ آخر ، حتى عن سبنا وإهانتنا ! فقد أصبح الإهمال نعمة ما بعدها نعمة ! بالإضافة إلى نعمة الصداقة الجديدة التى أتاحت لى لأول مرة فرصة أن أبوح بكل أسرارى دون حرج ، ودون خوف من تسربها إلى الزميلات الأخريات فى المدرسة . فقد كانت أسرارنا نحن الثلاث فى بئر عميقة لا تخرج منها إلا فى لحظات الصفاء والإفضاء بالمكنونات ، وتبادل الآراء والنصائح التى غالباً ما عجزنا عن تنفيذها ، ومع ذلك كنا سعداء بها .

كانت الحواجز الطبقية والإجتماعية والإقتصادية بيننا عالية سميكة . ومع ذلك تخطيناها ببساطة كأنها لم تكن موجودة على الإطلاق ! فالحاجة الملحة إلى أليف للروح يمكن أن تجتاح أية حواجز . كانت مها تنتمى إلى الطبقة المتوسطة أو البورجوازية الصغيرة كما عرفت اسمها فيما بعد فى كلية الآداب . وكانت تعيش مع ثلاثة أخوة هى كبراهن فى شقة من ثلاث حجرات فى شارع العقبة المتفرع من شارع هارون الرشيد . وكان أبوها

خريج التجارة القديم ناقماً على الدنيا التى سجنته فى وظيفة إدارية لا تدر عليه سوى الملاليم ، لكن الأم المدبرة استطاعت أن تسير دفة السفينة بقدر الإمكان . ثم جاء عهد الإنفتاح الذى اكتشف فيه الأب مواهبه الدفينة القديمة ، فانطلق مع المنطلقين وظنت الأم أن اليسر قد جاء بعد طول عسر ، لكن انطلاقته كانت إلى خارج البيت أيضاً . فعندما جرت الأموال بين يديه اكتشف أن شبابه قد ضاع هدراً وسط أسرته الخانقة ، فأمسك بتلابيبه الفالتة ، وهرب بجلده كى يعيش مع زوجة جديدة لا تكبر ابنته مها إلا بسنوات معدودات ، مما رسخ فى ذهنى جملة كانت مها تكررها على مسامعنا كثيراً وتؤكد أن الجرائم التى ترتكب داخل نطاق الزواج أبشع ألف مرة من تلك التى تقع خارجه ، والتى يقف لها القانون بالمرصاد !

أما منى فكانت تقطن فى شارع هارون الرشيد نفسه . ومع ذلك كانت أفقر من مها بمراحل . ففى رقم ١٨ من هذا الشارع يقع مبنى غريب الشكل لا يمت بصلة من قريب أو بعيد للعمارات الممتدة بحذائه وأمامه . فهو مجمع سكنى مثل ثكنات الجنود ، وإن كان من طابقين تدور حولهما شرفتان من الحديد الذى لا لون له . وفى كل حجرة أو حجرتين تقطن أسرة من الأسر الكادحة التى تشترك أحياناً فى دورة المياه ، كما يشترك أطفال المبنى جميعاً فى الجرى واللعب فى الشرفة التى تحيط بالمساحة التى لا تقل عن فدان ! ولم تعرف منى من بنى هذه الثكنة العجيبة ؟ ! وإن كانت مها قد سمعت أنها بنيت للعمال

الذين عملوا فى إنشاء خط المترو بين كوبرى الليمون ومصر الجديدة . وهو ظن يؤكده عمل أبى منى ككمسارى أفنى حياته فى هذا الخط . وبرغم الضنك الذى عانته أسرة منى ذات الأطفال السبعة غير الذين رحلوا عن هذه الدنيا منذ البداية ، فإن الله قد حباها من أواصر الحب والحنان والعطف ما جعلها تواجه ضربات الحياة بروح الفريق الذى افتقدته أنا ومها تماماً !

ومع ذلك كنا نلتقى عند احدانا دون أية حساسيات تذكر . وكثيراً ما كانت مها تداعبنا بقولها بأن التفرقة الحقيقية فى مصر ليست بين الأغنياء والفقراء بقدر ما هى بين الرجال والنساء ! وذلك برغم كل ما نالته المرأة من حق التصويت ، وعضوية مجلس الشعب ، ومساواة فى الأجر والوظيفة . فلا تزال المرأة تحت رحمة الرجل الذى يتمتع بكل حقوق السيادة والبطش ، فى حين لا تملك هى سوى حيل الأنثى التقليدية من استعطاف واغراء وذلة واستنزاف لموارد الرجل بكثرة الإنجاب أو بأية حيلة أخرى قد يتفتق عنها ذهن الأنثى بكل عفويتها الغريزية !

لكن نعمة الاهمال ، مثل أية نعمة أخرى فى هذه الدنيا ، لا يمكن أن تدوم فسرعان ما كبر كمال والتحق بالمدرسة ، وإذ بالطينة قد إزدادت بلة ! كان عصر الخدم قد انتهى بعد أن كانت شقتنا الفسيحة تعج بهم ! فى حين تدهورت صحة أمى تدهوراً مبكراً تمثل فى قلبها الذى أصبح ضعيفاً وضغط دمها الذى لم يهبط إلا بالأقراص . وفجأة وجدت نفسى مع مايسة مسئولتين عن خدمة البيت بكل ما تحمله هذه الخدمة من هموم

وآلام جديدة . ومع ذلك تقبلناها راضيتين لعلها تشفع لنا عند أبينا الذى يصر على معاملتنا وكأن بيننا وبينه ثأراً قديماً لا يريد أن ينساه . لكن يبدو أن الأمل ـ مجرد الأمل ـ لم يكن من حقنا . فقد انضم الأخ الصغير إلى الأب فى اهانتنا . كنا نمسح له حذاءه ، ونعد له طعامه ، وننظف له غرفته ، ومع ذلك لم ننل منه سوى اللسان الطويل . كان تدليل أبى له قد أفسده تماماً حتى أصبح يظن أن الكل عبيد تحت امرته ، وأن ما يناله من خدمة ورعاية يعجز عنها الوصف هو من قبيل الحقوق المكتسبة التى لا جدال حولها !

وسارت الأمور وكان لابد أن تسير ! لكنها سارت بل داست علينا وهى تكاد أن تزهق أنفاسنا ! فلأول مرة أضطر إلى إعادة سنة دراسية لرسوبى فى مادتين ، وكنت فى شهادة الثانوية العامة ! فى حين انطلقت مها إلى كلية التجارة ، أما منى فكانت قد التحقت بعد الشهادة الإعدادية بالمدرسة الثانوية التجارية حتى تساعد أسرتها الكادحة بمجرد تخرجها المبكر فى نفس عام رسوبى . لكن قدمى أبيها حفيتا دون أن يجد لها وظيفة حتى سعيت أنا لتعيينها فى شركة الإستثمار التى يملكها خالى فى ميدان روكسى .

انتهز أبى فرصة تعثرى لأول مرة فى دراستى ، وأعلنها مدوية بأنه آن الأوان كى ألزم عقر دارى . فأنا جميلة بل وفاتنة فتنة العيون الزرقاء ، والجدائل الذهبية ، والبشرة البيضاء المشربة بالحمرة ، والجسد المتفتح لأحضان الحياة الدافئة ، وأنه أصبح

يخاف علىّ من الفتنة بعد أن كثر خطابى ، وتشتت تفكيرى بعيدا عن الدراسة . وبالفعل لم تعد الدراسة مطمحى ، بل كان كل همى هو التخلص من هذا الأسر بأى ثمن ! وكان يمكن لأى خطيب من الذين تقدموا لطلب يدى ، أن يقوم بهذه المهمة لولا عجرفة أبى التى جعلتهم يمتنعون عن التفكير - مجرد التفكير - فى تكرار المحاولة ! فلم يخطر ببالى أن أحب أحدهم ، إذ كنت أبحث عن المنقذ السريع لا العاشق الولهان ! وبما أن المنقذ لم يأت فقد أصبحت دراستى بالنسبة لى قضية حياة أو موت ! ولذلك قررت الإستماتة فى الحفاظ على هذا الحق حتى النهاية .
ومع اصرار أبى كعادته على رأيه هددته لأول مرة فى حياتى بالإنتحار ، فما كان من ذراعه إلا أن هبطت بصفعة مدوية على خدى . عندئذ قررت أن أرد له الصفعة فتجرعت زجاجة صغيرة من صبغة اليود . فلم يكن أمامى كى أؤكد وجودى سوى أن أهدد هذا الوجود نفسه . وفى الحال تم نقلى إلى نفس المستشفى الذى أرقد فيه الآن ، إذ يبدو أن التاريخ يصر على أن يكرر نفسه معى ، سواء أكان بحريق الأحشاء أو بحريق الجلد ؟ !

● ● ● ● ● ● ●

ها هو الظلام يلف المستشفى بردائه الفضفاض الذى لم يتخلله سوى ضوء خافت يتلمس طريقه فى الممر الذى تطل عليه غرفتى . وأنا أمقت الظلام الذى واكب حياتى كلها ! ولولا تنفس أمى الثقيل المصحوب بالشخير فى رقدتها فى السرير

المجاور لى لأحسست أننى وحيدة فى هذا الكون المظلم ! لقد أصرت أمى على مرافقتى ورعايتى ليل نهار منذ الحادث وكأنها تريد أن تكفر عن سنى خضوعها وذلها واستسلامها . لكنها لم تكن تملك سوى دموع الإبتهال لله كى أعود إلى الحياة مرة أخرى ! آه من هذا الظلام الذى امتزج بالسكون المطبق ورائحة المستشفى التى تسرى بإحساس العدم فى أنفى ! حتى قطارات المترو أوشكت على البيات الصامت ، بعد أن تباعدت فترات ضجيجها وصخبها !

● ● ● ● ● ● ● ●

فى المستشفى رأيت أبى لأول مرة فى ضوء جديد . كانت لهفته قد امتزجت بإحساس قاتل بالذنب . وفى إحدى اللحظات بين المنام واليقظة لمحته من بين جفونى شبه المطبقة وهو يقبل يدى ويبللها بدمعه . لم أتصور أن يكون هذا الصارم المتعنت العنيد بهذه الرقة والحنان !لكن يبدو أنه تأثر لموقفى فى التحقيق عندما أكدت أننى تناولت صبغة اليود على سبيل السهو والخطأ ، ظناً منى أنها زجاجة الفيتامينات !

وعلى الرغم من أن أبى عاد إلى طبيعته بمجرد خروجى من المستشفى ، وعودة المياه إلى مجاريها ، فإن معركتى لم تكن خاسرة تماما . فقد تراجع عن اصراره على هجرى للدراسة ، واستطعت اجتياز امتحان شهادة الثانوية العامة ثم الالتحاق بكلية الآداب التى طالما سخر منها اعتقادا منه أن الأدب حرفة من ليست لهم حرفة . أما الكلية الوحيدة التى كانت جديرة

باحترامه فهى كلية الحقوق التى تخرج فيها سيراً على نهج معظم رجال الأسرة العريقة !

ومع ذلك فقد فتر حماسي للدراسة حتى اعجاب زملائى بى لم يحرك داخلى ساكنا لدرجة أننى سمعت من طرف خفى احدى زميلاتى وهى تتهمنى بالبرود وسط دائرة من الزملاء الضاحكين المتهامسين ! كنت أتعجب لزميلاتى القادرات على المرح والدعابة ! وكم تمنيت أن أكون مثلهم لكن شيئا ما بداخلى كان قد تحطم ! كنت خائفة من شئ غامض مجهول تمنيت أن يحمينى منه شخص قد يخرج من باطن الغيب ! لكنه شخص لم يأت ! كان كل زملائى لاهين منطلقين فى حيوية بالغة ، حتى الفاشلين منهم كانوا يتخذون من فشلهم وتكرار رسوبهم مادة للتندر والدعابة ! أما أنا فلم أكن فاشلة أو ناجحة ، باردة أو ساخنة ، حزينة أو مبتهجة ، بل شئ وسط بين هذه الأطراف ، شئ لا طعم له ولا لون ولا رائحة ! لم يعتن أحد بأمرى برغم استعدادى لأفنى نفسى من أجل الآخرين . ولولا وجود مها ومنى فى حياتى ، لكان وجودى ذاته كالعدم نفسه ! لكن مها كانت منهمكة فى دراستها كأنها تخوض معركة المصير ، فى حين أفنت منى أيامها كسكرتيرة لخالى فى الشركة التى يملكها ويديرها ، ولم يتبق لى من وقت فراغها سوى لحظات عابرة ! ولم يكن هذا جحوداً منها ، بل ظنتا أيضا أننى منهمكة مثلها فى دراستى التى اخترتها بنفسى ، لكن بوادر الفشل ظهرت فى الأفق الضيق ، ليس بسبب ضغوط أبى ومضايقات أخى فحسب ، بل بسبب

هذا الشئ الغامض المجهول الذى تحطم داخلى !لم تكن تعنينى بعد ذلك سخافات أخرى عندما يطلب منى دهان حذائه ، أو كى قميصه بقدر ما كان هذا المجهول يقلقنى ويشتت وجودى ! فلم يكن وقتى ثميناً لدرجة الضن به على مثل هذه التفاهات ! حتى الكتب والمحاضرات والمذكرات كانت صحراء باهتة تضل فيها عيناى طريقهما مع ذهنى الشارد العاجز عن بلوغ بر الأمان !

ويل للإنسان الذى يفقد حماسه لأى شئ مهما كان تافهاً ! حاولت مراراً وتكراراً لكنى عدت بخيبة الأمل الذى حاولت مايسة زرعه مرة أخرى فى صحرائى ، بالدعابة مرة ، وبالتأنيب مرة أخرى ، وبالزجر والسخرية مرة ثالثة ، لكن دون جدوى ! شكت مايسة حالى إلى مها ومنى ، وعقدت الجلسات الساخنة المتلاطمة بعواطف الحب ودموع الحنان حتى يعود الىّ فوران الحياة ، لكنها كلها كانت مسكنات مؤقتة مثل تلك التى تحاول التخفيف من آلام حروقى ، لكن دون جدوى أيضا ! ولذلك بمجرد رسوبى فى السنة الأولى آثرت الإنسحاب من الميدان إلى عقر دارى ! كل هذا وأبى يتابعنى بنظرات صامتة لكنها متسائلة: ألم أقل لك ؟ ! فلنترك العلم لأهل العلم !

فى البيت كنت كالمستجيرة من الرمضاء بالنار ! شعرت بالجدران تكاد تحاصرنى وتطبق على أنفاسى ، فكنت أهرب من هذا الإحساس المحض بالجلوس فى الشرفة الفسيحة العريقة أشغل نفسى بالسيارات المارقة ، والغادين والرائحين ، والمتسولة التى أخفت وجهها بملاءة سوداء فى حين مدت يدها سافرة

عارية . وكثيرا ما شاركتنى أمى هذه الجلسة إذا لم يكن لديها ما يشغلها فى المطبخ . لكن الحديث بيننا لم يكن ذا شجون أبداً ! فسرعان ما كان ينتهى بالجدل العقيم ، أو الدعاء بإصلاح الأحوال ، أو ندب الحظ البائس برغم كل مظاهر الرفاهية التى تثير حسد الآخرين ! لم تتأثر أمى كثيرا بهجرى لدراستى الجامعية بقدر ما كان القلق يقتلها يوميا بسبب قطار الزواج الذى لا يريد أن يتوقف فى محطتى . لم تحاول أن تقلل من عجرفة أبى الذى نجح فى ابعاد الخطاب عن طريقى وكأنه يريد منهم أن يقبلوا أياديه البيضاء أولا حتى يتكرم ويتعطف ويتنازل لينظر فى أمر تقدمهم لطلب يد الأميرة ست الحسن والجمال !! لم تملك أمى سوى القلق والخوف والحزن والصمت والدعاء من أجل تحسين الأحوال ! وبعد ذلك تحاشت الإنفراد بى فى الشرفة لأن قلبها كان ينفطر حزنا علىّ كلما واجهتنى وتأملت أحوالى !

وبمرور الأيام أنست بالشرفة وبكل تفاصيل المناظر التى تبدو منها . أسفل العمارة المواجهة أربعة محال : صيدلية دمشق بلافتتها المضيئة طوال الليل للخدمة الليلية التى تؤديها لأهل الحى ، والصيدلى ذو المعطف الأبيض والذى يتحرك بين الزبائن ورفوف الأدوية كالنحلة فى الخلية ، دون أن تفارق الابتسامة وجهه . ثم بقالة مصر الجديدة التى لم يترك فيها صاحبها اليونانى منفذا إلا وسده بكل أنواع البقالة المحلية والمستوردة . حتى سقف المدخل تدلت منه حبال البسطرمة وسمك البكلاه ، أما الحائط فقد اختفى خلف فترينه زجاجية حفلت بكل زجاجات

النبيذ المحلى والخمور الواردة من اليونان وقبرص ولبنان . ثم كوافير لامور الذى كثيرا ما قام بتصفيف شعرى وسط أحاديث السيدات المتأنقات المشعات بأحدث العطور ! ومن حين لآخر كانت سيارة تتوقف لتهبط منها سيدة تلف شعرها بايشارب ، لا تلبث أن يبتلعها المحل الذى سرعان ما يلفظ أخرى وهكذا !

أما المحل الرابع الواقع على الناصية فقد قدر لى أن يكون نهاية المطاف ! كان محلا كبيرا لإصلاح الثلاجات والأفران . لم يهتم صاحبه بوضع لافتة عليه ، لأن ما بداخله كان أفضل اعلان عنه ! كان له بابان يطلان على شارعين ، فى حين اختفت جدرانه خلف بلاط القاشانى الأبيض اللامع ، وانهمك الصبية والشباب فى اصلاح الأجزاء التى قاموا بفكها ، أو فى تركيب التى أصلحوها . وعلى رأسهم كان شاب وسيم جذاب يدور بينهم يوجههم ويساعدهم إذا ما استعصى الأمر على أحدهم . وكثيرا ما كان صاحب المحل يترك ادارته كلها لهذا الشاب الذى لم يخف علىّ اعجاب احدى العاملات فى محل الكوافير به ! كنت اعرفها شخصيا ، فهى متخصصة فى المانيكير والبيديكير وكثيرا ما كانت تتجاذب معى أطراف الحديث فى أثناء ترددى على المحل . كانت هيام ـ وهذا هو إسمها ـ سمراء ، فارعة القوام ، دقيقة التقاطيع ، جذابة الملامح ، لها عينان عسليتان واسعتان ، وشعر بنى داكن لامع ينهمر على ردائها الأبيض الضيق ذى الفتحة الجانبية التى تكاد تصل إلى منتصف الفخذ البض العفى . حتى فى جلستها أمامى لطلاء الأظافر كانت تترك

لجسدها المتفجر العنان كى يعلن عن مكامن فتنته الساخنة ، وكأنها تستعرضه أمام رجل وليس أمام فتاة من بنات جنسها !

أما عن مناوراتها حول الشاب الوسيم الذى يعمل فى المحل المجاور ، فكانت صريحة وواضحة برغم تحفظه البادى ، خاصة أمام الصبية والعمال الذين يعملون تحت إمرته ! لم تكن هيام تمل من الخروج بين حين وآخر بحجة نشر منشفة جديدة فى الشمس فوق المشجب الموضوع على الطوار بين المحلين . وفى كل مرة كانت تصر على اطلاق سهامها على وجهه ، خاصة إذا كان قريبا من الباب المفتوح على مصراعيه . ولا أعلم لماذا كان يجتاحنى ضيق كلما فعلت هذا ؟ ! هل لأنها كانت تجسد كل ما عجزت أنا عن القيام به ؟ ! إنها تتصرف وتتحرك كما لو كانت الحياة كلها ملكها برغم أنها لا تملك سوى وظيفتها كما يبدو ! لكننى كنت ارتاح لتحفظه وأحيانا لتجاهله اياها ! لم أعرف سببا لهذا الإرتياح ، لكنه ارتياح تحول إلى نوع غامض من الإثارة التى لم تعرف طريقها من قبل إلى حياتى ، وذلك عندما كنت خارجة من محل الكوافير ذات عصر فوجدته واقفا على الطوار . التقت العيون ولاح شبح ابتسامة حانية على وجهه ، لكننى أسرعت بعبور الشارع بين السيارات المارقة إلى بيتى !

كم كان وسيما وجذابا عندما رأيته وجها لوجه لأول مرة ؟ ! من الشرفة تبدو الأشياء نائية ، باهتة ، غير حقيقية ! استرجعت جلساتى الطويلة المتتابعة فى الشرفة فأيقنت أننى كنت المقصودة بالإبتسامة الحانية المفاجئة ! كثيرا ما خيل الىّ أنه يتابعنى بنظراته

من طرف خفى وأنا فى جلستى بالشرفة ، لكننى سرعان ما كنت أكذب هذا الظن بل وأطرده شر طردة ! فليس بيننا ما يمكن أن يصل بيننا اجتماعيا أو حتى اقتصاديا ! ومع ذلك كنت استمتع بدورى وأنا أراقبه فى إشرافه على الصبية والعمال ، وتجاهله لمناورات هيام ! حتى رأيته وجها لوجه ! وجهه الخمرى ، وشعره الفاحم الناعم اللامع ، وأنفه الحاد الدقيق ، وشاربه الكث القابع فوق شفتيه البنيتين المكتنزتين ، وعيناه العميقتان المشعتان بدفء الرجولة ، وقامته الطويلة الرشيقة تحت المعطف الأصفر الداكن !

فى تلك الظهيرة صعدت إلى شرفتى الأثيرة لأتأكد من ظنونى السابقة والتى اكتشفت أنها كانت فى محلها ! كانت نظراته الصاعدة الهابطة من الحرص والذكاء بحيث لم يلحظها أحد ، بل إنه فى اللحظات التى كانت هيام تخرج فيها من المحل المجاور ، كان بدوره يندس بين الصبية والثلاجات والأفران ! سلوك أثلج صدرى وأشاع برد الراحة لأول مرة فى جسدى الرقيق المشدود ! لم أهتم بتفسير المشاعر الجديدة التى غمرتنى بأمواجها ، بل تركت نفسى لضرباتها العذبة الباردة فى قيظ تلك الظهيرة التى كانت تلهب ظهور الناس وصفحات الشوارع بسياط من نار ! نار انتقلت إلى كهوفى الباردة المظلمة لتنيرها وتلهبها ! لأول مرة مارست متعة الإحساس بجسدى وبما يعتمل داخله من تيارات متضاربة ! كنت أرتدى فستانا أصفر يتناغم مع جدائلى الذهبية ، وقد وضعت ساقا على ساق فى استرخائى

فى المقعد البامبو تاركة سخونة جدران الشرفة تشع حول فخذى الذى تعرى حتى نصفه فى شقاوة محببة . حتى ملابسى الداخلية الدقيقة الشفافة التى أحاطت نهدى باطار أسود ، وأعلى الفخذين بآخر من نفس اللون ، سرت فى جسدى بدغدغة تركت لها العنان ، وأنا أختلس النظرات من حين لآخر إلى هذا الغريب الغامض الذى شرع فى التغلغل إلى أعماقى دون سبب واضح ، لكننى لم أمانع ! فقد استمعت إلى تجارب مماثلة من زميلات المدرسة الثانوية ، لكنها اقتصرت فقط على مجرد الإستماع لا الإستمتاع !

فى تلك اللحظات تأكدت من أنه استهوانى شكلا وإن لم يناسبنى موضوعا . لكن هل يعقل أن أكبل نفسى بقيود جديدة ؟ ! ألا تكفينى القيود التى وضعها أبى على ذراعى وساقى وقلبى ؟ ! ما الخوف من تجربة مثل تلك التى سمعت بها من زميلاتى ؟ ! حتى صديقة عمرى منى استسلم قلبها أخيرا لغزو زميل لها فى الشركة التى تعمل بها بعد أن ظلت تكرر مراراً أن الحب لم يخلق لمثيلاتنا ! لكن هل معنى هذا أننى أعترف بوقوعى فى غرام هذا الغريب الغامض الذى لم أعرف بعد حتى اسمه ؟ ! وماذا سيكون موقف أسرتى الكريمة ـ وعلى رأسها أبى وأخى ـ لو بلغها أن ثمة شبهة حول ارتباط ما بينى وبينه ؟ ! إن زواجا مثل هذا فى نظرها من رابع المستحيلات ! لكن كم من تجارب انتهت بلا زواج ، وبعضها ترك ذكريات يمكن العيش عليها عمرا بأكمله ؟ !

لأول مرة فى حياتى أصبحت الآمال أكبر من المخاوف فتركت قيادى لها . أصبحت شرفتى أحب مكان إلى قلبى فى هذه الدنيا ! ولم يخف عليه أيضا أننى أتابعه من خلف سورها الحجرى ذى الأعمدة المستديرة الراسخة ! والعجيب أن هيام فى فترات خروجها من المحل كانت تختلس النظر إلى الشرفة حينا ثم إليه حيناً آخر ! لكننى لم أهتم بل تذكرت الجملة الأثيرة عند أبى : تروح فين يا صعلوك بين الملوك ؟ ! وتحولت نظراته الخفية إلى ابتسامات تبدو عابرة لكنها مرسومة بعناية ، وعرفت أن اسمه لطفى عندما سمعت صاحب المحل يناديه به ، وأنه يملك سيارة قديمة لكنها نظيفة لامعة يأتى بها إلى مقر عمله ، وتظل قابعة بحذاء طوار قريب فى انتظار عودته ! كما أن أناقته بنفس النظافة واللمعان حتى وهو فى معطف العمل الأصفر الداكن ! لعله من أسرة عريقة مثلى جنت عليه هو الآخر ؟ ! إن سلوكه أبعد ما يكون عن أسلوب الغوغاء ! وبدأ يزورنى فى المنام بعد أن أغمض عينى على صورته ، وتحولت أحلامى من كوابيس السقوط من أعلى العمارات الشاهقة ، والزلق فى وحل الأزقة الباردة ، والوقوع على قضبان قطار سريع داهم ، إلى أطياف الأحضان الحانية التى تحتوينى وتحمينى من صقيع الحياة !

● ● ● ● ● ● ●

الحمد لله . . . فإننى لم أستمتع باغفاءة عميقة مثل هذه منذ دخولى هذا المستشفى ! لا أعرف إذا كانت طويلة أم قصيرة ، فالظلام يلف كل الأشياء ، ويغرق فى طياته كل تفاصيل الغرفة

التى أنام فيها ممددة على ظهرى ولولا عودة الآلام التى لا تزال تتحدى أقوى المسكنات لظللت غارقة فى هذه الإغفاءة ! ويبدو أن القلق قد أيقظ أمى أيضا من شخيرها فرأيت شبحها جالسا فى السرير المجاور لكنها عادت إلى النوم المتقطع مرة أخرى ! سمعت ذات مرة من يقول إن النوم والنسيان خير عزاء للإنسان الذى فاته قطار الحياة ، لكن الذكريات تتكالب على وسادتى لدرجة أننى أرى مشاهد الماضى مضيئة ساطعة برغم الظلام القابع ! مرحبا بالذكريات . . حلوها ومرها . . فهى رفيقتى فى طريق الحياة الموحشة الشائكة تحت أقدامى الدامية !!

● ● ● ● ● ● ●

لاحظت مايسة جلوسى المستمر فى الشرفة حتى فى لحظات القيلولة التى كنت مغرمة بقضائها فى الفراش ، خاصة فى أيام القيظ ! لكننى أوقفت تساؤلها بطريقة أذهلتها ! فهى لم تسمعنى من قبل وأنا أتحدث عن حريتى الشخصية ومزاجى الخاص الذى أرفض أية وصاية عليه ! صدمت فلزمت الصمت وهى تتراجع لمواصلة دراستها ! أما أخى كمال فلم يعد يمكث فى البيت طويلا ! إعتاد أن يطلب من أبى كل ما يعن له من أموال كان يحصل عليها دون أى تعجب أو حتى إستفهام ! وأحيانا كان يدعى أنه يواصل السهر مع زملائه للإستذكار ، لكن نظراته وحركاته كانت تؤكد لى أنه وضع أقدامه على بداية طريق الإنحراف دون أن يستجوبه أبى الذى قصر نشاطه فى الفترة الأخيرة على رعاية ممتلكاته وعقاراته ثم قضاء ما تبقى من وقته فى

بدأ لطفى فى الإتيان بحركات من يديه وذراعيه تكاد تشكل لغة اشارات التقطتها على الفور ، وفهمت أنه يطلب ميعادا للقاء . تجاهلت هذه الخطوة الجريئة وتذكرت على الفور مها ومنى اللتين دهشتا لهذا الإستدعاء غير المعتاد الذى ضاعف من قلقهما المتزايد علىّ منذ هجرى للدراسة الجامعية ، ومقاومتهما المستميتة لهذه الخطوة التى كانت كارثة فى نظرهما !

ـ الآن تأكدت تماما من جنونك !

كانت هذه الجملة القنبلة التى ألقتها مها فى وجهى بمجرد الإستماع إلى تفاصيل تجربتى الجديدة ! لكنى لم أصدم بل لم أهتز ! كنت أعلم رأى مها مقدما ، ومع ذلك كنت فى أشد الحاجة إلى المشورة والمناقشة !

ـ تهجرين الجامعة لأسباب سخيفة غير مقنعة ؟ ! والآن تقعين فى غرام عامل ثلاجات لا تعرفين عنه شيئا ولا ينتمى إليك بأدنى صلة ؟ !

كنت أعشق الإصرار فى صوت مها وبريقه فى عينيها ! فلماذا لا أمارس أنا الإصرار بنفس القوة :

ـ لم أعرف مذاقا للحياة إلا بعد الأحاسيس التى أثارها داخلى والتى هطلت بالأمطار على أرضى القاحلة !!

وضعت مها ساقا على ساق وهى تهز قدمها فى عصبية

بالغة :

ـ لماذا لا تواجهين الواقع مرة واحدة فى حياتك ؟ ! وأمامك أختك مايسة خير مثال يحتذى !

لم ألتزم الصمت :

ـ تعرفين يا مها ما فعله أبى بى ؟ !

ـ إن أبى يفعل بنا وبأمنا ما هو أبشع آلاف المرات مما فعله أبوك !! بل إن نغمته المفضلة الآن هى تهديده بهجر البيت إلى الأبد بعد أن أضاع شبابه فيه وبعد أن فتح الله عليه بالمال الوفير فى عصر الإنفتاح ! ومع ذلك لم أهجر الجامعة ولم أقع فى غرام عامل ثلاجات ! بل زادنى هذا التهديد اصراراً على الإستماتة فى التفوق الدراسى حتى يمكننى الصمود لو نفذ تهديده ! فقد علمتنى الحياة أن كل شئ جائز وممكن !

حاولت أن أتعامل مع الجانب الرقيق فى شخصيتها :

ـ أليس لى الحق فى تجربة ولو عابرة مثل معظم الصديقات ؟ !حتى منى التى أغلقت باب قلبها ضد كل المناورات ، سمحت بفتحه أخيرا !

كانت منى على وشك أن تدلى بدلوها فى حرج واضح لكن مها جنبتها التردد فى إيجاد الأسباب :

ـ لكنه زميل منى . . وسيسعدها الزواج منه !!

ـ لكنه لم يفاتحها فى هذا الموضوع حتى الآن !

لم تجد منى بداً من توضيح موقفها :

ـ نحن لا زلنا على البر . . ولن أخوض معه البحر إلا وأنا

زوجة له !

أضفت مستمتعة بالثقة السارية فى نفسى :

- وأنا أيضا . . أستطيع المحافظة على نفسى . . فلست بالسذاجة التى يتصورها البعض عنى !

أمنت مها على كلامى أخيرا :

- هذا هو كل ما نتمناه !فأنا لا أخاف على اخوتى مثلما أخاف عليك !

- لا حرمنى الله من محبتكما !

شردت منى بعينيها فى وميض الثريا المتلألئة فى الصالون الذهبى :

- لعلها تجربة عابرة يمكن أن تعيد اليك تيار الحياة المتدفق . . وبما أن الزواج احتمال غير قائم فلا خوف من شبح التورط !

كم عشقت دفء هذا اللقاء النقى الشفاف ؟ ! كان لكل منهما جمالها الخاص بها : مها بشعرها القصير ، ووجهها القمحى ، وعينيها اللتين تحملان سحر اليابان المشع من فتحتيهما الطويلتين الضيقتين ، وأنفها الدقيق ، وجسدها الصغير المتناسق داخل البلوزة الخفيفة الحمراء ، والبنطلون الجينز الضيق الذى كان رفيقها الدائم خارج البيت . ومنى بوجهها الأسمر الجذاب ، وشعرها الأسود المتدفق على كتفيها ، ورقتها الحالمة برغم ظروف أسرتها الطاحنة ، وسلوكها الراقى الحانى الذى لم يتبدل بتبدل ملابسها التى أصبحت أنيقة ثمينة

بعد أن عملت سكرتيرة لخالى . لكن مها كانت أقوانا شخصية ، كانت كالقنبلة المتفجرة فى وجه كل من يحاول أن يدوس كرامتها ! فى حين كانت منى مثالا للصبر والصمود والأمل فى مستقبل لا يحمل بصمات الماضى التى لا تزال غائرة فى وجدانها ! أما أنا فقد جرفتنى سلبيتى التى بدأت مع اذلال أبى لى ، وعندما حاولت تأكيد ارادتى فى وجه الآخرين ، خاصة لطفى ، كانت دفة سفينتى قد أصابها العطب وأصبحت تحت رحمة الرياح والأمواج من كل حدب وصوب ! وكم لعنت ضعفى واستسلامى ؟ ! لكننى لم أتجاوز حدود اللعنة الصامتة !

كنت كمن حصل على تصريح من مها ومنى لخوض التجربة التى لم يكن لها شكل محدد أو أبعاد ملموسة ، وإنما دفعنى إليها احساس غامض بقدرتى على التفوق على هيام السمراء الساخنة التى تواصل إلقاء شباكها على لطفى الذى يصر بدوره على التعلق بى ! وأنا لا أستطيع أن أصد انسانا على استعداد ليقدم لى قلبه على طبق من فضة دون أن يعرف من أنا ! فقد أدركت أن القلوب يمكن أن تطير فوق الحواجز التى اصطنعها الناس كما تطير العصافير فوق البيوت والجدران والأشجار ! وها هو قلبى وقد طار من الشرفة ليستقر فى محل لطفى الذى ملأ حياتى ، ليلاً ونهاراً ، دون أن نتبادل كلمة واحدة !

قررت الإكثار من التردد على محل الكوافير . وعند خروجى فى كل مرة كنت أتلكأ بحجة الانتظار حتى يخلو الشارع من السيارات المارقة ، ونادرا ما كان يخلو ، ولولا احساسى بوقوف هيام خلفى عند الباب ، لسرت على الطوار أمام محل لطفى . أليس الطوار ملكا لكل السائرين عليه ؟ ! ولم يخف على لطفى وقفتى بالقرب من بابه أكثر من مرة ، فخرج مرتين ليقترب منى ! فى المرة الأولى عاد أدراجه مبتسما فى حرج وصمت برغم أن نظراته قالت أشياء كثيرة ! وفى المرة الثانية همس بصوت مسموع :

- تفضلى . . قفى تحت ظل الشرفة حتى يخلو الشارع . . فهذا القيظ يمكن أن يصيب حضرتك بضربة شمس !

ابتسمت وتراجعت إلى ظل الشرفة سعيدة باختفاء هيام داخل المحل ، فى حين اقترب لطفى خطوة أو خطوتين مواصلا همسه :

- نحن جيران . . والأقربون أولى بالمعروف . . المحل مستعد لبيع وتصليح الثلاجات والسخانات والأفران وبأسعار مخفضة للغاية !

شعرت بحمرة الخجل تطفح على بياض وجنتى ، ومع ذلك قررت أن أتخذ أول خطوة ايجابية فى حياتى قبل أن تفلت الفرصة من يدى . أجبته وقلبى يكاد يقفز من بين ضلوعى :
- سأتصل بك تليفونيا إذا احتجنا إليك !

ثم انطلقت كالسهم بين السيارات المارقة وصوته فى أعقابى :

ـ اسمى لطفى . . وأنا تحت أمرك ! . .

وطويت درجات السلم وسرعان ما كنت أجلس فى الشرفة وتساؤل ساخر يضحك فى أعماقى : كيف الإتصال به تليفونيا وأنا لا أعرف رقمه ؟ ! حتى المحل بلا لافتة يمكن البحث عنها فى الدليل ؟ ! لكننى فوجئت به على الطوار وهو يكتب رقم تليفونه باصبعه فى الهواء ! شعر بأننى ألتقط كل الأرقام فأعاد كتابتها فى نفس اللحظة التى برزت فيها هيام من المحل كالشبح . تظاهر بأنه يرقب شيئا على الطوار المقابل لكنها اقتربت منه مبتسمة وخيل الىّ أنها اختلست النظر الىّ ، ودار بينهما حديث قصير وددت لو دفعت عمرى ثمنا لإلتقاط كلماته كما التقطت أرقام تليفونه ! لكنها عادت إلى محلها وهو أيضا بعد أن قذفنى بنظرة باسمة غامضة أفقدتنى الإحساس بالوجود كله للحظات !

وتركت الشرفة إلى ظلام غرفتى لكن الأرقام أضاءت وجدانى ! كانت أمى تغط فى نوم القيلولة ! وأختى مايسة لم تعد بعد من امتحانها فى كلية الحقوق والذى يستمر من الرابعة إلى السابعة مساء ، وأخى كمال مع أصدقائه فى أماكن لا نعرفها كالعادة ، وأبى فى النادى مع زملاء البلياردو . تسللت إلى التليفون القابع فى الصالة وحملته إلى غرفتى ثم أغلقت الباب وجلست على الفراش وأنا أدير القرص باصبع مرتعشة ، وأمواج

من الإثارة لم تغرقنى فى لجحها من قبل . دوى الرنين فى أعماقى وكدت أن أعيد السماعة مرة أخرى لتوقفه ، لكن صوته جاء على الطرف الآخر وكأنه يتوقع المكالمة . ترددت وتلعثمت ثم سألته عن أسعار اصلاح الثلاجة الأمريكية الكبيرة ، فضحك وقال إن المعاينة لابد أن تتم قبل تحديد السعر ، وإنه على استعداد للمعاينة فوراً ! حاولت التغلب على خجلى وتذرعت بحجة إخبار أبى أولا ، فتضاعفت جرأته وردد المثل الذى ينادى بترك الخبز للخبازين حتى لو أكلوا نصفه ! لم أجد كلمات أخرى تسد فراغ الصمت فإذ به يضيف قوله بضرورة لقائى قبل المعاينة حتى يعرف بالضبط ما أصاب الثلاجة الأمريكية الكبيرة ! لم يسمع سوى صوت أنفاسى اللاهثة التى ربما نقلت دقات قلبى عبر الأسلاك ، فاستأنف الغزو موضحا أنه سينتظرنى فى سيارته الرمادية الصغيرة فى الأحد التالى الذى هو يوم عطلته الأسبوعية فى تمام الحادية عشرة صباحا أمام مدخل كازينو مدينة غرناطة !

كان يتحدث بثقة عجيبة كما لو كان قد رتب كل شئ مسبقا !! لم أستطع الرد فتساءل : هل السكوت علامة الرضا ؟ ! أخيراً صدر صوت من أعماقى التى تكلمت بدلا من لسانى : نعم ! سرت النشوة فى كلماته وأكد أنها أجمل كلمة سمعها فى حياته ، وأنه لن يطيل فى المكالمة أكثر من هذا حتى لا يسبب لى أى احراج ، فتمنيت له السلامة . طلب منى أن أضع السماعة أولا لكننى رفضت ، فأصر على عدم وضعها وإقفال الخط فى وجهى . اضطررت إلى توديعه ووضع السماعة وأنا لا

أدرى ماذا يمكن أن أفعل بنفسى ؟ ! لم أكن أعرف أن الحب ساحر يمكن أن يبدل الدنيا هكذا من حال إلى حال فى لحظة ؟ !

كانت أمامى ثلاثة أيام قبل أن يصل الأحد ! ثلاثة أيام لم أخرج فيها إلى الشرفة كثيرا بعد أن وقعت صريعة التردد والخوف والشرود والأمل والإثارة والنشوة والقلق والمتعة ، كلها تكالبت علىّ كما لو كانت متربصة بضحيتها الناعمة البضة الرقيقة الهشة ! حتى أمى لم تخف عليها هذه التحولات التى أنكرتها تماما ! فكفانى ما جرى لى من جراء تدخل الآخرين فى حياتى وفرضهم أنفسهم علىّ قسراً ! قررت آلاف المرات ألا أذهب للقائه ، وصممت ملايين المرات على لقائه مع كل لحظة من لحظات تلك الأيام الثلاثة حتى جاء يوم الأحد ، فوجدت نفسى دون أن أدرى ، أستيقظ مع رطوبة الفجر بعد أن زارنى أكثر من مرة فى أحلامى التى سألته فيها مرارا عن مدى علاقته بهيام ، فأقسم بأغلظ الأيمان على أنها مجرد علاقة جوار بين محلين ، لأن هيام لا يمكن أن تكون فتاة أحلامه ، فهى مجرد عاملة مانيكير وبيديكير فى محل كوافير !

مع بداية ضجيج الصباح تسللت إلى الحمام حيث أغرقت جسدى فى مياه البانيو الساخنة التى امتزجت برغاوى العطر الفواح الذى بدا وكأننى أشمه لأول مرة برغم استخدامى إياه سنوات طويلة ! كان كل شئ معطرا صافيا نقيا منعشا مثيرا ممتعا ، لم يعكره سوى شبح هيام الذى سرعان ما كنت أطرده ! خرجت من البانيو كحورية بزغت من بين أمواج المحيط تحت

ارتديت أبهى ما عندى من ملابس . كان فستانى أحمر يحيط خصره الدقيق حزام أسود لامع مع حقيبة وحذاء من نفس الجلد واللون . أما جدائلى الذهبية فتركتها تنساب على كتفى فى شقاوة وهج الشمس . جففت جسدى الذى تأملت كل هضابه ، ومنحنياته ، وجباله ، وبراكينه ، وقممه ، ودهاليزه ، وكهوفه الرطبة المبتلة ، وغابته بشجيراتها الغضة الرقيقة التى لم تتعرض بعد لهبات الرياح الساخنة أو فيضان الينابيع المتدفقة ! ظللت أدور عدة مرات أمام المرآة وأنا أتساءل : أين كان هذا الجسد ؟ ! كيف لم أشعر به من قبل وهو جسدى الذى لم أعرف غيره منذ اللحظة التى خرجت فيها إلى هذا العالم ؟ ! صحيح أننى كنت واعية بجمالى بدليل طابور الخطاب الذين فروا من عجرفة أبى ، وتلميحات زملاء الكلية التى لم تجد عندى أى صدى ! فقد فشلوا جميعا فى إيقاظ أنوثتى من مكامنها التى لم تهتز إلا بعد الصاعقة التى هبط بها لطفى عليها بشحنة رجولته الغامضة المتفجرة ! إذ يبدو أنه المسألة ليست مجرد التقدم لطلب يدى ، أو مجرد القاء عبارات الإعجاب بجمالى ، بل هى انجذاب مغناطيسى قد يبدو بلا مبررات لكنه محسوس كالشمس فى وضح النهار ! لا أنسى جملة قالها لنا أستاذ الفلسفة العجوز فى إحدى محاضرات الكلية عن الإنسان الذى يدعى الحكمة ويتظاهر بالبصيرة الثاقبة فى استيعاب كل المبررات والأسباب حتى يخفى احساسه الحقيقى بالجهل ، هذا الاحساس الممض الذى يجعله غريبا فى هذا الكون ! كريشة فى مهب الرياح !

حطمت القيود القديمة ، فى حين تناغم طلاء أظافرى الذى وضعته لى هيام فى اليوم السابق مع لون الفستان الفاخر المحيط بكل منحنيات جسدى . وكنت قد حاولت التدقيق فى عينى هيام لعلى أقرأ شيئا ، لكنها كانت تتحاشانى على غير عادتها فى الثرثرة والضحك والدعابة ! غمرنى احساس مريح أوحى الىّ باحتمال ابتعادها عن طريق لطفى ، إذ أن الذى يسعى إلى الصعود لا يمكنه الهبوط فى الوقت نفسه ! فلا وجه للمقارنة بينى وبينها !

مع دقات الساعة العريقة فى الصالة تعلن العاشرة والنصف ، سألتنى أمى فى قلق عن وجهتى فأجبتها بأننى سأزور صديقة لتهنئتها على خطبتها التى تمت أخيرا ، فدعت لى بالإصابة بنفس العدوى السعيدة . خرجت وقد تراجعت مخاوفى بمجرد تعرضى لضوء الشمس الذى أنبأ بيوم جديد قائظ . وفى دقائق كنت فى تاكسى منطلق إلى ميدان روكسى حيث هبطت لأكتشف أن القلق دفعنى لبلوغ اللقاء قبل ميعاده بربع ساعة . فتسكعت لمشاهدة أحدث الإزياء التى تعرضها المحال الجديدة فى الميدان فلم أجد أروع مما أرتديه . كما حرصت على مشاهدة وجهى النضر القلق فى زجاج الواجهات العريضة الشفافة أو الداكنة ! نظرت إلى ساعتى الذهبية الصغيرة فوجدتها تعلن الحادية عشرة ! فأسرعت بعبور الميدان ودقات قلبى تتزايد وتتصاعد . مررت بنافورة امتنعت عن اطلاق رذاذها فى حين دارت حول حافتها حمامات بيضاء تشرب من بحيرتها .

وجدت نفسى أمام باب مدينة غرناطة الذى تراصت بحذاء

طواره سيارات عديدة لم أتبين سيارة لطفى الرمادية فى طابورها !

● ● ● ● ● ● ●

آه . . لم يأت لطفى حتى الآن منذ دخولى هذا المستشفى ! لعله لم يسمع بعد بما وقع لى بعد أن أصبح تردده على البيت نادراً ! سألت أمى عنه فقالت إنهم ذهبوا لإبلاغه ! أعدت السؤال على مها ومنى فى فترات ترددهما على غرفتى ، فما كان من منى إلا أن أشاحت بوجهها فى خجل وحيرة ، فى حين أصرت مها على أن ما يهمها الآن هو شفائى وخروجى بالسلامة من المستشفى لبدء حياة جديدة تماما ، إذ لا يعقل أن أبدأ نفس الحياة من جديد ! ومع ذلك لا زلت أتساءل فى صمت : كيف لا يأتى للزيارة والسؤال عنى بعد ما وقع لى ما وقع ؟ ! إننى لم أعرف يوما كيف أكره أحداً ؟ ! فليس أقل من أن يعتنى بى من أفنيت عمرى فى حبهم برغم كل ما لاقيته من عنت وذل ، خاصة إذا كانت فى قاع هذا الكابوس الحى الذى لا أرى له نهاية !

● ● ● ● ● ● ●

سرت على الطوار وأنا أتصفح السيارات المتراصة من طرف خفى ، ففى داخلها كان بعض الشباب الذى بهر بهذه الحسناء التى تسير بمفردها لا تلوى على شئ ! وفجأة سقط قلبى فى قاع قدمى ! كان لطفى جالسا فى سيارته وقد امتزجت فيه الأناقة بالوسامة فبدا واحداً من أبناء أعرق الأسر الأرستقراطية أو كنجم من نجوم السينما ! انتفض خارجا من السيارة بمجرد أن رآنى وأسرع لفتح الباب الآخر ولسانه يلهج :

ـ أهلا وسهلا . . إنه شرف لم أكن أحلم به !

أسرعت لأقبع داخل السيارة دون كلمة ، فى حين أغلق الباب واستدار ليعود إلى سابق جلسته ! تحاشيت نظراته لكنه لم يضيع وقتا :

ـ لا أحب أن يراك أحد معى هكذا . . فأنت أدرى بكلام الناس . . هل تقترحين مكانا نذهب إليه لنناقش عملية إصلاح الثلاجة الكهربائية دون أن أتسبب فى حرج لك ؟ !

امتزجت ضحكة عابرة بكلماته الأخيرة لكننى واصلت الصمت دون تفكير محدد . أعجبتنى شخصيته الجريئة وهو يواصل الزحف :

ـ يمكننا التحرك إلى أطراف مصر الجديدة بعيدا عن العيون المتلصصة ؟ ! واصلت الصمت المشحون بالحرج فلم يسكت :

ـ إذا كنت محرجة أو خائفة منى فأنا تحت أمرك فى توصيلك إلى البيت مرة أخرى حالا ! فلا أحب أن تندمى على أية خطوة معى !!

لم يسعفنى التفكير لكننى قلت :

ـ لست خائفة ولا نادمة !!

ـ شكرا على هذه الثقة العظيمة !

تدفقت البهجة من بين شفتيه وهو يدير المحرك وينطلق بمهارة بين السيارات . كانت سيارته قديمة لكن عنايته بها كانت واضحة فى الأغطية التى أخفى بها مقاعدها ، والراديو

والكاسيت الإستريو الذى اختلطت موسيقاه بهدير المحرك ! لم أرتح كثيرا للموسيقى التى كانت فى معظمها دقات طبلة يبدو أنها مصاحبة لراقصة شرقية ! وكان لطفى من الذكاء واللماحية بحيث أسرع بتغيير الشريط بآخر صدح بموسيقى أجنبية خفيفة مريحة ! لم نتبادل كلمة واحدة . كان منهمكا فى القيادة فى حين اجتاحنى احساس لابد أنه من نفس النوع الذى مر به أول رائد فضاء فى أول رحلة له بعيدا عن جاذبية الأرض ! ولذلك كنت أتابع المرئيات حولى لكننى لم أرها بسبب الفضاء المحيط بالسيارة المنطلقة التى سرعان ما بلغت منتصف الطريق إلى المطار ثم انحرفت يمينا إلى طريق جانبى وعر بعض الشئ بين مساحات رملية شاسعة حيث توقفت على مرأى من طريق المطار ، ومعها أوقف المسجل ، فساد سكون لم يقطعه سوى حفيف الصحراء التى تمتد أمامنا حتى مرمى البصر ! التفت لطفى الىّ مبتسما فى رقة :

ـ قبل أن أفتح موضوع الثلاجة الكهربائية الكبيرة . . أحب أن أعرفك بنفسى حتى تعرفى حقيقة من تتعاملين معه ! فأنا أصلا من أسرة كبيرة عريقة لم يرحمها الزمن . عشت طفولة فى منتهى الرفاهية مع أخى الأكبر وأختى التى تصغرنى بسنة واحدة . لكن ضربة القمار كانت قد أصابت أبى الذى أضاع ثروة الأسرة على المائدة الخضراء فى الوقت الذى كنت فيه على وشك الإنتهاء من الدراسة الثانوية ودخول كلية الهندسة التى كنت أحلم بها ! فجأة وجدت أسرتى نفسها فى العراء بعد أن

خرج الأب ذات يوم ولم يعد ! لم يحتمل اخى الأكبر الحاجة بعد الغنى ، والذل بعد العز فانتحر بعد فقدان الأب الذى دلله بكل ما يملك من ثروة وعاطفة ! اضطررنا إلى الانتقال من شقتنا الفاخرة فى ميدان تريومف إلى شقة فى شارع أو زقاق متفرع من جسر السويس بعد أن حصلنا على خلو رجل سد جزءا من بوابة العوز التى فتحت أمامنا على مصراعيها ، مع ثمن القطع التى بعناها من أثاث الشقة بتراب الفلوس . أصبحت الجامعة رفاهية لا أقدر عليها مع مسئوليتى عن أمى وأختى فى تلك السن المبكرة ، فالتحقت بالورشة التى أعمل بها الآن ، وتدرجت فيها من صبى يضربه صاحبها يوميا إلى أسطى كبير يعتمد عليه صاحبها الحالى فى كل كبيرة وصغيرة ! وكثيرا ما راودنى التفكير فى إكمال دراستى الثانوية والإلتحاق بكلية الهندسة ، لكن مع تغير الظروف وجدت أن دخلى الآن أضعاف أضعاف أضعاف خريج الهندسة ، فتراجعت عن هذا الإتجاه وأصبح أملى الآن متمثلا فى انشاء ورشتى الخاصة !

صمت كى يلتقط أنفاسه ، فنظرت إليه فى تعاطف باسم لأول مرة منذ ركوبى السيارة معه . تشجع فى انتظار ما أجود به من كلمات بعد صمتى المطبق . لم أشأ أن أخيب ظنه فسألته :

ـ وما لقب أسرتك العريقة ؟ !

ـ المشاعلى . . ولو أنها انقرضت وأصبحت فى خبر كان !

ـ وهل لزمت أختك البيت دون أن تمد لك يد المساعدة ؟ !

ـ لم تكمل هى الأخرى دراستها . . فالتحقت بالعمل فى

مصنع صغير بالزيتون لأشغال الإبرة والصوف ثم تزوجت من جار لنا هاجرت معه إلى أمريكا . . ولذلك لم يعد لأمى سواى ! والحمد لله . . ففى مقدورى الآن أن ألبى كل ما نحتاج إليه بل وما يفيض على حاجتنا !

ـ لو مررت بهذه المحنة أو بمثلها لكنت الآن فى خبر كان !!

شعرت بأن ظروفى الأسرية لم تكن المحنة التى تصورتها وهو يقول :

ـ لا أراك الله محنة أبداً . . وجعل أيامك كلها سعادة فى سعادة ! لم أملك سوى أن أشكر له تمنياته الطيبة وأداعبه :

ـ ألا ترى أننا ابتعدنا كثيرا عن موضوع اصلاح الثلاجة الأمريكية الكبيرة ؟ ![تلاشى شبح ابتسامة ترك مكانه لتصميم عجيب :

ـ لن ألف وأدور أكثر من هذا ! فأنا منذ وقعت عيناى عليك فى الشرفة ووجهك الجميل لم يفارق مخيلتى . . وتمنيت أن أعيش العمر كله عند قدميك !

صمت ليتابع سريان الحمرة فى وجهى ثم استأنف :

ـ أعلم أن العين لا تعلو الحاجب . . لكن ما يشفع لى أسرتى العريقة التى لولا ظروفها السيئة لكانت الآن من أغنى أسر البلد ! من هنا كان تطاولى بالنظر إلى أعلى . . لكن قصدى شريف على أية حال ! وأنا رهن اشارتك سواء بالرفض أو بالقبول !

نطق لسانى دون اذن منى :
ـ ما تقوله مفاجأة كبيرة لى ! فهذا أول لقاء بيننا . . وكنت أتصور أن الأمر سيقتصر على مجرد صداقة أو حسن جوار . . لكن يبدو أننى كنت مخطئة تماما !

خاف أن يكون قد أغضبنى فاستدرك :
ـ الأمر ليس فيه خطأ على الإطلاق . . ولم يحدث ـ لا سمح الله ـ ما يعكر الصفو . . فإذا لم يكن الزواج السعيد من نصيبى . . فكفانى هذه اللحظات التى استمتعت وتشرفت فيها بصحبتك !

ركز عينيه على ركبتى شبه العاريتين فأسرعت بتغطيتهما بأطراف الفستان الذى سرعان ما تراجع إلى وضعه السابق ، فأسرعت بوضع حقيبتى عليهما وقد أشاح بوجهه بعيدا فى حرج بالغ ، لكننى قلت :
ـ أنت لا تعرف شيئا عنى حتى تتقدم لطلب يدى بهذه البساطة !!
ـ قالت لى هيام ما شجعنى على اتخاذ هذه الخطوة !!
وقع اسمها على أذنى كصوت الرعد ، فسألته دون أن أدرى :
ـ وما علاقتك بهيام ؟ !
ـ أبداً . . مجرد عاملة فى محل مجاور !
ـ وهل تدور هيام بأسرار الناس على الجيران ؟ ! ليتنى ما تحدثت فى المحل مع صديقاتى عن أى شئ يخصنى !!

استدرك فى لهفة :

ـ لا تظلميها . . فأنا الذى سألتها وضغطت عليها حتى أجابت !!

ـ وماذا قالت لك ؟ !

ـ لم تقل سوى أن سوء التفاهم بينك وبين أبيك قد أشعرك بالضياع لدرجة أنك عجزت عن مواصلة الدراسة الجامعية !

ـ وهل هذا هو السبب الوحيد الذى لفت نظرك اليّ ؟ !

ـ أى شاب يتمناك . . وأنا أتمنى لك الحظ والسعادة سواء معى أو مع غيرى ! خاصة أن أباك لن يرضى بمكافح مثلى أن يكون زوجا لإبنته ! لا أخفى عليك فان عشمى فيك مثل عشم إبليس فى الجنة !

تأثرت لنبراته المرتعشة وسرحت ببصرى عبر الصحراء المترامية الأطراف فرأيت كلبا هزيلا يقترب من السيارة ثم ينطلق بعيدا لا يلوى على شئ . كان لطفى فى انتظار تعليقى :

ـ لا أعتقد أن أبى سيرضى بك أبداً . . وسيحتاج الأمر إلى معركة لم أخض مثلها من قبل !

ـ وأنا فداك حتى النصر بإذن الله ! سأجعلك أسعد زوجة فى العالم ! إن دخلى لا يقل عن دخل وزير ! وهو دخل سيتضاعف عدة مرات عندما أملك ورشتى الخاصة !

ـ لا أحب أن تحملنا الأمانى بعيدا عن أرض الواقع ! فربما عجزت عن مواجهة أبى ! عندئذ سيذهب كل منا إلى حال سبيله !

ـ إذا كانت لى قسمة فيك فلن يقف بيننا حائل !

أحببت اصراره وحرصه علىّ حرصا لم أشعر به من قبل سوى من مها ومنى ! لكنه هذه المرة من رجل وسيم ، صامد ، قوى ، مثابر ، قادر على تحقيق آماله فى المستقبل ، كما أنه من أسرة عريقة على حد قوله ! اذاً فقد هلت المعركة التى لم تخطر لى ببال من قبل ! معركة أثارت فى داخلى مزيدا من المشاعر المتناقضة المتلاطمة التى ضاعفت من حيرتى وترددى ، ومع ذلك قررت خوضها ، فلا يمكن أن أترك أمواج الحياة لتتقاذفنى هكذا إلى ما لا نهاية !

وتقدم لطفى إلى أبى ! ووقع كل ما توقعناه بل وأبشع ! حتى مها ومنى راودهما الشك فى قواى العقلية ! وعندما فاتحت أمى فى الموضوع على سبيل التمهيد ، دقت على صدرها وجحظت عيناها كما لو كانت أمام شبح ! أما أبى فقد أنهى اللقاء بعد دقائق من بدايته ، بعد أن تعرف على لطفى الذى كنت قد وصفته لأبى بأنه مهندس ميكانيكى من عائلة المشاعلى ! وسرعان ما أهانه بجملة سمعتها من وراء باب غرفة الصالون ولا تزال تدوى فى أذنى : كيف سولت لك نفسك يا ولد أن تتقدم لطلب ابنة الأكابر وأنت مجرد صنايعى فى ورشة ؟ ! وتدعى أنك من أسرة عريقة لا وجود لها ؟ ! إننى أعرف هذه العائلات عائلة عائلة !!

ثم خرج أبي تاركا الصالون في حين سبقته أنا إلى غرفة نومى كى أختلى بدموعى ! أما لطفى فقد خرج فى صمت رهيب ! فتح أبي باب غرفتى فى عنف لاهث ملوحا بيده ، ومهددا بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا تجرأت مرة أخرى وجلست فى الشرفة التى سيصدر أوامره إلى أمى بغلقها إلى الأبد ، كما أنه سيمنعنى من الذهاب إلى الكوافير أو إلى صديقاتى حتى يأتى الزوج إبن الأكابر الذى سيحمل مسئوليتى من بعده !

شعرت بكلماته وكأنها أصابع حديدية تلتف حول عنقى تحاول ازهاق روحى . لقد رضيت بالضياع لكننى لن أرضى بالسجن ! دون أن أدرى خرجت صرخاتى فى وجهه الذى أصابه الوجوم لأول مرة وهو يستمع إلى اصرارى على الزواج منه . تقدم منى ليرفع يده ليصفعنى لكننى هددته بانهاء حياتى لو فعل ! لم ينس محاولتى الأولى فتراجع بصوت متهدج : لن أحمل ذنبك ! ولم يخلق الذى يهددنى بعد ! لكن عليك أن تختارى بينى وبينه ؟ ! بين العز والذل ؟ ! بين النعمة والنقمة ؟ ! إذا ذهبت إليه فلا عودة لك إلى هنا ! فلن تجرينى معك إلى الطين والوحل !!

خرج إلى الشارع وهو يرغى ويزبد ، لكننى أسرعت إلى التليفون وتأسفت للطفى عما جرى ، وأكدت له أننى سأقف إلى جواره مهما حدث ! وأكد لى بدوره أنه لن يتخلى عنى ، وأنه سيجعلنى أسعد زوجة كما وعدنى فى أول لقاء ! وذهب استعطاف

القلق على وجهه الجذاب ، لكن الحب سرعان ما كان يكتسح فى طريقه كل الهواجس والمخاوف الغامضة ! كان يؤكد أنه لولا استعداده لإنشاء ورشته الخاصة ، لطاف بها أوروبا والعالم كله فى رحلة شهر العسل ! لكننى لم أكن فى حاجة لرحلة لشهر العسل الذى كنت أنهل من رحيقه ليل نهار على يديه الحانيتين !

لكن دوام الحال من المحال كما كانت مها تقول دائما ! أصبح يغيب فى عمله طوال اليوم ، ويتركنى وحيدة أعد اللحظات لحين عودته . احتملت الوحدة فى صمت لكنه فى الشهر الثانى شكا من ارتفاع ايجار الشقة المفروشة الذى استنزف معظم دخله الشهرى ، وإذا استمر الوضع على ما هو عليه فإنه سيضطر إلى الإنفاق من الرصيد المدخر للورشة ، كما أن المسافة بين المعادى ومصر الجديدة شاسعة وكفيلة باستهلاك السيارة القديمة ! وكنت قد اشترطت عليه السكنى بعيدا عن مصر الجديدة التى عشت فيها عمرى كله مع الصديقات والزميلات ، تجنبا للقيل والقال والتشفى والسؤال !

لكن يبدو أن مثلى لم يخلق ليضع الشروط ، وإذا وضعها فى غفلة من الزمن فسرعان ما يتنازل عنها مختارا أو مجبرا ! ومع ذلك كنت طوع بنانه باختيارى ، تكفينى اللحظات التى سرقتها معه من الأيام والتى يمكن أن أعيش على زادها العمر كله . ثم اكتشفت أن التنازلات متى بدأت ، فلا يعلم سوى الله متى تتوقف ؟ ! فوجئت به وهو ينتقل بى من شقة المعادى الفاخرة إلى زقاق موحل متفرع من شارع جسر السويس بالزيتون كى أسكن

مايسة ، ودموع أمى ، ومناقشات مها ومنى أدراج الرياح ! أما أبى فقد اعتبرنى غير موجودة فعلا ، ووفرت عليه مؤنة هذا التجاهل بأن خرجت ذات صباح مبكر بحقيبة أحمل فيها ضرورياتى دون أن يشعر بى أحد ، وكان لطفى فى انتظارى بسيارته الرمادية طبقا لإتفاقى معه بعد أن استأجر لى شقة مفروشة فى المعادى ! وتزوجنا فى نفس اليوم كما يحدث فى الأفلام ، وذهبت إلى عش الزوجية السعيد لأعيش شهرا هو الذى خرجت به من هذه الدنيا !

لم أكن أعرف أن الحب ساحر هكذا ! وأن الزواج عشق متصل لا تخفت أواره ! ذلك أن ما رأيته بين أبى وأمى لم يكن مشجعا على الإطلاق ! أما لطفى فقد وفى بكل وعوده فى الشقة الفاخرة التى تنحنى عليها الأشجار من كل جانب لتحتضنها وتقبلها ! فى المساء ننعس على ضوء القمر المتسلل من زجاج النافذة التى لا تصل اليها عين ، وفى الصباح نصحو على شقشقة العصافير وهديل الحمام ! أما فى الليل فكان لطفى يتحول إلى عازف مذهل بأنامله الساحرة التى تضرب أروع الأنغام على أوتار جسدى التى كلما ارتخت أعاد شدها من جديد فى ايقاع يمزج العذوبة الساخنة بالرقة الحالمة ! ملأ عقلى ووجدانى حتى الثمالة ، وفى لحظات شرودى ووجومى العابرة كان يؤكد لى أن الظفر لا يمكن أن يخرج من اللحم ، وأن أبى لابد أن يصفح عنى عندما يجدنى سعيدة ، لكننى كنت أداعبه بأنه أصبح أبى وأمى وزوجى وحبيبى وكل شئ ! وكنت أحيانا ألمح مسحة عابرة من

مع أمه العجوز التى رحبت بى بشدة ، وهى تشكر الله أنه منحها ابنة جميلة مثلى بعد أن هاجرت ابنتها مع زوجها إلى أمريكا !

كانت انتقالة مفاجئة كئيبة ، لم أشعر بوطأتها إلا فيما بعد . فقد تذرعت بجملة مها الأثيرة : دوام الحال من المحال ! خاصة عندما يشرع فى انشاء مشروعه الذى يحلم به ليل نهار ! لكن ما أقلقنى فعلا أننى كنت بمثابة النغمة النشاز فى الزقاق وما حوله ! كان الجميع ينظرون اليّ نظرتهم إلى سائحة أجنبية لن تلبث حتى ترحل ! وأصبحت العيون تحيط بى إذا فتحت النافذة وكان لابد أن أفتحها ، فالشقة الواقعة فى الدور الأول لا تعرف الشمس أو حتى مجرد الضوء ، والعجوز لا تعرف الإضاءة فى النهار لأن هدفها توفير كل مليم لإبنها . ومع الأيام تحولت العيون إلى سهام حارقة خارقة لكل جسدى ! والنظرات إلى همسات وتلميحات اجتهد أصحابها أن تخترق أذنى !

كل هذا احتملته وإن كان الحنين قد عاد ليجرفنى إلى بيت أبى الذى أصبح محرما عليّ ! لكن الذى لم أعد أحتمله هو سلوك لطفى تجاه أمه التى اكتشفت أنه يطيعها فى كل كبيرة وصغيرة ! برغم أنه حاول جاهدا ألا يحرجنى بكلمة أو بإشارة ! حاول التوفيق بيننا قدر الإمكان ، ولما عجز هرب من الموقف كله بالخروج مبكرا والعودة بعد أن يغلبنى النعاس وأنا فى انتظاره ! وعاد شبح هيام ليطاردنى مرة أخرى فى وحدتى وعزلتى ، فهى جارته طوال النهار وجزء من الليل ، أما أنا فجارته عدة ساعات يضيع معظمها فى النوم ! فالعاشق الولهان المشتعل الذى عرفته

فى شقة المعادى تحول إلى عامل منهك نحيل وإن كان البريق الغريب الذى سحرنى فى عينيه لا يزال يومض وإن امتزج بشرود لم أعهده فيه من قبل !

فكرت أن أزوره فى الورشة للإطلاع على أحواله ، لكننى سرعان ما تراجعت فهى زيارة متفجرة بالمحاذير والمخاطر : هيام وأسرتى والجيران ! كاد سجنى الجديد أن يقتلنى بعد أن تأكدت ـ دون تحريات ـ أن أم لطفى لا يمكن أن تمت بصلة إلى الأسرة الأرستقراطية العريقة الوهمية التى ادعى أنه من سلالتها ! فقد بدأت تدس بأنفها المعقوف فى كل كبيرة وصغيرة بحيث أصبحت تحت رحمتها تماما ! وإذا حاولت الإعتراض ، كررت جملتها المفضلة : لم يجبرك أحد يا بنت الحسب والنسب على الزواج من ابنى ! وأحيانا كانت تقول « على الإيقاع بابنى » عندما تبلغ قمتها فى الغضب والفوران ! وإذا تزينت أوحت إليه بالشك فى أخلاقى وعلى مسمع منى ! وإذا طلبت منه الإنفراد به فى غرفتى ذات النافذة المفتوحة ، كان يسرع إلى غلقها كما لو كان متأكدا من كلام أمه بأننى أبادل ابن الجيران الإعجاب ! وإبن الجيران هذا مجرد صبى بقال لا يساوى ثلاثة ملاليم ، لكنه الزمن الأغبر الذى أوصلنى إلى هذه الحال !

فكرت فى الاتصال بمايسة التى قتلنى الحنين إليها ، فقد كان من الممكن أن أحادثها تليفونيا من أى محل فى السوق أثناء شرائى للخضر واللحم الذى أصبحت خبيرة فيه ، لكن العجوز قررت العودة إلى القيام بهذه المهمة كى أقبع فى عقر دارى

المظلمة الرطبة تجنبا لشر الفتنة التى لابد أن تنتج فى نظرها عن فتنتى القاتلة ! ومع ذلك كانت رقة لطفى وحنانه العزاء الوحيد الذى أعيش على ضوئه فى السويعات القليلة التى نتقابل فيها والتى يعبر فيها عن اقتراب تحقيق حلمه الأثير ، كما أنه لم يفقد أمله فى صفح أبى عنى ، فأنا كنت ولا أزال ابنته الكبرى ، ولابد أنه يبحث الآن عن أسلوب يعيد به الوشائج المتقطعة إلى سابق عهدها ، فلا يمكن للدماء أن تتحول إلى ماء !

ثم كانت المفاجأة الكبرى عندما عاد لطفى ذات عصر بارد مطير إلى البيت على غير عادته وفى صحبته أعز من قتلنى الحنين إليها : مايسة !! لم أصدق عينى عندما التصقت قدماى بالأرض كأننى فى حلم لا أريد الإستيقاظ منه ! لم أستيقظ إلا على صرختها الحبيبة : هالة . . أختى . . حبيبتى !! والتقينا فى عناق حديدى لم يلن تحت فيضان الدموع التى لم تجف إلا بعد أن أغرقت المناديل ، وصوت لطفى يؤكد فى بهجة وانشراح ايمانه العميق بأن الظفر لا يمكن أن يخرج من اللحم !

جلسنا فى غرفتى الضيقة المتواضعة ! أنا على حافة السرير النحاسى المرصع بالصدأ ، وهى على كرسى خيرزان اهترأت أحشاؤه ، فى حين جلس لطفى على حافة مائدة خشبية مستديرة عارية ، وجاءت العجوز لتسلم وتتعرف على القادمة التى يجب ألا تخرج عن نطاق تجسسها المتواصل ! خرجت لكننى كنت واثقة من تصنتها بالقرب من الباب ! كنت أتمنى الإنفراد بأختى لكن لطفى عسكر فى الغرفة وابتسامة بلهاء على وجهه توحى

بفضله فى احضار مايسة للقائى . تأملت مايسة الغرفة البائسة من طرف خفى ، لكنها سرعان ما ابتسمت بعذوبتها التى أوحشتنى كثيرا حتى لا تضاعف من احراجى ! داعبتها متسائلة :

ـ هل يعقل أن يمر أكثر من عام دون أن تفكرى فى زيارة أختك الوحيدة ؟ !

فتساءلت بدورها بنفس شقاوتها القديمة المحببة :

ـ ولماذا لم تسألى أنت عن أختك وأسرتك ؟ ! على الأقل فأنت تعرفين العنوان ؟ !

ـ وكيف حال بابا وماما وكمال ؟ !

كان لطفى على وشك أن يقول شيئا لكنه آثر الصمت وهو يستمع إلى كلمات مايسة :

ـ بعد رحيلك . . لم يعد البيت كما كان ! فقد تكالبت أمراض الشيخوخة على بابا الذى لم يعرف المرض فى حياته . . فى حين أصبح من المعتاد أن يبيت كمال خارج البيت دون أن يسأله أحد : أين ؟ ! ولماذا ؟ ! برغم تكرار مرات رسوبه وتعثره من عام إلى آخر لدرجة أنه صارحنى مرة بأنه لم يعد متحمسا للالتحاق بالجامعة ! أما ماما فقد زادت عزلتها . . حتى زيارات الجيران والأقارب أوشكت على التوقف تماما !

ـ ألم يرد ذكرى على لسان بابا ؟ !

ـ لم يعد يطيق الحديث مع أى منا !

تلألأ الوميض الغامض فى عينى لطفى وهو يتدخل فى الحوار :

ـ وكيف حال مها ومنى ؟ ! ألم يسألا عنى هما أيضا ؟ !

ـ اتصلتا بى أكثر من مرة للسؤال عنك لكننى لم أكن قد عرفت عنوانك بعد !

ازاح لطفى حشرجة حرجة فى حلقه وقال :

ـ وأيضا جاءتا إلى الورشة فوعدتهما باصطحابهما اليك مثلما اصطحبت إليك الآنسة مايسة اليوم !

ـ ولماذا لم تصطحبهما بمجرد مجيئهما اليك ؟ !

ـ لم يكن لديهما الوقت الكافى . . كما كان من الصعب علىّ أن أترك الورشة فى حضور بعض العملاء !

ـ ولماذا لم تخبرنى ؟

ـ أردتها مفاجأة أخرى لك مثل مفاجأة اليوم !

أحست مايسة بالتوتر الطافح على نبرات الحوار فتدخلت مداعبة :

ـ فعلا . . الحياة بلا مفاجآت لا طعم لها !

فقلت دون تفكير :

ـ وقد خلت حياتى فعلا من أية مفاجآت !

لم يلتزم لطفى الصمت عندما لمح شبح أمه يلوح خارج الغرفة :

ـ على كل حال . . الحياة بلا مفاجآت خير منها وهى زاخرة بالمفاجآت غير السارة !

لمحت حذاء مايسة الأسود اللامع وقد لطخ أسفله بوحل الزقاق :

ـ وهل ستكرر زياراتك لى يا مايسة ؟ ! فأنا فى أشد الحاجة إليك !

ـ وهل هذا سؤال يا هالة ؟ !

عاد لطفى إلى دس أنفه بتساؤلاته التى حفظتها عن ظهر قلب :

ـ ألم أقل لك مراراً إن الظفر لا يخرج من اللحم ؟ !

نهضت مايسة وهى تنظر فى حرج إلى ساعتها الذهبية :

ـ لقد تأخرت فى العودة إلى البيت ! أصبحت أمى نهبا لقلق مميت إذا زاد تأخرى على خمس دقائق !

نهضت بدورى واحتضنتها فى عناق حار طويل ثم تركتها دون رغبتى :

ـ فى انتظارك فى أى وقت ـ فأنا لا أبرح البيت ! وسلامى الحار لماما ولبابا ولكمال الذى أرجو من الله أن يصلح أحواله وألا يفشل فى دراسته مثلى !

لمعت الدموع فى عينيها فترقرقت عندى وهى تودعنى بيدها :

ـ باى . . باى !

فأسرع لطفى خلفها قائلا دون أن ينظر الىّ :

ـ سأقوم بتوصيلها . . فالسحب القاتمة لا تزال مشحونة بوابل من المطر !

وخرج خلفها وأنا أشعر برطوبة الغرفة القاتمة تحت المصباح الشاحب وهى تسرى فى عظامى ! عاد الماضى بكل ثقله فإذ به

حلم جميل بعد أن كان فى نظرى كابوسا لا يريد أن ينتهى ! هل كان نعمة رفستها ولذلك حلت بى اللعنة ؟ ! أصاب التشويش عقلى ففقدت القدرة على التمييز بين الأشياء ! دخلت أمه بردائها الأسود الكئيب وهى تتساءل دون مناسبة :

- ألم يحن الوقت لتنجبى ولدا يحمل أسم لطفى ؟ !

- عندما يريد الله !

خرجت صامتة بعد أن تلقت اجابتى كحجر فى وجهها ، لكنها لم تعلم أن شيئا غامضا داخلى دفعنى إلى الزهد فى الإنجاب ! أنجب من ؟ ! ولمن ؟ ! إن أحلامى التى نسجها لطفى بمهارة لم تعد تصمد لحقائق الأيام ، لكن المأساة الحقيقية أننى لا أجد بديلا لهذا الوضع لدرجة أننى لا أستطيع أن أتخيل حياتى بدون لطفى الذى لا يزال يمنحنى من حين لآخر لمحة من اللمحات التى تذكرنى بليالى المعادى التى لا تنسى ! كما أنه لم يحاول أن يجرحنى أبداً ! وعندما كنت أشكو اهماله لى ، كان يعتذر برقة بأن مستقبلنا السعيد هو السبب فى كفاحه ليل نهار ! وهو وإن كان يطيع أمه ويريحها ، فذلك لأنه لا يريد مشاكل لا لزوم لها ، بل ويجب أن أسلك مثله ، فهى عجوز لم يتبق لها فى الحياة سوى أيام معدودة ! أما المستقبل فهو ملكنا !

وصبرت . فلم أكن أملك سوى الصبر ! خاصة بعد تردد مايسة علىّ ومعها أمى التى حزنت كثيرا فى المرات الأولى لكنها أكدت لى فى المرات التالية أن المرض الذى هد صحة أبى قد فتح قلبه لطلائع الحنان ، ولعله فى القريب العاجل سيصفح عنى !

كما فوجئت صباح يوم جمعة بمها ومنى تدقان الباب ، وكانت فرحتى مضاعفة لغياب لطفى خارج البيت ، ذلك أن إجازته الأسبوعية كانت الأحد ! كان اللقاء مزيجا من الدموع ، والأحضان ، والعناق ، والقبلات ، والتنهدات حتى هدأت عاصفته وجلسنا فى غرفة نومى دون أن أعبأ بالعجوز التى أغلقت الباب فى وجهها وطلبت منها أن يكون الحوار هامسا !

كان بريق التحدى لا يزال يومض فى عينى مها ، أما منى فكانت ابتسامتها العذبة لا تزال تتراقص على وجهها الأسمر الجذاب . قالت مها وقد اتسعت عيناها اللتان تحملان سحر اليابان المشع من فتحتيها الطويلتين الضيقتين :

ـ هل هذا هو ما حاربت من أجله ؟ !

وكانت لا تزال تشير باصبعها إلى أركان الغرفة ، فأجبت :

ـ كل شئ قسمة ونصيب !

ـ إننا نعلق ضعفنا وترددنا على مشجب القسمة والنصيب ! على كل حال فى امكان الإنسان دائما أن يتراجع عن قرار خاطئ اتخذه !

كانت صوتها قد بدأ يعلو فطلبت منها هامسة أن تخفض منه ، لكنها قالت بنفس النبرة القوية :

ـ من يخاف توصيل رأيه إلى الآخرين . . لا يمكن أن يصمد أمامهم ! سيظل طول حياته تحت رحمتهم !

تدخلت منى كعادتها محاولة تهدئة الحوار :

ـ سألنى خالك عنك مراراً فلم أملك سوى أن أصارحه

بالحقيقة ؟ !

ـ ألم يكن يعرفها من ماما ؟ !

ـ يبدو أنهم حاولوا التكتم على الموضوع برمته ؟ !

ـ كأننى تسببت لهم فى فضيحة ؟ !

لم تهدأ مها :

ـ وماذا تسمى ما قمت به ؟ !

ـ وتدعين أنك نصيرة الفقراء والمساكين يا مها ؟ !

ـ أنا نفسى لست من الأغنياء . . وكذلك منى . . والفقر ليس عاراً . . ولا فضيحة . . لكن الفضيحة أن يترك الإنسان دفة حياته بلا هدف كى تتقاذفها الأمواج على أمل أن تلقى به يوما على بر الأمان . . وبصرف النظر عن فقر زوجك أو غناه فأنا لا أجد بينكما أى قاسم مشترك يمكن أن يربطكما فى حياة زوجية سعيدة أو حتى مستقرة !!

ـ على أى أساس أصدرت هذا الحكم . . وأنت لم يسبق لك معرفته ؟ !

ـ ذهبت إليه أنا ومنى لمعرفة عنوانك وزيارتك . . لكنه كان كالحية الرقطاء التى يستحيل التعامل معها . . فبعد أن قضينا ساعة فى المحل وهو يتظاهر بانهماكه فى العمل ، عاد إلينا متأسفا لإنشغاله وعدم قدرته على اصطحابنا ، وعندما طلبت منه العنوان ادعى أننا سنضل الطريق بدونه ، وطلب الإتصال به تليفونيا فى وقت آخر لتحديد ميعاد الزيارة ! لكننا لم نضل الطريق بدليل وجودنا معك الآن !

ـ وكيف عرفت العنوان ؟ !
ـ إنه ليس سراً عسكرياً !! من مايسة طبعا !

تخلت منى عن صمتها وهى تزيح شعرها الأسود المتدفق على كتفها فى تساؤل رقيق :

ـ ولماذا لم تسألى أنت عنا ؟ ! على الأقل فأنت تعرفين الإتصال بنا سواء فى العمل أو البيت ؟ !

كنت أبحث عن اجابة مناسبة لكن سرعان ما عرت مها ما كنت أحاول كتمانه فى خجل :

ـ يبدو أن السيد المهاب قد تحول من العاشق الولهان إلى الزوج السجان الذى أصدر أوامره بعدم مغادرة هذا الدهليز إلا بإذن منه ؟ !

كانت كلمات مها تقطر سخرية ومرارة ، لكننى فى الواقع لم أحاول الإحتكاك به فى هذا الموضوع ، بل اكتفيت باطاعة أمه التى تولت عنى القيام بطلبات الشراء من السوق ، لذلك قلت لها :

ـ لم يكن منعا منه بقدر ما كان كسلاً منى !

ـ برغم حبى الكبير لك يا هالة . . لم أستطع أن أحب فيك تبريرك للمواقف التى لا تواجه إلا بالحسم مهما كان الثمن ! إن المواجهة المريرة خير من التبريرات المعسولة ! وكما يقول أبو منى : وجع ساعة ولا كل ساعة !

أطلقت منى ضحكة مرحة وهى تساوى أطراف فستانها الأنيق على ساقيها :

ـ بابا مغرم بالحكم والأمثال لكن الحياة لم تمنحه فرصة تطبيق مجرد حكمة أو مثل واحد منها !

حاولت التخفيف من وطأة مها فداعبت منى متسائلة :

ـ وكيف حال أشرف ؟ ! أتمنى أن أحضر حفل زواجك قريبا !

مرت سحابة عابرة من الإحباط على وجهها لكنها سرعان ما طردتها :

ـ لا يزال يعد نفسه لهذا . . وأنا لا أحب أن أضغط عليه !

أصابت مها منى بواحدة من قذائفها المعهودة :

ـ أنت تعرفينه منذ عام تقريبا . . ولا زلت تهابين وضع النقط على الحروف !

ـ إنه أذكى مما تتصورين ! فهو يكاد يقرأ أفكارى !

عادت السخرية المعهودة إلى نبرات مها :

ـ يبدو أنكما تقضيان الوقت فى قراءة الأفكار بدلا من تخطيط المستقبل ؟ !

ـ منذ متى سلمت من لسانك ؟ ! على كل حال سنرى ماذا تفعلين عندما تتخرجين هذا العام ؟ ! فما أسهل الشعارات عندما نتشدق بها ! وما أصعبها عندما نحاول تطبيقها !

يبدو أن منى ـ دون أن تدرى ـ نكأت جرحا غائرا فى مها التى تخللت شعرها الذى ازداد قصرا ، بأنامل مشدودة متوترة ، والتى اهتز جسدها الصغير المتناسق داخل البنطلون الجينز الضيق وهى تقول لمنى :

ـ أنت أقرب الناس الىّ يا منى . . ومع ذلك لم أثقل عليك بهمى . . لكن ما دام الأمر هكذا فسأعترف لكما بأن أبى قد نفذ تهديده القديم وهجر البيت ليتزوج من فتاة لا تزيد عن عمرى إلا بسنوات قليلة . . بعد أن فتح الله عليه بالمال الوفير . . وتركنا بلا عائل . . ومع ذلك قررت مع أمى بصفتى ابنتها الكبرى أن ندبر الشهور المتبقية على تخرجى قدر الإمكان . . فلن نستجدى أحدا !! لكن المشكلة المخيفة منذ الآن تتمثل فى هذا السؤال الرهيب : ماذا لو عجزت عن الحصول على عمل فى أعقاب تخرجى بإذن الله ؟ !

انحنى ظهر مها لأول مرة منذ مجيئها فلم أحتمل مرارتها :

ـ لن يتأخر خالى عن مساعدتك كما ساعد منى من قبل !!

قالت مها خلف دموعها التى حاولت حبسها :

ـ العجيب فيك يا هالة أنك على استعداد لمساعدة كل الناس وتلبية رغباتهم باستثناء واحدة فقط هى أنت !!

ـ وهل أنتم مجرد ناس ؟ ! أنتم صديقات العمر وأخواته ! كل ما أتمناه أن يكون فى امكان خالى مساعدتك !

● ● ● ● ● ● ● ●

ما أطول الليلة ! لا أعتقد أن لطفى سيأتى ليزورنى بعد أن شجعتنى مها على تغيير أقوالى فى محضر التحقيق حتى أدلى بالحقيقة كاملة ! إننى أشعر بنوع من الإنتصار لكنه مر المذاق . لكن كان لابد أن يذوق لطفى بعضا من النار التى اصطليت بها فعلا ، والتى لا أعرف حتى الآن إذا كنت سأهرب بجلدى

المحترق منها أو أننى على أعتاب الأبدية ؟ ! أدركت الآن ولكن بعد فوات الأوان أن الآخرين يتعلمون ألف باء الجبروت والسطوة والعجرفة على أيدى السلبيين والمترددين والخائفين من أمثالى ! ولابد أن قانون القوة والمقاومة الذى تعلمته فى المدرسة ، يحكم العلاقات بين البشر أيضا ! فبدون مقاومة يدوس الأقوياء السلبيين فى طريقهم ظنا منهم أن القوة هى الحق ! لكن العجيب أننى لم أدرك هذا ، بل ولم أمارسه إلا وأنا فى قمة ضعفى الجسدى أواصل الحياة أو مجرد الوجود بالجولوكوز والحقن والمسكنات ، وإذا حاولت مجرد التحرك فى فراشى تعود النار لتشتعل فى جسدى مرة أخرى ! لو قدر لى أن أعيش فلن أشم رائحة شواء أو أجرؤ على تذوقه !

● ● ● ● ● ● ● ●

استيقظت مبكرة بعض الشئ على غير عادتى ، لكن لطفى كان قد خرج إلى عمله ! ألح علىّ طيف مها فبيت فى نفسى أمراً ! نهضت وأسرعت إلى الحمام حيث أشعلت موقد الغاز لتسخين المياه ، ثم انتهيت من حمامى فى دقائق ، والعجوز تتابعنى بعيون الصقر ، تود أن تستفسر لكننى لم أمنحها فرصة . أغلقت بابى خلفى وجلست أمام المرآة المشروخة التى عجزت مع الشحوب والهزال عن اخفاء جمالى ! ارتديت الفستان الأحمر الذى قابلت به لطفى أول مرة ، مع نفس الحزام الأسود اللامع كالحقيبة والحذاء تماما ، أما جدائلى الذهبية فتركتها تنساب على كتفى فى شقاوة حطمت القيود القديمة . كما حرصت على أن

يتناغم طلاء أظافرى مع لون الفستان الذى لم يعد يحيط بكل منحنيات جسدى كما كان يفعل يوم ذهبت للقاء لطفى . ثم أغرقت نفسى فى رذاذ عطر باريسى حتى أخفى رائحة بقايا الصراصير العالقة بالفستان من جراء حبسه فى الدولاب العطن برغم الإنفراجات والتقوسات المتعددة فى ظهره !

فتحت الباب فإذ بعينى العجوز التى كانت قريبة منه ، بؤرتان عميقتان من التساؤل والسخط والضيق والتحدى :

- إلى أين ؟ !
- سأزور خالى ! هل من اعتراض ؟ !
- وهل منحك لطفى إذنا ؟ !
- وهل زيارة خالى فى حاجة إلى إذن ؟ ! عن إذنك ؟ !

وخرجت لألقى بنفسى داخل أول تاكسى وقف لى ! رأيت الشوارع ، والناس ، والشمس ، والأتوبيسات المكتظة بالمتعلقين بأبوابها والهواء الطلق يلفح ملابسهم المرفرفة ، فجرى الهواء فى رئتى والدم فى عروقى بروح جديدة ! حتى الأجزاء التى طفحت عليها المجارى فى جسر السويس والتى خاضها التاكسى لم تبعث بالضيق إلى صدرى ! كنت سعيدة بذهابى إلى خالى الذى كان أقرب إلينا من أبينا ! وكان من الممكن أن أستشيره فى موضوع لطفى قبل أن تقع الفأس فى الرأس ، لكننى كنت متأكدة من رفضه للفكرة ، كما أن حزنه لمصرع زوجته فى حادث سيارة كان شديد الوقع على نفسه ، بحيث انزوى بعدها ولم يعد

يزورنا كما كان من قبل ! كان يحبها حتى العبادة برغم أنها لم تنجب له أطفالا ! وذلك على النقيض تماما من أبى مها الذى هجر الأسرة كلها وغدر بها من أجل تجديد شبابه مع فتاة فى سن ابنته !

وعندما زرت خالى لأوصى بتعيين منى بعد أن علمت أنه فى حاجة إلى سكرتيرة ممتازة ، كان مكتئبا ومقتضبا للغاية بحيث طلب منى أن أبعث بها إليه لإختبار مدى صلاحيتها للوظيفة . وانتهت المقابلة عند هذا الحد ! لكن مهمتى هذه المرة تبدو أصعب ! مها فتاة ممتازة بكفاءتها وشخصيتها القوية ! لكن ما العمل إذا لم يكن فى حاجة إليها برغم حاجتها الملحة إلى العمل ؟ ! أى عمل ؟ !

توقف التاكسى فانقطعت سلسلة أفكارى ! دفعت الأجرة وخرجت إلى ميدان روكسى الذى بدا فسيحا مشرقا على غير العادة ! وتذكرت يوم تسكعت فيه قبل لقاء لطفى ! لكننى هذه المرة لم أعبأ بواجهات المحال الزجاجية الزاخرة بأحدث الأزياء الواردة من باريس وروما ولندن ، بل أسرعت بقلب خافق إلى العمارة التى تعلو محل عمر أفندى ، والتى تحتل فيها شركة خالى الطابق الثالث بأكمله ! خرجت من المصعد لأنطلق إلى مكتب منى التى هجمت علىّ بالأحضان والعناق بعد أن عجزت عن احتواء فرحتها ، وهى تؤكد أنها ستكون مفاجأة رائعة لخالى الذى سرعان ما فتحت باب مكتبه ، وهى تدفعنى أمامها حتى كدت أن أتعثر ، وهو ينهض الىّ ليحتضنى ويسألنى عن أحوالى

التى لم يعرف عنها إلا القليل من منى التى تراجعت وتلاشت فى لمح البصر . جلست أمامه وقد بدا عليه الشحوب والهزال هو الآخر :

ـ ما هذه الخطوة العزيزة ؟ ! أخيرا تذكرت خالك ؟ !

ـ أنا أدرى بمسئولياتك ومشاغلك يا خالى ! لم أحب أن أثقل عليك ! فى هذا الزمن لم تترك هموم الإنسان له وقتا كى يلتفت لهموم الآخرين !

اغتصب خالى ابتسامة مدعيا روح الدعابة :

ـ تتكلمين كامرأة مسنة محنكة خبرت الحياة وهمومها ؟ ! ومع ذلك أعتب عليك عدم استشارتى قبل خوضك لهذه التجربة !

ـ أنت أدرى يا خالى بظروف الأسرة !

ـ كان لابد أن تعملى يا هالة أولا . . طالما أنك عجزت عن مواصلة الدراسة . . فالإستقلال الإقتصادى خير ضمان للحفاظ على أمان المرأة وكرامتها وكبريائها !

ـ لا أعرف ماذا جرى لى ؟ ! كنت أشعر أننى لم أعد صالحة لشئ !

ـ والآن ؟ !

ـ صابرة فى انتظار ما سوف يتحقق فى المستقبل !

ـ من ينتظرون المستقبل يظلون تحت رحمته . . أما من يصنعونه فهم سادته وهو تحت أمرهم !

ـ إنها نفس أفكار مها !

ـ ومن مها هذه ؟ !
ـ صديقة عمرى !
ـ مثل منى ؟ !
ـ نعم ؟
ـ منى هذه كانت أعظم هدية منك لخالك ! فتاة مثالية فى كل شئ ! إنها الدينامو الذى يشع بالطاقة والحيوية والحركة فى كل أرجاء الشركة ! لديها قدرة عجيبة على تنفيذ طلباتى قبل أن أفتح فمى بها ! إنها خير من معظم حاملى المؤهلات الجامعية العاملين فى شركتى !
خفت أن يتدفق الحديث فى غير صالح مها فقاطعته :
ـ واليوم جئتك بهدية أعظم من منى !
ـ تقصدين مها ؟ !
ـ وكيف عرفت ؟ !
ـ لا تنسى أن خالك رجل أعمال وليس فى حاجة إلى نقط على الحروف !
ـ تخرجت مها هذا العام فى كلية التجارة بتقدير جيد بسبب ظروفها الأسرية السيئة ، برغم أنها لم تتنازل عن تقدير جيد جدا طوال السنوات الثلاث الماضية ! ولن تندم يا خالى أبداً على تعيينها !
تشاغل خالى بالنظر إلى بعض الأوراق أمامه ثم تساءل :
ـ ماذا تحبين أن تشربى ؟ !
كنت أحفظ سلوكه عن ظهر قلب :

ـ ليس قبل أن أعرف رأيك فى تعيينها !
تردد قليلا ثم قال مبتسما فى حرج :
ـ فى الواقع يا هالة . . الشركة ليست فى حاجة إلى عمالة جديدة !
ـ لكنها تمر بظروف تجعل الوظيفة بالنسبة لها مسألة حياة أو موت !

سرح ببصره متأملا سقف غرفته الفاخرة ذات الهواء المكيف ثم ومضت عيناه ببريق حبيب ، وقال وهو يمسح صلعته بكفه :
ـ لى صديق أنشأ شركة استثمار فى ميدان سفير . . وأظنه لم يستكمل هيئة العاملين فيها بعد . . سأتصل به الآن وسنرى !

أدار قرص التليفون وسرعان ما جاء الصوت على الطرف الآخر متبادلا التحية والترحيب ، ثم فتح خالى موضوعها فلم يمانع صديقه لكنه اشترط رؤيتها واختبارها أولا شكلا ومضمونا . ضحك خالى ووعده بارسالها اليه ، وانتهت المكالمة ، ثم أخرج من مكتبه احدى بطاقاته وكتب عليها عنوان الشركة وتوصية بها . تناولت البطاقة سعيدة فى دعابة :
ـ والآن أستطيع أن أشرب شيئا مثلجا !
ضحك خالى وهو يضغط باصبعه على الجرس !

● ● ● ● ● ● ●

دخلت الحكيمة وأضاءت أباجورة فى أحد أركان الغرفة . فى اللحظة نفسها نهضت أمى فى فراشها المجاور لكن الحكيمة

طمأنتها إلى أنها أتت لتغير زجاجة الجولوكوز . تظاهرت بالنوم برغم الإبرة الجديدة التى دستها فى عروقى وبعدها أطفأت الأباجورة وغادرت الغرفة .

● ● ● ● ● ● ●

عاد لطفى إلى البيت متأخرا وإذ به يوقظنى ليعبر عن سعادته البالغة بزيارتى لخالى التى علم بها من أمه ! فهو لا يزال مؤمنا بأن الظفر لا يخرج من اللحم ! بل ويدعو الله أن تكون زيارتى القادمة ، لأبى ! فهو متأكد من حنان أسرتى برغم كل شئ ، وطيبة أبى على وجه الخصوص ! وكنت قد مللت فى الفترة الأخيرة تكراره لمثل هذه الكلمات ! فأنا أدرى بعجرفة أبى وعناده حتى لو كان على حساب أعصابه وصحته وراحة باله ! بدليل أن صحته تدهورت كثيرا ومع ذلك لم تبلغنى أمى أو أختى بأية اشارة منه تفتح لى طريق العودة إلى البيت !

فجأة هبط النبأ علىّ هبوط الصاعقة على شجيرة وليدة ! لقد رحل الأب الجبار العنيد فى لحظة عابرة لم تمهله حتى يرانى حسب طلبه . جاءت مايسة فى سيارة صغيرة يقودها كمال ومعهما النبأ الحزين ! اخترقنا شوارع مصر الجديدة فى ذلك الصباح البارد ومعنا لطفى الذى أصر على اصطحابنا لعله يستطيع أن يقدم أية خدمة ! لكن القدر كان أسبق اليه منا حين سمعت صرخات أمى وعويلها ولطمها !

فى تلك الأيام تفرغت مها ومنى وخالى للوقوف إلى جوارنا

فى المحنة الجديدة ! لكن لطفى كان مثار دهشة الجميع . ترك ورشته وتحول إلى نحلة تنتقل بيننا بهمة لا تعرف الكلل . لم يطلب منه أحد خدمة على وجه التحديد ، لكنه أدى كل الخدمات تقريبا بابتسامة متعاطفة حانية لدرجة أن خالى نفسه أسر فى أذنى بقوله إنه شاب بارع فى فتح القلوب المغلقة ، ولو عاشره أبى ربما كان موقفه قد تغير تماما ! كانت مواقف لطفى وتعليقات الآخرين خير بلسم لقلبى الذى استعاد حبه القديم له ومعه أيام المعادى ولياليها ! اذاً . . لم أكن مخطئة يوم أحببته ! ولعل الأيام القادمة تحقق له مشروعه ومعه السعادة التى طالما حلمنا بها !

لم يحرمنى أبى من الميراث كما كنت أتوقع ! بل كان نصيبى من العقارات والأموال السائلة ما يساوى خمسين ألف جنيه ! وإذ بلطفى وقد أصبح عاشقا ساحرا مرة أخرى ، بل إنه أهان أمه أمامى مؤكدا لها أننى كل شئ فى حياته ! والعجيب أن العجوز لم تحتج بل انسحبت فى هدوء إلى غرفتها ! وأقنعنى لطفى بأن نصيبى فى العمارتين لن يعود علىّ بدخل وفير نظرا للإيجارات الهزيلة التى يدفعها السكان القدامى ، والتى جرى عليها التخفيض أكثر من مرة ! وعندما فاتحت أمى وأختى رفضتا فى بادئ الأمر ، لكنهما أمام اصرارى خافتا من أن أبيع نصيبى لغريب ، فقامتا بشرائه وأصبح فى حوزتى من المال السائل خمسون ألف جنيه فى غفلة من الزمن !

اقترح لطفى أن أشترى باسمى شقة تمليك حتى أعيش على نفس المستوى الراقى الذى اعتدته من قبل ، فاندهشت لاقتراحه وذكرته بالورشة الكبيرة التى يكدح ليل نهار لإنشائها ، فصارحنى بأنه لا يستطيع أن يقيم المشروع بمالى ! عاتبته ضاحكة بأننى لا أعرف ماذا يمكن أن أفعل بمثل هذا المبلغ ؟ ! وأن مالى هو ماله طالما أن مستقبلنا ومصيرنا واحد ! وبعد الحاح من ناحيتى واصرار من ناحيته رضخ أخيرا بعد أن استقطعت من المبلغ جزءا لى . وعادت أيام السعادة مرة أخرى عندما كان يصطحبنى للبحث عن المحل الذى يمكن أن يصلح لورشته الخاصة ، لكنه لم يستقر على رأى وأكد لى أنه لا وجه للعجلة حتى لا يندم بعد ذلك . بل إنه يفضل أن يكمل المبلغ بكفاحه وعرقه حتى يشترى أحسن محل فى أهم موقع ! واستمات فعلا فى عمله لدرجة أنه أصبح يقضى الليل كله أو معظمه بعيدا عن المنزل ، وكنت أنتظره حتى الصباح لأقدم له الإفطار ! وكنت أشفق عليه من الإرهاق الذى رسم هالات سوداء حول عينيه ، وخط بالشحوب على وجهه وبالهزال على جسده ، لكنه كان يقبل يدى ويقول : من أجل مستقبلنا المشرق يهون أى تعب أو جهد ! وربما أتى اليوم الذى نصبح فيه أصحاب مصنع للثلاجات والأفران !

وكنت أدعو له من صميم قلبى ! لكن الملل عاد ليهاجمنى بعنف لم يسبق له مثيل ، بل امتزج هذه المرة بقلق غامض محض ! خاصة بعد أن عبرت لى مها عن شكوكها فى تصرفاته

التى توحى بالريبة . فهل هناك ورشة للثلاجات والسخانات والأفران تعمل ليل نهار ؟ ! ويواصل هو العمل معها ؟ ! أين المبلغ الضخم الذى حصل عليه منى ؟ ! إذا كان قد أودعه أحد البنوك للحصول على أرباحه ، فإن الإسراع فى إقامة الورشة يمكن أن يعود عليه بأضعاف أضعاف هذه الأرباح !! ثم تساءلت مها عن السر فى بقائى سجينة هذا الدهليز المظلم مع تلك العجوز الكئيبة ، فى حين أنه طليق اليوم كله بحجة المستقبل الذى يصر على أنه مشرق ؟ ! لماذا لا أخرج إلى العمل خاصة وأننى أجيد الإنجليزية والفرنسية وخالى لن يتوانى عن مساعدتى ؟ ! إلى متى سأظل تحت رحمة الآخرين ؟ !

لم تذهب كلمات مها أدراج الرياح هذه المرة . بدأت خطوتى الأولى بزيارة أمى التى سألتنى عما فعلته بما ورثته ، فكذبت وادعيت أننى أودعته البنك ! ثم جلست فى شرفتى الأثيرة التى ذكرتنى بأيام الحب الأول ، لكن شيئا ما جعلنى أختفى خلف أعمدة الشرفة الحجرية بحيث يمكن أن أرقب تحركاته أسفل الشرفة دون أن يلمحنى ! وفجأة أحسست بخنجر سام ساخن يخترق قلبى ثم ينفذ من ظهرى ! خرجت هيام من محل الكوافير بنفس الزى الأبيض الذى يكاد يتمزق ضيقا بقوامها الفارع الأسمر ، والشعر البنى الداكن اللامع المنهمر على كتفيها ، وفتحة الرداء الجانبية التى تكاد تصل إلى منتصف الفخذ البض العفى . وقفت على عتبة باب الورشة فى نفس اللحظة التى خرج فيها زوجى العزيز بمعطفه الأصفر الداكن ،

وشاربه الكث القابع فوق شفتيه البنيتين المكتنزتين ، وقامته الطويلة الرشيقة !

دار بينهما حوار كنت على وشك أن ألقى بنفسى من الشرفة إلى الطريق كى ألتقط كلمة واحدة منه ! لكن نفس الشئ الغامض شدنى إلى المقعد البامبو ، وإن قال لى قلبى أشياء مرعبة بعد أن طال الحوار بينهما مع الإبتسامات والضحكات التى محت كل آثار الإرهاق التى ارتسمت على وجهه أمامى فى الفترة الأخيرة ! ولولا خروج الأسطى الكوافير بنفسه ليستدعى هيام لطال الحوار إلى ما شاء الله ! ارتسمت أمامى علامات استفهام بشعة ، وتراقصت علامات تعجب أبشع ، وجاءت الإجابات كابوسا حيا !

هرعت إلى الداخل لأتصل بها فى مقر عملها الجديد الذى التحقت به بناء على توصية خالى ! وحكيت لها ما رأيته وما أكد شكوكها فيه منذ البداية ، فنصحتنى بالتزام الهدوء والحكمة حتى لا أفقد زمام المبادرة ، وعدم مغادرة مكانى لحين وصولها مع منى بعد انتهاء ساعات العمل ، فالأمر لا يمكن حسمه بمكالمة تليفونية ! كنت كالأسد الحبيس فى قفصه الحديدى ، وفكرت مراراً فى الهبوط إلى محل الكوافير ، وجذب هيام من شعرها البنى الداكن اللامع ثم سحلها فى الطريق ، وفى مهاجمة لطفى فى عقر ورشته ومواجهته بخسته ونذالته ، لكن شيئا من هذا لم يحدث ! فسرعان ما كنت أصبر نفسى المحترقة لعلى أكون قد أسرفت فى

سوء الظن الذى صور لى أن درء الخطر الداهم أصبح أمراً مستحيلا !

لاحظت أمى قلقى لكننى تعللت بفرحتى بزيارة مها ومنى لى بعد طول فراق ! وأخيرا بعد أن دقت الساعة الرابعة جاءت مها وفى أعقابها منى لنغلق على أنفسنا الصالون الذهبى ، ولنقتل الموضوع بحثا من كل جوانبه ! وكان الحل العملى هذه المرة عند منى ! ذلك أن أخاها الذى تخرج أخيرا فى أحد المعاهد الصناعية ، اشتغل فى ورشة ضخمة للخراطة ، قريبة من ميدان صلاح الدين ، وهذه الورشة تتعامل مع ورشة لطفى ، ويمكن من خلال الإتصال بعمالها معرفة كل شئ عنه ، فلا شئ يخفى عليهم وعلى ذكائهم اللماح ! ولذلك كان من الحكمة عدم اتخاذ أية خطوة بدون تحريات دقيقة تحدد موقع الأقدام قبل التحرك ! وكان كل رجائى أن تحث منى أخاها على الإسراع فى تحرياته حتى لا أحترق بنار الشك والغيرة ، وجحيم الظنون السوداء !

وقد تضاعفت لفحات هذا الجحيم عندما أبدى لطفى عدم ارتياحه لخروجى الذى أصبح شبه يومى فى الفترة الأخيرة ، وأنه لا يعقل أن أترك أمه العجوز لتقوم وحدها بكل أعباء البيت ! ثم أبدى دهشته لعدم ترددى عليه فى الورشة عند زيارتى لأمى ! ولأول مرة شعرت أننى أتخابث عندما ادعيت أننى أفضل عدم الظهور بين العمال حيث لا مكان لى ! ارتاح لإجابتى لكنه أكد أن بيتى عنده وليس عند أمى ! ذكرته بحكمته المفضلة بأن الظفر لا يخرج من اللحم ، لكنه أضاف بأن الظفر إذا طال أكثر من

اللازم فلابد من قصه ! وعندما لم أفهم قصده أشاح بوجهه ثم غادر غرفتى وهو يقول : أفضل لك أن تستمعى إلى نصيحتى وأن تنفذيها ! وعلى الزوجة أن تتبع زوجها وليست العكس !

وغاد أخو منى بتحرياته ليفسر لى هذه النغمة الجديدة التى أوحت الىّ بأنه لم يعد يريدنى بعد أن سلبنى كل ما أملك ! عرفت أنه اشترى شقة مفروشة فى المعادى ، ولعلها الشقة التى قضيت فيها أجمل أيام عمرى ولياليه برغم رائحة الخيانة العفنة التى تزكم أنفى ! وأنه يقضى فيها الليل أو معظمه مع هيام التى يصطحبها يوميا اليها بعد انتهاء العمل ! وأنه دعا صاحب الورشة اليها أكثر من مرة لقضاء سهرة حشيش وأفلام فاضحة ! وأن الجميع يعرفون أن زوجته هى السر فى الثروة التى هبطت عليه فجأة !

هبطت عليه الثروة وهبطت علىّ الصاعقة ! دارت الدنيا بى ولم أعد أدرى ماذا أفعل ؟ ! فى حين أكدت مها أنها لا تزال تصر على المواجهة المباشرة الحاسمة برغم كل شئ ومهما كان الثمن ! فالإنسان لا يعيش حياته إلا مرة واحدة ، ويجب عليه أن يعيشها بالطريقة التى ترضاها له كرامته كإنسان ! وكان الحل العملى هذه المرة عند منير أخى منى أيضا ! فهو يعمل سائقا لتاكسى بعد انتهاء عمله من ورشة الخراطة ، ومن السهل تتبع لطفى ومعرفة موقع شقته الغامضة المثيرة ، ومداهمته فى عقر داره ، ومواجهته بحقيقته المزيفة الغادرة ! فى البداية اجتاحنى رعب عندما تصورت أننى سأقوم بهذه المهمة بمفردى ، لكن مها أكدت أنها لن تتركنى فى موقف كهذا ، كما أنه لم يعد هناك خوف من أن

أخسر أكثر مما خسرت !

مع حلول الظلام فى ذلك المساء غادرت بيت أمى وكلى رعب من أن يلمحنى لطفى داخل ورشته . كانت المتسولة القابعة على ناصية البيت لا تزال تخفى وجهها بملاءة سوداء وتمد يدها سافرة عارية ! أسرعت إلى التاكسى الذى التصق بالطوار بعيدا عن صيدلية دمشق بلافتتها المضيئة ، وجلست فى المقعد الخلفى إلى جوار مها ، فى حين جلست منى إلى جوار أخيها الذى لم يحول عينيه بعيدا عن بابى الكوافير والورشة ! أطفأت بعض المحال أضواءها وأغلقت أبوابها فازداد ظلام الشارع الذى لم تخفف منه المصابيح الصفراء العالية . ظلام أسعدنا ونحن نراقب لطفى وهو يشرف على اغلاق أبواب الورشة التى غادرها العمال جميعا ، بينما ظل يتسكع على الطوار حتى خرجت له هيام وهى ترتدى فستانا ورديا . حاولت التعلق بذراعه لكنه أبعدها فى رفق وهو ينظر الى شرفتى الأثيرة التى غرقت فى الظلام ! سارا جنبا إلى جنب ، وعبرا مفترق الطرق حيث كانت السيارة الرمادية القديمة الكئيبة قابعة . وبمجرد أن انطلقت ، تحرك التاكسى فى أعقابها فى رحلة رهيبة لم أكن أتصور أن أمر بها من قبل ، حتى فى الكوابيس !

بدأت المطاردة الخفية مع كلمات مها التى حاولت طرد الخوف والتردد والإهتزاز من داخلى ! لم تكن تعلم أننى منحته ما ورثته ، فقالت : فليذهب إلى الجحيم ! أنت تملكين الشباب والجمال والثروة ! وفى امكان الإنسان أن يبدأ حياته دائما من

جديد . فالبكاء على الأطلال لن يعيدها إلى أيام القصور الشامخة ! ولا زلت أصر على خروجك إلى العمل بصرف النظر عن حاجتك إليه من عدمها ! فالعمل للمرأة اثبات لكيانها ضد كل العوامل التى تهدده من أمثال لطفى ، والعمل خير ضمان لأمان المرأة ومستقبلها ! كما أنه يسد الفراغ الذى كاد أن يبتلعك فى هاويته السحيقة !

عندئذ لم أجد بداً من مصارحتها بأنه استولى على ثروتى أيضا ! التفتت منى الىّ فى صمت حرج متوتر ، فى حين شعرت بها الى جوارى وهى تكاد تنفجر حنقا وكمدا ، ومع ذلك قالت : لا يهم . . فالمال يذهب ويجئ . . أما حياة الإنسان إذا ذهبت فإلى غير رجعة ! أمنت منى على كلمات مها ، بينما كان أخوها يحاول أن يتأملنى فى المرآة الصغيرة المعلقة أعلى اللوح الزجاجى أمامه !

اخترقت السيارة الرمادية طرقا لم أعرفها من قبل ! بعضها محاط بعمارات شامخة ، والبعض الآخر تحده صحراء شاسعة ، أو مقابر مترامية الأطراف يشارك فيها الأحياء الأموات حياتهم أو موتهم ، ويلعب أطفالهم الكرة والحجلة ! وظل الطريق فى صعود وهبوط ! وفى ضوء لورى ضخم مرق بجانبنا لمحت هيام وقد وضعت رأسها على كتف زوجى العزيز ! وعاد الدم إلى الغليان فى عروقى دون أن أقطع السكون الذى امتزج بالظلام داخل السيارة !

عبرت السيارة قنطرة مرتفعة ثم هبطت لتمر بطابور من الأشجار الضخمة الكثيفة التى انحنت على أعمدة الكهرباء لتطمس نورها ، ثم بدت صفحة النيل على مرمى البصر وهى تترقرق تحت ضوء القمر الخافت الشاحب ! انحرفت السيارة لتتوغل أخيرا فى شوارع المعادى التى تلفحت بأردية المساء الثقيلة ! أبطأ منير من السرعة حتى لا يشك لطفى فى مطاردتنا له ، لكن شيئا غامضاً أكد لى بأنها شقة شهر العسل الأسود ! فهذه الطرق الضيقة والمنحنيات المتعددة مألوفة للغاية ، وهذا الطريق الواقع بحذاء هذه الترعة الجافة ، تقع الشقة فى نهايته حيث أشجار الكافور تكاد تخفيها عن الأعين !

صدقت ظنونى عندما توقفت السيارة عند نهاية الطريق وأطفأت أنوارها ، فلم نر سوى شبحين يهرعان إلى داخل البيت الصغير ! كدت أسمع دقات قلبى الذي كان كالعصفور الذبيح ! انتفضت على صوت مها وهو يكاد يخترق أذنى : هيا بنا يا هالة ! إنها ساعة المواجهة التى لا مفر منها ! كفاك دفن رأسك فى الرمال ! لابد أن يعرف كل واحد قدر نفسه ! كان صوتها لاهثا مثل قلبى تماما ، لكنها فتحت باب السيارة وجذبتنى خلفها ! سرنا وايقاع أقدامنا فى هذا السكون المميت طلقات رصاص فى آذاننا ! لم يخفف ضوء القمر الشاحب والأعمدة الخافتة من وطأة الظلام الجاثم على الكون ! هبت نسمة متربة مزجت التراب بأوراق الخريف التى لم تسلم منها العيون !

بلغنا الباب . توقفت مها لتتفحص طابقى البيت ، فهمست بصوت مرتعش : الطابق الثانى . . إنها شقة شهر العسل ! ومضت عيناها فى دهشة متسائلة : وكيف عرفت ؟ ! أجبت : عشت فى هذه الشقة من قبل ! شدتنى مها إلى الداخل حيث الظلام الدامس ! أخرجت من حقيبتها بطارية صغيرة أضاءت بها درجات السلم التى تذكرتها جيدا وأنا أصعد عليها خلف مها بأقدام من رصاص ! لم أعرف ماذا كان فى بطن اللحظات التالية ؟ ! لكننى سرتِ إلى مصيرى ! أو إلى حتفى بظلفى !

وقفنا أمام باب الشقة حيث أطفأت مها البطارية بعد أن لمحت زر الجرس فضغطت عليه ! دوى صوت الجرس الموسيقى ثم سمعنا صوت أقدام آتية ذاهبة ، وكلمات خافتة كهمهمات هامسة ! ثم صوت لطفى : من ؟ ! أجابته مها بصوت أجش : أنا يا أسطى لطفى !

ـ من أنت ؟ !

ظنها رجلا فضاعفت من غلظة صوتها :

ـ ألا تعرف صوت أصدقائك وأحبابك ؟ !

سمعنا صوت المزلاج ثم فتح الباب ليفرش ضوء الثريا أرجاء السلم ، وليصعق لطفى لمرآنا ! خرج صوته مبحوحاً يسألنى :

ـ ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ !

جف اللعاب فى حلقى ومعه الأفكار والكلمات ، لكن مها

تماسكت :

- أوحشتها كثيرا . . فطلبت منى أن أصطحبها لتراك !

لم يخف لهجته الهجومية العدائية وهو يقول لها :

- لم أسألك أنت ! ما الذى أتى بك إلى هنا يا هالة ؟ !

سمعت صوتى وهو يتحداه مثلما تحدى أبى يوم قررت الزواج منه :

- هل هذا هو أسلوبك فى الترحيب بنا ؟ !

- لا يمكن لأحد أن يرحب بالمتطفلين !

نظرت مها الىّ مشجعة إياى بومضات عيون قطة فى الظلام ، قلت :

- لست متطفلة وأنت الصادق ! إنما أنا غبية وتافهة وساذجة وجاهلة وحقيرة ! لم أكن أعرف أن الطيور على أشكالها تقع !

- الحمد لله أنك عرفت نفسك أخيرا !

إذاً . . هذا هو الجانب الوقح الذى حاول تغطيته من قبل . ازداد صوتى طلاقة وأفكارى صفاء :

- وأرجو أن تكون قد عرفت قدر نفسك أيضا ! أنت والفاجرة المختبئة بالداخل كالفأر الجبان !

- اخرسى . . اياك أن تتكلمى عن زوجتى بهذه الألفاظ !

- وتزوجتها أيضا ؟ ! ألم يعد الإيجار باهظا حتى تنقلها إلى دهليز الزيتون !

- ليس لأحد الحق أن يسألنى عما فعلته بمالى وبحقى فى أن أتزوج بمن أشاء !

ـ تزوج كما يحلو لك .. لكنه ليس مالك !!
ـ اذا كان فى امكانك أن تثبتى هذا .. فأنا تحت أمرك !
ـ ولماذا لم تطلقنى ؟ !
نضحت الخسة والحقارة من نبراته الكريهة :
ـ لأن فوائد الزواج أعم ومصاريفه أقل من الطلاق !
دون أن أدرى ، تقدمت منه خطوتين وقد رفعت يدى :
ـ لم أعرف أنك بهذه الخسة والنذالة والحقارة ؟ !
لكنه كان قد أمسك بذراعى بأصابع من حديد قبل أن تهوى يدى على وجهه القبيح وصوته الكريه :
ـ لن أرحمك بعد اليوم يا بنت الحسب والنسب ! سأضع أنفك فى التراب ! سأجعلك عبرة لكل من يتشدد لك !

حاولت تخليص ذراعى من قبضته لكنه ألقى بها حتى كاد أن يكسرها ، وهو ينظر بشظاياه لمها التى لم تهتز إلا عندما تراجع إلى الخلف مصفعا الباب فى عنف أغرق السلم فى الظلام مرة أخرى ! دارت الدنيا بى لكن مها احتضنتنى وهبطت بى وهى تتحسس سور السلم ! كنت انتفض بين ذراعيها لكنها احتوتنى كأم تحمى طفلها من خطر محدق ! سارت بى حتى باب السيارة الذى سرعان ما فتحته منى من الداخل ، لأقبع على المقعد الخلفى تحت ذراع مها التى طلبت من منير أن ينطلق عائدا أدراجه ! لم تكبت منى قلقها فتساءلت عما جرى لكن مها خاطبتنى بعبارات ملتهبة :

ـ سنقف معك حتى النهاية . . إياك أن تجبنى أمام تهديداته . . إنها معركة فى طول النفس . . وكم كنت رائعة فى صمودك أمام محاولاته الدنيئة لطمس شخصيتك !! والحياة بدون تحديات لا معنى ولا طعم لها ! لقد ولدت هذه الليلة من جديد ! أليس كذلك ؟ !

لم أرد . كانت عيناى تتابع المرئيات الداكنة المهتزة خارج زجاج النافذة فواصلت كلماتها اللاهثة الحانية :

ـ سأصطحبك لتقضى هذه الليلة معى ! لا يمكن أن أتركك هكذا !!

خرجت كلماتى مع احساس متزايد بالقوة والمرارة :

ـ أنا أدرى بأحوالك ومشاعرك أنت ومنى !! مكانى فى بيتى !

حسمت مها الحوار بقولها لمنير :

ـ فلتذهب إلى بيت أمها ! فلا مكان لها مع هذا الحقير بعد اليوم !

هز منير رأسه موافقا لكننى استدركت :

ـ لن أذهب هذه الليلة إلى ماما . . فلديها قدرة على استجوابى حتى الصباح خاصة وأنها لا تكاد تعرف شيئا عنه !! سأذهب إلى الزيتون لأنام ليلتى وفى الصباح سأجمع حاجياتى إلى غير رجعة !!

التفتت منى الىّ وآثار دموع لا تزال عالقة بعينيها :

ـ لن نتركك هذه الليلة وأنت على هذه الحال !

ـ لست يا منى بهذا الضعف الذى تتصورينه . . ومها نفسها شهدت كيف تحديت هذا الوحش الحقير وعريته تماما أمامها !

احتضنتنى مها بشدة :

ـ هذا شئ يسرنا للغاية يا هالة . . فإذا لم تنبع القوة من داخلك ! فلن يتفضل أحد بمنحك إياها ! هل لا زلت تصرين على المبيت فى الزيتون ؟ !

هززت رأسى وأنا اغتصب ابتسامة على وجهى ! وانطلقت السيارة فى شوارع مضيئة أو مظلمة حتى توقفت عند مدخل الزقاق الذى يصعب عليها دخوله لضيقه ومطباته الحجرية والترابية ! هبطت مها لتسير معى لكننى أعدتها بقوة إلى داخل السيارة مستمتعة باحساسى المتزايد بالقوة والإستقلال ، فقالت مها إنها ستمر مع منى علىّ فى الصباح لمساعدتى فى جمع حاجياتى ، وعادت السيارة أدراجها لتتركنى للوحدة ، والظلام ، والخوف ، والندم على اصرارى الغبى على اجبارهما على تركى ! دخلت الشقة العطنة الكئيبة فإذ بالعجوز تهرع من غرفتها تسألنى عن سر تأخرى ومكان تواجدى ، لكن يبدو أنها خافت من نظراتى الصامتة المتحجرة فعادت بظهرها حتى ابتلعتها غرفتها !

ارتميت بملابسى على الفراش ! ودارت حياتى أمام عينى فى الظلام كشريط سينمائى ! لم أعثر على بقعة مضيئة واحدة ! حتى أيام المعادى التى ظننت أننى اختطفتها فى غفلة من الزمن ، كانت أيام الغش والخداع والغدر والخيانة ! وقد بلغت السخرية

المريرة قمتها عندما مررت بأسوأ وأحلك موقف فى حياتى فى نفس المكان الذى ظننت أننى قضيت فيه أحلى أيام عمرى ولياليه ! لماذا كانت حياتى سلسلة متصلة من الخسائر ؟ ! لا أعرف ! هل لعيب فىّ أو فى الآخرين أو فى كل الأطراف المعنية ؟ ! ضعفى ، عجرفة أبى ، سلبية أمى ، خداع لطفى ، خبث هيام ، ضياع كمال ، افتراء حماتى ؟ ! لكننى كنت أسائل نفسى دائما : لماذا لم أستمد القوة من مها برغم أن ظروفها كانت فى الواقع أسوأ من ظروفى ؟ ! هل يولد الإنسان ضعيفا أو تربا بحيث لا يستطيع أن يهرب من هذا أو ذاك ؟ !

آلاف علامات الإستفهام المتراقصة فى الظلام دون اجابات محددة ! كم ذهلت مها وشدت شعرها عندما علمت بهجرى للدراسة الجامعية ، ومع ذلك تركت نفسى للتيار الذى لم أعرف له منبعا أو مصبا ؟ ! هل يمكن أن يبدأ الإنسان حياته من جديد مهما كانت الظروف والمعوقات كما تقول مها ؟ ! لكن من أين يبدأ ؟ ! وكيف ؟ ! خاصة بعد أن فقد كل شئ ؟ ! هل يمكن أن يكون الصفر نقطة انطلاق ؟ ! وأنا التى لم أنطلق عندما كنت أمتلك كل شئ ؟ ! لكننى لن أخسر أكثر مما خسرت إذا حاولت ! لكن كيف ؟ ! لعل مها تجيب على هذه الأسئلة غدا ! فإن ذهنى لا يزال مشوشا عاجزا عن تلمس بدايات الطريق !

غفوت على فترات متقطعة فكان نوما أسوأ من السهاد ! كوابيس متلاحقة ، وصور ممزقة ، وصرخات مكتومة ، وصراعات دموية بين أبى ولطفى ، وسقوطى من أعلى عمارتنا

بين أيدى عمال ورشة لطفى ، عارية كما ولدتنى أمى ، وأيدى العمال تعبث بجسدى الملتهب المثخن بالجراح من جراء سقوطه على الآلات الحادة ، وأمى تندب وتولول من الشرفة ! وكمال ينظر الىّ وكأن الأمر لا يهمه !

● ● ● ● ● ● ●

لا أعرف سر هذه البرودة التى تسرى فى أطراف قدمى وذراعى ؟ ! برغم حروقى الملتهبة التى تشعرنى بلفحات الجحيم !! هل أستدعى الطبيب النوبتجى فى هذه الليلة التى لا تريد أن تنتهى ؟ ! لا أحب أن أزعج أمى أكثر من هذا . فقد قضت المسكينة ثلاثة أيام فى كابوس متصل ، وسنها لم تعد تحتمل ! وربما كانت هذه البرودة احساسا طارئا نتيجة لما عانيته فى الفترة الأخيرة ؟ ! وكثيرا ما شعرت من قبل بأننى على وشك الموت ، لكننى واصلت الحياة برغم كل شئ ! سأطارد الهواجس باجترار الذكريات التى لم يعد لى سواها !

● ● ● ● ● ● ●

أخيرا جلست فى فراشى حتى لا أرزح تحت وطأة هذه الكوابيس مرة أخرى ! تسللت خيوط الفجر من خصاص النافذة التى لم تعرف الطلاء من قبل ! كنت لا أزال بملابسى التى تركتنى بها مها ومنى ! اجتاحنى احساس عارم بالقذارة والتلوث ! تركت الفراش لأرى وجهى فى المرآة المشروخة ، والهالات السوداء حول عينى الغائرتين كحجرين ألقيا فى بركة راكدة آسنة ! أسرعت إلى الحمام . أغلقت بابه بالمزلاج شرعت فى

اشعال موقد الغاز وقد تبلد شعورى تماما ، وكأننى تحولت إلى كيان آلى ! لم تعجبنى شعلة الموقد الخافتة فظللت أضغط على المكبس جيئة وذهابا برغم زمجرة نيرانه حتى سمعت دويا ، وإذ بالغاز يغرق ملابسى ومعه النيران السارية مع صرخاتى ومحاولاتى اليائسة لإطفائها ، مع دقات أم لطفى على الباب مولولة نائحة صارخة ! حاولت فتح المزلاج لكننى سقطت فاقدة الوعى !

عدت إلى وعيى لأجد نفسى فى هذه الغرفة البيضاء فى مستشفى هليوبوليس . وسرعان ما جاء رئيس المباحث ومساعدوه ، لكننى لم أقل لهم سوى أن موقد الغاز انفجر فى وجهى وجسمى ! ومع ذلك لم يكلف لطفى خاطره كى يزورنى فى المستشفى ، بل بلغنى أن أمه لم تعلق إلا بقولها : جاءت ومعها المصائب كلها ! ولذلك كانت مها تعانى من حروق نفسية لا تقل فى وطأتها عن حروقى الجسدية ! أصرت على أننى انتحرت أو حاولت الإنتحار هربا من نهر العذاب الذى أغرقنى فيه لطفى ! وأن الأمور لابد أن توضع فى نصابها ، وأنه آن الأوان كى يحمل كل طرف جريرة ذنبه ! عبرت عن يأسى من أن يقع ما فعله لطفى معى تحت طائلة القانون الجامد الأصم الذى لا يعترف إلا بما هو مسجل فى المحاضر والأوراق الرسمية ! وحتى إذا كان لطفى قد دفعنى إلى الإنتحار فلماذا نفذت أنا رغبته وكان فى امكانى ألا أفعل ؟ !

لكن مها أصرت على موقفها ، بل وأقسمت أنها ستنتقم من لطفى وهيام إذا لم أغير أقوالى وأعترف بمحاولتى الانتحار هربا

من جحيم لطفى ! خاصة بعد أن عرفت ادمانه للمخدرات والذى يمارسه فى شقة المعادى ! رضخت لرأى مها وجاء رئيس المباحث مرة أخرى ليستمع إلى أقوالى الجديدة ويسجلها ! وبعدها أصبح من الطبيعى ألا يأتى لطفى ليزورنى ! كان انتصارا على من قهرنى وأذلنى ، لكنه انتصار مرير كالعلقم ، لم يغير شيئا من الحال التى بلغتها !

زحفت البرودة السارية فى أطراف قدمى وذراعى وأحاطت بالحروق كالأمواج حول الجزر المنعزلة ! وغامت الأشياء أمام عينى ، وتراجع ذهنى إلى عالم به أطياف سارية مع خيوط الفجر المتسللة من خصاص نافذة الغرفة البيضاء ! رأيت أشباح أمى والطبيب والحكيمة تسرى غادية رائحة فى لهفة لم أجد سببا لها ، ثم أشباح مايسة ومها ومنى وكمال . . أخيرا كمال !! لكن آلام الحروق كانت تتراجع كالسحر السارى مع البرودة التى لم أعد أخاف منها ! تراجعت الأصوات وخفتت إلى أن أوشكت على أن تتلاشى مع الأشباح الآخذة فى الزوال ! رأيت فيما يرى النائم فراشى متحركا بجسدى فى ممر أبيض طويل ! استسلمت تماما لهذا النوم العجيب ثم . . . . ثم . . . . ثم . . . .

الحركة الثانية

منى مهنا



لا أتصور حتى الآن كيف رحلت هالة المرعشلى بهذه البساطة بعد أن كانت تملأ حياتنا حبا وحنانا واخلاصا ووفاء ورقة ودفئا وطمأنينة ! وهى التى لم تعرف الطمأنينة طوال عمرها الذى كان فى عمر الزهور ! كانت بقعة مضيئة فى حياتنا كلها برغم أمواج الظلام التى أغرقتها بين لججها المتلاطمة الصاخبة ! كم قتلنى الإحساس بالذنب أنا ومها لتركنا اياها ليلة الحادث ؟ ! هل كان من الممكن ألا يحدث ما حدث لو قضينا الليلة معها ؟ ! أو أن الهروب من المكتوب عبث لا طائل من ورائه ؟ ! متى يعثر الإنسان على اجابات شافية لأسئلته الأزلية ؟ ! لكن العجيب أن وجودها فى حياتنا لم يتأثر بعد رحيلها ، بل زاد عمقا واتساعا لدرجة أننا نستشعر روحها كلما ورد ذكرها على اللسان ، أو مر طيفها بالذهن والوجدان !

كان فضلها علىّ بلا حدود ، بل إن أفضال خالها علىّ فيما بعد أنقذتنى من هاوية الحاجة والإذلال والضياع ، وحفظت لى كرامتى وكبريائى وشرفى ! كم وددت لو فديتها بحياتى ، لكنها لم تكن لها أية رغبات أو طلبات ؟ ! كانت متعتها فى العطاء أعمق وأقوى من رغبتها فى الأخذ ! ولدت فى قلب الحياة الدافئة المرفهة لكنها آثرت أن تتراجع لتعيش على هامشها ، أما أنا فكانت حياتى صراعا مستميتا للإقتراب من هذا القلب ! ومع ذلك فإن ما جرى لى فى الأسبوع الأخير كان كفيلا بأن يقترب بى من مصير حبيبتى هالة ! لم أحتمل وطأة كتمانه أكثر من هذا ، فهرعت إلى مها لأقصه عليها حتى لو أنبتنى وعنفتنى ! كنت أنا وهالة نعشق

اخلاصها وحسمها وارادتها وقوة شخصيتها !

فتحت لى أمها الباب فى بعض من الحرج فعرفت أنها عادت من عملها متعبة لتغفو قليلا . أخبرت الأم ببساطة أننى سأمكث فى الشرفة أتسلى بمناظرها حتى تستيقظ ، فلم أكن فى عجلة من أمرى ، وان كنت أتحرق شوقا لأقص عليها احدى غرائب البشر فى عصرنا الغريب ! جلست فى الشرفة أتأمل الشارع الضيق الذى سمى بشارع العقبة كما لو كان شارع الحياة نفسها ، الزاخرة بالعقبات ! فهو يتفرع من شارعنا « هارون الرشيد » ، ولا يحمل أية سمات أرستقراطية مثل تلك المحيطة بالمنطقة التى تقع فيها عمارة هالة فى شارع « دمشق » ! هنا الشرفات والنوافذ كفيلة بهتك الأسرار بمجرد فتحها ، لكن الحياء يمنع العيون المتلصصة من كشف أرجاء الحجرات التى غالبا ما يعجز ضوء الشارع عن بلوغها ! باستثناء مراهقة تختفى خلف خصاص احدى النوافذ ترقب شابا فى احدى الشرفات يتظاهر باستذكار دروسه فى حين أن عينيه من طرف خفى كالمكوك بين صفحة كتابه وصفحة وجهها !

استلقيت بظهر الكرسى الخيرزان على جدار الشرفة التى لم تشغلنى مناظرها عن المناظر المطبوعة فى وجدانى ، والتى عشتها لحظة بلحظة على مدى أكثر من ثلاث سنوات ! كانت حرارة الشمس لا تزال تشع فسرت فى ظهرى بسخونة لم أعبأ بها ! العجيب أن ما وقع اليوم لم يكن مفاجأة كاملة لى ، فطالما حذرتنى مها منه ، وكثيرا ما استشعرته بنفسى من ثنايا

الأحداث ، والمواقف ، واللفتات ، واللمحات ، ومع ذلك لا أستطيع تجاهل احساسى القاتل بالصدمة ، والفراغ الذى يكاد يبتلعنى فى هاويته ، والذى هربت منه إلى مها كى أتعلق بيدها !

لكن هل كنت مسئولة تماما عما جرى ؟ ! منذ بداية حياتى أدركت أن مسئولية الإنسان يمكن أن تكون كاملة إذا كانت ارادته مطلقة ! فمثلا لم أكن مسئولة عن هذا المستوى من التعليم الذى انتهيت اليه . كان طموحى القديم يشطح الى الحصول على شهادة الدكتوراه ، ولم يكن الأمر مجرد أضغاث أحلام ، بل كان تفوقى الدراسى المستمر يؤكد امكانية تحقيق هذه الأحلام ! لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ! فقد ولدت فى بيت على وشك الإختناق زحاما . أنجب أبى سبعة أبناء فى سنوات متتابعة دون أن يعمل أى حساب للمستقبل . قضى عمره مفتشا فى مترو مصر الجديدة ، ومع الإرتفاع المرعب للأسعار أصبح مرتبه مجرد ملاليم لا ترقى للدخل اليومى الذى تحصل عليه المتسولة التى اعتادت المرابطة على ناصية عمار هالة !

أصبحت أتلهف على مجئ اليوم الذى يمكننى فيه الوقوف على قدمى . حصلت على دبلوم التجارة المتوسطة بدرجات متفوقة تؤهلنى لدخول كلية التجارة ، ومواصلة التعليم العالى ! لكن العين بصيرة واليد قصيرة ! لم يكن فى اليد حيلة فهرع أبى يقبل الأيادى ، وينحنى للنكرات لعل أحدهم يتكرم ويتنازل ويتعطف علىّ بوظيفة يمكن أن تضيف ملاليم جديدة إلى ملاليم أبى القديمة ! بل داعبه أحدهم بقوله : إن المؤهلات المتوسطة

أكثر من الهم على القلب !!

اكتشفت فى هذه السن المبكرة أن الأبواب الموصدة فى بلدنا لها مفاتيح جاهزة خاصة لا يملكها إلا أصحابها ، ومفاتيح يمكن صياغتها فى قالب مناسب إذا عرف الفقراء والكادحون مواصفات هذا القالب ! عاد أبى من بحثه بخفى حنين ، بل بلا خفين على الإطلاق ، إذ أن حذاءه كان قد تمزق من جراء قطع الشوارع جيئة وذهابا بين الشركات العامة والمكاتب الخاصة !

كنت أعلم علم اليقين أن خال هالة يملك شركة استثمار ضخمة فى ميدان روكسى ! لكننى لم أشأ احراجها إذا لم تكن لديه الوظيفة المناسبة لى . كانت صداقتى لها منذ كنا سويا فى مدرسة مصر الجديدة الإعدادية هى كل ما أتمناه ، ولعل طلب كهذا يعكر صفوها إذا عجزت عن تلبيته ! ومع ذلك قصصت عليها وعلى مها أخبار مساعى أبى غير الحميدة التى باءت كلها بالفشل ! حتى عندما سعى إلى تعيينى مساعدة لملاحظ كشك المترو فى محطة روكسى ، اعتذروا عن عدم تعيينهم للإناث ! لكن حبيبتى هالة لامتنى لتأخرى فى اخبارها بأزمتى ووعدتنى على الفور بالسعى لدى خالها حتى يجد لى وظيفة فى شركته أو فى أية شركة أخرى ! هكذا كان ينبوع الخير يتدفق دائما بين يديها الحانيتين الرقيقتين !

سرعان ما عادت للقائى تبشرنى بحاجة خالى إلى سكرتيرة له ، وأنه يرغب فى رؤيتى لإختبار مدى صلاحيتى ! كانت

المفاجأة مزيجا من النشوة والبهجة والخوف والقلق لأننى لم أُعد نفسى لمثل هذه الوظيفة ، ولم أفكر فيها ذات يوم . كان تفكيرى قد انحسر فى الحسابات أو على الآلة الكاتبة أو حتى فى الأرشيف ! فقد كنت منطوية على نفسى ، ليست لى صديقات سوى هالة ومها ، أما مع الآخرين فغير قادرة على التخاطب والتجاوب ، فى حين يفرض علىّ هذا العمل أن أكون اجتماعية ومحدثة لبقة ، وأن أعرف ما يجوز وما لا يجوز دون أن أستشير أحداً ، وأن أحسم بعض الأمور دون الرجوع إلى رئيسى فى كل كبيرة وصغيرة حتى لا أضيع وقته وجهده ، وحتى يتفرغ للمهام الكبيرة ، وإلا توقف دولاب العمل فى مكتبه تماما فى حالة سفره فى مهمة !

لكن هالة التى كانت حكيمة دائما فى نصحها للآخرين ، وغير قادرة على نصح نفسها فى الوقت نفسه ، شجعتنى على أساس أن القدرة على مجاراة الحياة الإجتماعية ، واللباقة والكياسة ، وفن معاملة الآخرين التى تترواح بين الرقة والحسم ، كلها أشياء يكتسبها الناس بالمران والممارسة ، فلا أحد يولد بها ، وأنا لا تنقصنى يد أو رجل حتى أعجز عما يقوم به الآخرون ! أما عن الأناقة والمظهر البراق فمرحلة تالية بعد الحصول على المرتب المجزى !

وعندما استشرت مها التى سمعت الحوار بينى وبين هالة ، نظرت الىّ فى اشمئزاز وقالت : تتكلمين كما لو كان خال هالة قد قبلك بالفعل ! لا أحب السفسطة والجدل على مجرد افتراضات

قد لا تتحقق ! كما أنك لا تملكين حق الإختيار بعد المتاعب التى مر بها أبوك ! فأحيانا كثيرة لا يملك الإنسان سوى التشبث بفرصة سانحة ربما لو أفلتت من يده فإنه يندم عليها العمر كله ! اذهبى ولا تترددى فربما ألقى بك من نافذة مكتبه بمجرد مشاهدة جمالك !

ضحكنا من قلوبنا . كنا نعشق آراءها الثورية الجريئة . كانت أكثرنا ثقافة وفهما للناس ! كانت تعتز بصداقة الكتاب كما تحرص على صداقتنا ! ومهما كانت متعبة أو محملة بالأعباء ، فلابد لها من ساعة للقراءة والإطلاع قبل النوم ! بل إنها صارحت هالة ذات مرة عندما هجرت كلية الآداب ، بأنها كانت تود أن تلتحق بالكلية نفسها ، لولا أن الضغوط الإقتصادية على أسرتها أجبرتها على الإلتحاق بالتجارة ، لأن العمل بعد التخرج فيها أكثر ضمانا وعائدا ، خاصة فى عهد الإنفتاح وشركات الإستثمار الأجنبى ! كذلك كانت تتمنى أن تصبح أديبة وروائية ، لكن دوامة الحياة لا تضع فى حساباتها رغبات البشر ! ولذلك لم تكن أحدانا تقدم على خطوة جديدة بدون أن تضئ لها النور الأخضر ، باستثناء زواج هالة من لطفى الذى جاء كالقضاء والقدر !

كان عبد الرحمن بك آية فى الرقة والعطف والترحيب الأبوى ! سألنى عن قدراتى وخبراتى فأجبته بأننى كنت الأولى على دفعتى فى الدبلوم ، وأحرزت الدرجات النهائية فى الآلة الكاتبة ، انجليزى وعربى ، لكننى صارحته بأننى قد أعجز عن

القيام بدور السكرتيرة كما يتصوره . ابتسم فى عذوبة متأملا سقف غرفته الفاخرة ذات الهواء المكيف ، ثم ومضت عيناه وهو يمسح صلعته بكفه مؤكدا أن الممارسة هى الإختبار الحقيقى لقدراتى ، وقد قرر أنه يضعنى تحت الإختبار لمدة مناسبة ! عندئذ تذكرت كلمات مها لى : إذا لم يكن لديك ارادة الإختيار ، فلابد أن تملكى ارادة الإختبار !

بدأت العمل وكلى عزم على أن أكون عند حسن ظنه ! كنت كالنحلة التى لا تكل سواء فى ساعات العمل أو بعدها ! لم أكن أنتظر الساعى ليذهب بأوراق معينة إلى أحد الأقسام ! اذا طلب منى عبد الرحمن بك تسجيل بعض الكشوف التى قد تستغرق يوما أو يومين ، فإنى انجزها فى ساعات معدودة ! كنت أذهب فى آخر النهار إلى البيت منهكة تماما لكن راضية عن نفسى ! وأحيانا كنت أواصل العمل فى البيت حتى ساعة متأخرة من الليل !

ومع ذلك لم يكن الرضا كاملا ! كانت هناك منغصات قابعة فى أعماقى المظلمة تؤكد لى من حين لآخر أن مظهرى المتواضع لا يثير سوى الشفقة والرثاء ! لم أكن واثقة من نفسى ، وكنت أغطى فقدان الثقة بالإنكباب على العمل بجنون ! ووقعت فى بعض أخطاء كان يمكن تداركها لولا تسرعى اللاهث ! وقد تغاضى عبد الرحمن بك عن هذه الأخطاء التى اعتبرها مجرد هفوات أو هنات ، لكننى كنت أطمع فى اعجابه وتقديره ، وليس فى عطفه وتغاضيه ! واجتاحنى احساس ممض بأنه لا يريد

التخلص منى اكراما لخاطر هالة ! خاصة وأننى عرفت أن حاملة لبكالوريوس تجارة كانت قد تقدمت لنفس الوظيفة فى نفس الأسبوع الذى التقيت فيه بعبد الرحمن بك لأول مرة ! ولا يعقل أن يرفض بكالوريوس تجارة عالية من أجل دبلوم تجارة متوسطة إلا إذا كان فى الأمر خواطر شخصية !

واصلت العمل لمدة تزيد على ستة أشهر ، لكن المنغصات والهواجس أصرت على الإيحاء لى بأننى أبدو نشازا وسط موكب الأناقة والأرستقراطية ، برغم قيامى بتفصيل ثلاثة فساتين جديدة دفعة واحدة لأول مرة فى حياتى ، لكن يبدو أن الخياطة التى اعتدنا التعامل معها بأسعار تناسبنا ، والتى كانت جارة لنا تباشر عملها فى شقتها المتواضعة ، لم تعد تساير الجو الجديد الذى أغرقنى بعرق الخجل ! فماذا يمكننى أن أفعل وسط الملابس والفساتين الواردة حديثا من باريس ولندن ونيويورك ؟ ! والعطور التى ترتفع بالورح المعنوية إلى سابع سماء ؟ ! هذا يتحدث عن عمه الباشا الذى عاد من أوروبا بعد غربة ربع قرن ليستثمر أمواله فى مصر ، وذاك يلعن ويسب الثورة التى أطارت رءوس الأموال من البلاد ، وأضاعت عليها سنوات وسنوات من الرخاء ، وهذه تتحدث عن رحلة شهر العسل التى قضتها بين ربوع سويسرا وايطاليا وفرنسا مع زوجها الثالث ، وتلك تفاخر بالسيارة الفارهة التى أهداها لها زوجها بمناسبة عيد ميلادها !

ولولا عبد الرحمن بك شخصيا لما احتملت هذه الضغوط النفسية أكثر من شهر ! كان نعم الرئيس والأب بحنانه ورقته وتسامحه وتشجيعه المستمر لى ، لكنه فى الوقت نفسه كان ينظر الى ملابسى ومظهرى فى صمت ثم يشيح بوجهه بعيدا ! وكثيرا ما فكرت فى الهروب من هذا المأزق الشائك ، لكن الأفواه المفتوحة فى بيتنا الصغير المزدحم ، ونظرة الأمل فى عينى أخوتى كانت كفيلة بطرد بوادر التراجع والنكوص على أعقابى ! كان كل من حولى يتصورون أن المفتاح السحرى لأبواب السعادة المفقودة قد أصبح فى يدى ! أما الذين حولى فى العمل فكنت فى نظرهم نشازا وسط ألحان السحر والرفاهية والسعادة الحقيقية !

لكن شيئا غامضا كان يثير مخاوفى من عبد الرحمن بك ! كنت أظن أن حنانه ورقته وتسامحه ، نتيجة طارئة للصدمة التى أصابته بمصرع زوجته فى حادث سيارة ، بحيث وجد نفسه وحيدا معزولا بلا أسرة ! كان يحبها حبا ملأ عليه حياته ولم يجعله فى حاجة ملحة الى الأطفال الذين عجزت عن انجابهم . لكن برحيلها كرس كل وقته لعمله لعله يدفن فيه أحزانه ! لكننى مؤمنة بأن دوام الحال من المحال ، ومع الأيام سيعود الى طبيعته وحياته الأرستقراطية ، حينئذ لابد أن يشعر بأنه أخطأ فى اختيار سكرتيرة خاصة له قادمة من قاع المجتمع ، ولا يمكن أن تمثل الواجهة الراقية اللامعة له ، خاصة وأن المظاهر تلعب دورا كبيرا فى تحديد نوعية العلاقات الإنسانية داخل الشركة !

ضاعف من هذه المنغصات والهواجس أنه عاد فى الفترة الأخيرة الى مداعبة بعض المهندسات والموظفات ، منهن واحدة كان تطمح للعمل سكرتيرة له . صحيح أن المداعبة لم تخرج عن حدود الوقار بين الرئيس والمرءوس ، لكننى شعرت أنه أصبح متحفظا معى ، ولم يعد يسألنى عن أحوالى كما كان يفعل من قبل ، بل تحول الحوار بيننا الى كلمة ورد غطاها حول المطلوب منى أن أنجزه وعندما لم أكبح جماح مخاوفى وهواجسى ، جرفنى تيارها الى حيث أكدت لنفسى أنه أصبح محرجا فى الإستغناء عنى اكراما لخاطر هالة ! وأنا لا أحب أن أكون عالة أو عبئا على أحد ! ولذلك ألحت علىّ كرامتى وكبريائى بالمثل القائل : بيدى لا بيد عمرو ! ولذلك جهزت استقالتى حتى تأتى اللحظة المناسبة لأقدمها اليه !

وسرعان ما أتت اللحظة ! دخل صباح ذلك اليوم متجها وهو يمر كالمعتاد بمكتبى ! انتفضت واقفة لأحييه لكنه هز رأسه فى ايماءة عابرة دون أن ينطق بتحية الصباح ، ثم دخل مكتبه مصفقا الباب وراءه ! عندئذ استجمعت أطراف شجاعتى كى أدخل وأقدم استقالتى لكننى ظللت فى دوامة من الحيرة القاتلة معظم اليوم ، أقدم قدما وأؤخر أخرى حتى دق جرسه لإستدعائى ، فتأكدت أنه سيبادرنى بطردى ، فدخلت وورقة الإستقالة فى يدى ! بلغت مكتبه ، وقلبى يكاد يسقط من قاع قدمى ! لقد أتت اللحظة التى ستبدأ باللوم والتأنيب وتنتهى بالإستغناء والطرد !

رفعت عينى وأنا أكاد أخفى الورقة المرتعشة فى يدى . سألنى :

ـ ما هذه الورقة ؟ !

تلعثمت فخرج صوتى مبحوحا خفيضا :

ـ أبداً . . نسيتها فى يدى عندما سمعت جرس سيادتك !

انفرج وجهه الصبوح عن ابتسامة حانية افتقدتها عدة أيام :

ـ أتعرفين لماذا طلبتك الآن ؟ !

ـ تحت أمر سيادتك فى كل ما تأمر به !

ـ قررت يا منى أن تصرف لك الشركة مبلغا لشراء ثياب جديدة تليق بوضعك الجديد . . يجب عليك أن تكونى عنوانا طيبا للشركة ولصاحب الشركة . . فإن وضعك مستمد من وضعه . . ولذلك لا أحب أن تتهيبى من أى شخص فى أى موقف . . مهما كان هذا الشخص !

لم أصدق أذنى لكننى وجدت لسانى ينطق :

ـ هذا كرم من سيادتك أكثر مما أستحق !

ـ أنت تستحقين كل خير !

ـ هل لى أن أعرف رأى سيادتك بصراحة فى أسلوب أدائى للعمل ؟ ! وهل هناك أية مظاهر للتقصير يمكن أن أتلافاها فى المستقبل ؟ !

ـ أروع ما فيك يا منى قدرتك الفائقة على التعلم والإتقان السريع . . لكن هذا الجوهر الأصيل يحتاج إلى مظهر لابد أن يعلن عنه !

جرفتنى رغبة عارمة لتقبيل وجنته أو يده لكن صوتى خرج من حباله خافتا :

ـ أرجو دائما أن أكون عند حسن ظن سيادتك . . فأفضالك علىّ لا تنسى !

أرخى عينيه فى تواضع محبب وتمتم :

ـ أستغفر الله يا بنتى . . الفضل فضل الله . . تفضلى الآن فهذا كل ما أردت أن أقوله !

ـ تحت أمرك !

وظللت أتراجع بظهرى حتى كدت أن أصطدم بالباب . خرجت بعض لحظات كانت كافية لأن تعيد الثقة الى نفسى ، وأن توقظ فى أعماقى الطموح الذى كادت ظروفى أن تقضى عليه تماما تحت وطأة الإحباط واليأس والتردد . استمتعت بتمزيق الورقة الى عشرات القطع التى أمطرت بها سلة المهملات الى جوار مكتبى فى حجرتى الصغيرة الملحقة بمكتبه ! وبدأت أستعيد توازنى ، وأحدث نفسى بأننى لابد أن أتفوق . فالتفوق بالنسبة لى مسألة حياة أو موت ، وهو أكثر من ذلك بالنسبة لأسرتى . كان العام الدراسى الجديد قد بدأ ، وكنت أرى فى عيون أخوتى نظرات الأمل فى أن يكون عملى مصدر أنفاس طيبة تعيد الى صدورهم اللاهثة الطمأنينة والسلام لحين تخرج أخى منير من معهده الصناعى الذى التحق به أخيرا ، بحيث يشاركنى فى حمل العبء .

● ● ● ● ● ● ● ●

عجيب أمر هذه الفتاة التى تقف قلقة فى الشرفة المواجهة لبيت مها ! ترتدى ثيابا تذكرنى بتلك التى صاحبتنى فى بدء حياتى العملية ، وتنظر فى توتر من حين لآخر تجاه شارع هارون الرشيد ، وتكاد تسقط من سور الشرفة اذا ما توقفت سيارة بجوار الطوار المواجه لمدخل شارع العقبة . أخيرا توقفت سيارة صفراء فارهة وأطلقت بوقها الموسيقى عدة مرات ، ثم خرج منها شاب أنيق وسيم رفع يده ملوحا على البعد بحركة ذات معنى ، فاذ بالفتاة فى الشرفة ترد بنفس الحركة ، وتتلاشى لأجدها تندفع خارجة من باب البيت وهى تتلفت حولها يمنة ويسرة فى توجس وخيفة الى أن عبرت شارع هارون الرشيد لتختفى داخل السيارة الفارهة التى تلاشت فى لمح البصر !

● ● ● ● ● ● ● ●

انقضت شهور وجدت نفسى بعدها وكأننى فعلا قد خلقت لأكون سكرتيرة ! ولم يكن هذا رأيى بل كان رأى كل الذين تعاملوا معى ابتداء من عبد الرحمن بك ، وانتهاء بالزملاء وعملاء الشركة التى كانت تعمل فى مجال حيوى من مجالات الإستثمار ، ولها علاقات متعددة بكثير من أوساط العمل والإنتاج . وكانت كل خطوة نجاح تحققها ، تعبر عن نفسها فى مكافآت مادية للعاملين . وهكذا كنا نلمس أثر النجاح ، وهكذا أيضا كنا نسعى إليه جميعا عن جهد ووعى وإصرار . وسرعان ما توارى الإحساس بالنقص داخلى بعد أن وجدت معظم العاملين يأخذون رأيى فيما يعترضهم من مشكلات ! بل

إنهم أطلقوا عليّ لقب « الدينامو » ، ولم أكن أتمنى نجاحا وتفوقا أكثر من ذلك !

هنا تذكرت كلمات مها التى لا تنسى ! فلا يستطيع أحد الزعم بأن ارادة الإختيار كانت متاحة أمامى ، ولكن الذى استطعت أن أتيحه لنفسى كان ارادة الإختبار ، والاصرار على النجاح فيه ، مدفوعة الى ذلك بظروف أسرتى أولا ، وبتشجيع رئيسى ثانيا . فلابد أن تلتقى داخل الانسان كى ينجح ، الحاجة الملحة الى النجاح والقدرة المستميتة لتحقيقه ! ولذلك تغيرت كثيرا بعد أن انقضى العام الأول على عملى فى الشركة . تغيرت جوهرا ومظهرا كما طلب عبد الرحمن بك وكما أردت أنا ! زاد جوهرى صلابة وصمودا واستنارة ، وتغير مظهرى لدرجة أن بعض زميلات الدراسة لم يتعرفن عليّ عند بعض اللقاءات العابرة فى الشارع ! أصبحت أرتدى أحدث الأزياء ، وأجيد معاملة الآخرين ، وتضاعفت ثقتى بنفسى ، وقدرتى على اتخاذ القرارات بعد أن عودنى عبد الرحمن بك ألا أعرض عليه كل صغيرة وكبيرة ، وانما يجب أن أتصرف فى الأوراق والموضوعات العادية ، وأعرض عليه الأمور التى تحتاج الى رأيه وتوجيهه فقط .

واكتشفت فوق كل هذا أننى جميلة ! ومرغوبة ، وأن هناك كثيرا من الكلمات الحلوة التى تقال عن حق وصدق . ولكننى كنت غافلة عن هذه الحقيقة . كانت الأنثى نائمة راقدة فى أعماقى تحت طبقات سميكة من المشاغل التى لا تتوقف عجلتها

عن الدوران ! فقد حرصت على أن أوصد أذنى أمام هذه الكلمات والتلميحات التى استهدف أصحابها مد حبال العاطفة بينى وبينهم ، أو بمعنى أصح أن تكون هناك خطوة تمهيدية لحياة زوجية . لكننى كنت أدرك جيدا أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا التفكير الذى يعد فى حد ذاته خيانة لكل آمال أسرتى فىّ .

ومع ذلك سعدت باكتشافى لجمالى الذى جاء متأخرا ! كنت واعية تماما من قبل بجمال هالة ومها ! هالة بعينيها الزرقاويين ، وجدائلها الذهبية ، وبشرتها البيضاء المشربة بالحمرة ، وجسدها المرمرى المضئ الشفاف ! ومها بشعرها الأسود القصير ، ووجهها القمحى ، وعينيها المشعتين بسحر اليابان من فتحتيها الطويلتين الضيقتين ، وأنفها الدقيق وجسدها الصغير الرشيق المتناسق ! أما أنا فكثيرا ما تكلمت هالة عن وجهى الأسمر الجذاب ، وشعرى الأسود المتدفق على كتفى ، ورقتى الحالمة برغم ظروف أسرتى الطاحنة ، لكننى كنت آخذ كلماتها على محمل المجاملة . فقد كنت أعرف كم هى مجاملة !!

أخيرا أدركت أن الثياب الأنيقة ، والحلى الراقية ، والعطور الحالمة ، ولمسات الزينة الرقيقة على الحاجبين والشفتين ، وحول العينين ، خير اطار لإبراز جمال المرأة ! قد يصعب على هذا الإطار أن يحيل القبح الى جمال ، لكنه مع الجمال سحر على سحر ! اشتريت مرآة ضخمة وضعتها فى غرفة نومى التى شاركتنى فيها ثلاث من أخواتى ، والتى كثيرا ما افتقدت فيها المذاكرة أو النوم أو الراحة . ومع ذلك كنت انتهز فرصة

خروجهن مبكرات الى المدرسة التى يذهبن اليها سيراً على الأقدام ، فاتجرد من ملابسى باستثناء ما يلف حولالنهـدين ، وما يحيط بالردفـين ، وأتأمل المرآة وأنا أدور أمامها متعجبة لهذا الجسد الرقيق المتفجر بالرغبة والأنوثة الساخـنة سخونة سمرته ! ثم ابتسم لعبقرية ملوك الأزياء الذين يتفنون حتى فى الملابس الداخلية للمرأة فيبتكرون هذه الأطر التى تـبرز ولا تخفى ، التى تلمح ولا تصرح ! ثم اكتشفت أنا بدورى أن اللون الأبيض هو أنسب الألوان للجسد الأسمر عندما يحيط النهـدين والردفـين بطبقة أو بشريط من القماش الشفـاف ذى الأحضان العنيفة التى تصر على ترك خطوطها واضحة وفى بعض الأحيان غـائرة ! أما الثوب الخارجى فيجب أن يجمع بين الشقاوة والوقار فى آن واحد !

عرفت أيضا من زميلاتى فى الشركة أن هناك عطوراً ترش تحت الإبطـين وبين الفخـذين لتشع من جسد المرأة طوال النهار ، سواء تركت شعيراتها أو تخلصت منها ! وكنت مقبلة على تجربة كل ما أسمعه . فقد كان بالنسبة لىّ دنيا جديدة تماما لا بد أن أستكشفها حتى نهايتها ، خاصة أن حياتى نفسها كانت قد تغيرت كثيراً بعد عملى ، فقد استطعت أن أتفوق فى زمن قياسي ، وكان مرتبى قد أصبح أضعاف أضعاف مرتب أبى ، وطالما أننى كرست حياتى لأسرتى ، فليس أقل من أن أبتهج بهذه المتع الصغيرة التى أصبحت بمثابة توابل حياتى !

كم عشقت تأمل وجهى وأنا أتزين أمام المرآة ! هذا الوميض الخاطف من عينى الواسعتين السوداوين ، تحت حاجبين رقيقين كأنهما خطان بالقلم الفحم ! وهذا الأنف القصير الشامخ قليلا الى أعلى ، والشعر الأسود المتدفق على الكتفين ، والذى نجح الكوافير فى جعله اطاراً يحيط بجانبى الوجه المستدير ! أما الفم فبرغم صغره فإن الشفتين مكتنزتان تمزجان الأحمر بالبنى المتوهج بعد أن زال شحوب الأنيميا وصفرتها نتيجة لسوء التغذية الذى لم يهرب منه أحد من أفراد أسرتى ! فنحن لم نتذوق الأطعمة التى كنا نتمناها الا بعد اشتغالى ، وان كنت قد سبق لى تذوقها بين حين وآخر فى بيت هالة ، خاصة أنواع اللحوم والحلوى التى لم تعرفها أسرتى الا أخيرا ! وطالما شعرت بعدم الإرتياح فى نظرات والد هالة الذى لابد وأنه كان يتمنى لإبنته صديقات من مستواها الإجتماعى والاقتصادى ، لكننى لم أعبأ ، فقد كان حرص هالة علينا مثل حرصها على حياتها ! ولم يحدث أن تناولت هالة فى أحاديثها معنا موقف أبيها منا ، بل كانت كل شكواها منه نتيجة لعجرفته وعنجهيته واذلاله لها هى وأختها مايسة ، وتفضيله لأخيها كمال عليهما فى كل شئ حتى أفسده بتدليله . ويبدو أنه لم يعلم شيئا عن مسعى هالة لدى خاها لتعيينى سكرتيرة له !

أما أنا فكنت أتمنى أن تكون أسرتى فى مستوى أسرة هالة حتى لو ضربنى أبى بالسوط صباحا ومساء ، ولم يقتصر الأمر فقط على العجرفة والعنجهية والاذلال المعنوى ! فهى لم تقم بتنظيف

البيت مع أختها مايسة إلا بعد انتهاء عصر الخدم والحشم فى السنوات الأخيرة ، لكن كان البيت مجهزا بكل الأدوات الكهربية الحديثة التى تجعل من عملية التنظيف والغسيل متعة ! أما نحن فلم نكن نملك سوى المكنسة المصنوعة من قش الأرز والمكسوة بأحد الجوارب القديمة لحمايتها أطول مدة ممكنة ، والطست النحاسى العتيد وصديقه وابور الغاز الذى يناهزنى فى العمر ! وكانت مها تعتقد أن المشكلة الحقيقية لهالة أنها ليست لديها مشكلة حقيقية بالفعل ، ولذلك كان من السهل عليها أن تحاول الإنتحار بتجرع زجاجة صغيرة من صبغة اليود عندما حاول أبوها منعها من اكمال دراستها التى هجرتها فيها بعد بمحض ارادتها ودون أى سبب مقنع . واستشهدت مها على كلامها هذا بأن أعلى نسبة للإنتحار فى العالم هى فى السويد نظرا لإرتفاع مستوى المعيشة ، وحيث تقل مشكلات المواطنين اليومية حتى تكاد أن تنعدم ، ولذلك اقترحت مها على هالة بعد خروجها من المستشفى أن تسعى لدى المسئولين من أصدقاء أبيها لعقد اتفاقية مع السويد تتيح لمواطنيها الراغبين فى الإنتحار ، الرحيل الى مصر ، وبمجرد وصولهم ينظم لهم برنامج حافل لركوب الأتوبيسات ، والوقوف فى طابور الجمعيات الإهلاكية . . كما كانت مها تسميها . . للحصول على دجاجة أو كيلو سكر أو زيت ، والبحث عن أماكن شاغرة لأطفالهم فى مدارس اللغات ، أو سرير فى أحد المستشفيات لمريض لهم ! ولا شك أن هذه التجربة ستكون خير مصحة نفسية وعصبية

لهم ، فبعدها ستصبح السويد فى نظرهم الجنة التى يحلمون بالعودة اليها ، اليوم قبل غداً . وذلك بشرط أن يدفعوا رسوم استشفائهم بالعملة الصعبة ! وبذلك نصبح روادا فى مجال مبتكر من مجالات الإستثمار !

كم ضحكنا على تعليقات مها الساخرة ! لكن سرعان ما كانت هالة تعود الى حزنها الدفين ! كنا نقابل الحياة بالضحك والسخرية والأمل فى المستقبل برغم كل شئ ، فى حين وقعت هالة فى بؤرة التردد ، والحيرة ، واليأس ، والإحباط ، واذا أصرت على موقف معين أو علقت عليه أية آمال ، وهذا أمر نادر فى حياتها ، فانها سرعان ما تكتشف أنها ضلت طريقها كما فعلت مع لطفى ! أما أنا فقد علمتنى الحياة الحذر والحيطة وتحسس موقع أقدامى قبل أية خطوة ، وتلمس معالم الطريق قبل بلوغ نهايته ، فربما وجدته مسدوداً ! خاصة وأن حياتى بعد انهماكى فى العمل أصبحت ممتلئة . لم أعد أشعر أن هناك ما ينقصنى لأننى حتى ذلك الوقت كنت بعيدة عن التفكير فى الحب والعواطف ! لم يكن معنى ذلك أن قلبى لم يدق أبداً ، ولكنى أعرف تلك المشاعر الهادئة التى تمتزج فيها العاطفة بالإعجاب . ولعل أكثر الناس الحاحا على مشاعرى الوليدة النامية كان . . عبد الرحمن بك نفسه !

● ● ● ● ● ● ● ●

ما أطيب أم مها ! تدخل وتقدم لى كوبا من الشاى ، وتعبر عن حرجها من مها التى لا تزال نائمة وعن اصرارها على ايقاظها ، لكننى أصر بدورى على تركها حتى تستيقظ من تلقاء نفسها ، فأنا أدرى بالمجهود الذى تبذله في عملها من الثامنة والنصف صباحا حتى الرابعة مساء ! تعود أم مها أدراجها فى خجل فى حين أستمتع أنا برشفة الشاى الساخن بنكهة النعناع ، وبمتابعة تحركات الجيران فى الشرفات والنوافذ ، والزبائن أمام المحال ، والمارة فى الشارع الضيق !

● ● ● ● ● ● ● ●

لم أكن فى هذه المشاعر ، أعتدى على حق أخرى ! فقد كان عبد الرحمن بك قد فقد زوجته فى حادث سيارة ، منذ عامين أو أكثر ، ومنذ ذلك الحين ، أعطى كل حياته لعمله دون أن يفكر فى بناء حياة جديدة . وكنت ألمس منه أحيانا مشاعر طيبة لم أقنع نفسى بأنها يمكن أن تتحول الى حب بيننا . كانت حواجز السن والمركز الإجتماعى والمستوى الإقتصادى أعلى وأضخم من أية محاولة لإجتيازها ، ولذلك قنعت بهذه المشاعر الطيبة لمعرفتى الوثيقة بقدر نفسى ! لكنه لم يقنع بعلاقة الرئيس بالسكرتيرة ، وكثيرا ما حدثنى عن استمتاعه بوجودى معه كإبنة كان يتمنى أن ينجبها ، ثم تحول حديثه من الإبنة الى الزوجة التى تهفو نفسه اليها كى تملأ حياته الفارغة ، ولم يخطر ببالى أنه يقصدنى أنا بالذات !

ذات مساء حار فى نهاية يونيو ، كانت الشركة كلها مشغولة بجرد أعمال السنة الماضية ، وإقفال الميزانية استعدادا للسنة المالية الجديدة ! وكنا نعود فى الخامسة مساء لنعمل حتى العاشرة وأحيانا الى ما بعد الحادية عشرة ! وكنت فى ذلك الصيف الساخن قد بدأت فى تعلم ارتداء أحدث الأزياء وإن لم تكن أثمنها ، وذلك بعد أن أصبحت خبيرة بها لإستعراضى شبه اليومى لواجهات محال ميدان روكسى بعد خروجى من الشركة ! وبذلك أضفت متعة هذه النزهة الى صداقتى لها وهالة . قنعت بهاتين المتعتين حتى أصبحت لدى القوة الشرائية لتتحول الفرجة الى امتلاك ! كان هناك فستان أبيض ظل يغرينى حتى رضخت له عند قبض احدى المكافآت التى دفعتها كاملة فيه ! وعندما ارتديته فى البيت لتجربته ومشاهدته فى مرآتى الحبيبة اكتشفت شفافيته التى تكشف إطار النهدين وإطار الردفين لمن يحاول أن يدقق النظر . لكن كان من الصعب علىّ أن أرتدى تحته ما يخفى هذه الشفافية فى ذلك الصيف الساخن فقررت أن أرتديه عند خروجى فى المساء حين تختلط الظلمة بالأضواء الخافتة فتعجز العيون المتلصصة عن بلوغ مبتغاها ! وقد ارتديته لأول مرة فى ذلك المساء الحار من أواخر يونيو ، لكننى اكتشفت أن الإضاءة الساطعة فى مكتب عبد الرحمن بك لا تقل كثيرا عن ضوء النهار المبهر !

لاحظت نظرات الرجل الجاد الوقور التى لم تتخل يوما عن وجهى ، وقد تحولت من طرف خفى لتمسح جسدى الأسمر

الساخن المتفجر تحت الفستان الرقيق الناعم ، ثم تتحول الى ابتسامات عذبة وكلمات نابضة بالعاطفة الحارة وأنا أقدم له أحد الملفات :

ـ إنهم على حق عندما أسموك بالدينامو ! ففيك من الحيوية والإنطلاق والدفء ما يجعل كهلا مثلى يتمنى عودة الشباب ولو ليوم واحد !

تحاشيت نظراته الملحة الملتصقة بوجهى :

ـ نحن نستمد كل هذا من سيادتك !! فبدونك لا نساوى شيئا !

مد ذراعه ليجذب أحد المقاعد بالقرب منه :

ـ اجلسى يا منى . . لم تستريحى للحظة واحدة فى الأسبوع الأخير !

غمرتنى موجة من الحرج المصحوب بالعرق أو ندى العرق :

ـ العفو يا فندم . . إنه واجبى لا أكثر ولا أقل !

جذبنى من ذراعى حتى أجلسنى الى جواره ، ثم ضغط على أحد الأزرار فتأكدت من أنه أضاء المصباح الأحمر على باب مكتبه . لم يأت بمثل هذه الحركة معى من قبل لكن الخوف لم يتسلل الى قلبى ، فقد كنت واثقة من مدى حكمته ورزانته وتعقله ووقاره ، ولذلك اجتاحنى احساس مثير غامض ممتع لما سوف تتمخض عنه اللحظات القادمة ! كان شرفا كبيرا لى أن أصبح أنثى مرغوبة من رجل عظيم قدير مثل عبد الرحمن بك

الذى ربت على كتفى فى حنان بالغ :

ـ كنت أجمل وأعظم هدية قدمتها لى هالة التى لم تحاول .. للأسف .. أن تقلدك فى حيويتك وانطلاقك ودفئك !

ثم ضغط على الكلمة الأخيرة ببطء شديد ، لكننى سعدت بموضوع هالة الذى يمكن أن يملأ فراغ الصمت لحين تبين مواقع أقدامى :

ـ لم أر صديقة فى حبها وعطفها وحنانها مثلها ! كم صدمت عندما تعثرت فى دراستها وهجرتها أخيرا ؟ ! كم حاولت أنا ومها إثناءها عن عزمها .. لكن .. للأسف .. لم نرها مصرة على شئ من قبل مثل اصرارها على هذا القرار المدمر !

لم يخف الندم فى عينيه لتحول مجرى الحوار الى هالة فحاول اعادته الى طريقى :

ـ هناك من حملة المؤهلات المتوسطة من هم أبرع وأروع ألف مرة من خريجى الجامعات الذين لم نعد فى حاجة حقيقية اليهم .. فأنت مثلا عندى بألف بكالوريوس تجارة .. إننى لا أتصور المكتب بدونك . ولابد أنك تشعرين بهذا ؟ !

ثم عاد ليمسح شعرى وذراعى العاريتين بعينين حانيتين وأنا أتلعثم :

ـ لا حرمنا الله من عطفك ورعايتك ! إن أسرتى كلها تدعو لسيادتك بالتوفيق والنجاح فى كل يوم !

لم تسترح عيناه لألفاظ العطف والرعاية والسيادة ، فى حين مسحت ندى العرق على جبهتى بمنديل صغير فى يدى وهو يقول :

ـ يبدو أن التكييف لم يعد كافيا فى هذه الليلة الحارة ؟ !

ـ كان أسبوعا رائعا زاخرا بالعمل والجهد والعرق . . شعرنا فيه كلنا وكأننا أسرة واحدة !

اندهشت لكلماتى التى خرجت بحماس لم أقصده ، لكنه سرعان ما جارانى حماسا :

ـ أنجح أساليب الادارة فى نظرى . . يتمثل فى كلمة واحدة ! الحب . . الحب الذى يجعل الآخرين يتفانون فى خدمة الشركة دون طمع فى ثواب أو خوف من عقاب . . فأنت مثلا لا تتفانين فى عملك إلا اذا كان الحب هو المحرك الأساسى لحيويتك وانطلاقك ودفئك !

حاولت أن أجعل الموضوع عاما بقدر الإمكان :

ـ فعلا . . الحب يصنع المعجزات !

نظر الىّ نظرة متفحصة وقال :

ـ لكن هناك . . للأسف . . من يستغلون الحب لبلوغ أغراضهم الشخصية التى قد لا تكون فوق مستوى الشبهات فى أحيان كثيرة !

لم أفهم كلمة واحدة مما قال ! لم أعرف موقعا لخطواتى فآثرت الحذر والحيطة وتحسس معالم الطريق فى تلك المنطقة الوعرة المجهولة التى قادنى اليها فجأة :

ـ وهذا ما أخشاه أنا ومها بعد أن تركت هالة نفسها نهبا للفراغ القاتل وفى أمس الحاجة لمن يلوح لها بالحب !

نظر الى الساعة الذهبية الصغيرة القابعة على بللور مكتبه

الضخم الفاخر ، فوجدها قد تجاوزت الحادية عشرة :
ـ حان الوقت للعودة الى البيت . . الحمد لله . . انتهينا من الميزانية فى وقت قياسى !
نهضت فنهض بدوره . قلت فى شبه انحناءة :
ـ هل هناك أوامر أخرى ؟ !
ابتسم ولكن فى بعض الضيق المتسائل :
ـ ألن تتخلى عن تحفظك هذا ؟ ! نعم . . هناك أوامر أخرى !
ـ وأنا تحت أمر سيادتك !
ـ سأصطحبك فى عربتى الى بيتك ! فلا يعقل أن أتركك فى هذه الساعة المتأخرة لتبحثى عن تاكسى أو أتوبيس !
ـ العفو يا فندم . . فأنا لا أستحق هذا الشرف !
قال بحسم باسم وهو يرتدى الجاكتة :
ـ كفاك ثرثرة ! . . هيا بنا !
كان معظم العاملين قد غادروا الشركة ، ولم يتبق سوى رؤساء الأقسام الذين حياهم عبد الرحمن بك طالبا منهم فى دعابة أن يرحموا أنفسهم ، ويكملوا ما تبقى من أعمال فى الغد ! وسرعان ما كنت معه فى السيارة البيضاء الفارهة التى رأيت مثلها فى فيلم أمريكى فى التليفزيون الملون الذى اشتريته أخيرا لتلتف حوله أسرتى وبعض الجيران كل ليلة ! تهادت السيارة المكيفة المغلقة فى سكون بليغ بعد أن تلاشت ضوضاء الشارع أو كادت ! كان بيتى فى طريق عبد الرحمن بك الذى يقطن فيلا فى

ميدان تريومف . لكننى صممت على أن أهبط من السيارة بعيداً عن بيتنا حتى لا يرانى أحد الجيران فتتحول ألسنة السوء إلى سياط من نار ، خاصة بعد أن شعر جميع المحيطين بنا بالتحولات الجارية والتى بدأت فى إيجاد فجوة بيننا وبينهم بل وتوسيعها بإستمرار ! يكفى الملابس الفاخرة والأجهزة الكهربية الحديثة التى اكتظت بها شقتنا الضيقة التى لا تسايرها !

اخترقت السيارة شارع دمشق بمحاله المغلقة على الجانبين ، وعبد الرحمن بك يختلس النظر الصامت الىّ من حين لآخر وقد تهادت السيارة فى بطء :

ـ لا أخفى عليك يا منى . . فقد أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياتى اليومية !

لم يفتح علىّ الله بغير هذا الرد :

ـ كل ما أتمناه من الله أن يساعدنى على رد أفضال سيادتك !

ثم انحرفت السيارة الى شارع هارون الرشيد فى حين بدا وكأنه يبحث عن وسيلة لمواصلة الحوار ، لكننى أشرت الى بيت على أنه بيتنا ، فتوقف أمامه ليمد يده ويضغط على يدى وكأنه كان على وشك أن يقبلها ثم قال فى وجد واضح :

ـ تصبحين على خير يا منى !

ـ وسيادتك من أهله !

وانطلقت السيارة لأسير على الطوار ما يقرب من خمس دقائق حتى بلغت البيت حيث كانت الأسرة ملتفة حول التليفزيون . قفز أخى منير ليقبلنى فجأة ويبشرنى بنجاحه فى دبلوم المعهد الصناعى واشتراكه الوشيك فى حمل عبء البيت معى ! سعدت كثيرا بالنبأ لكننى سرعان ما كنت فى غرفة نومى أحلم بعبد الرحمن بك ولسان حالى يقول : آه .. لو لم يكن يكبرنى بثلاثين عاما ؟ !

لكن الأمور عادت الى سيرتها الأولى ! فقد كانت مشاعر مؤقتة لا تلبث أن تذوب فى بحار العمل والمسئولية والسفر ! بل كانت هذه أقوى شحنة عاطفية جرفت عبد الرحمن بك تجاهى ! بعدها تحولت الى فترات عابرة من الرقة والعذوبة ، وقنع بعلاقة شفافة من الحنان والإهتمام والرعاية وغير ذلك من فيض العواطف الذى يمكن أن أغدقه عليه دون حرج أو حساسية ! لكن نجاح أخى وتخرجه فى المعهد الصناعى غير نظرتى الى الجنس الآخر ، وفك بعض القيود التى كبلت بها حركتى حتى لا يجرفنى التيار ! فسوف يخف العبء لأتفرغ - ولو جزئيا - لحياتى الخاصة التى بدأت فى التطلع اليها بعد أن حرمت منها منذ يوم مولدى !

لم تهتز صورة عبد الرحمن بك أبداً فى عقلى ووجدانى ! كان عمليا وجادا ووقورا ، لا يترك قياده للأهواء والنزوات . ولذلك لم يستطع أحد العاملين فى الشركة أن يمسه بكلمة من قريب أو بعيد . بل كانت علاقة الجميع به قائمة على مزيج رائع من

الحب والإحترام . وكنت أنا فى مقدمة المستمتعين بهذا المزيج الرائع دون أن أتجاوزه الى علاقة عاطفية لا أعرف أبعادها ! فأنا لست مثل هالة التى استجارت من الرمضاء بالنار !

ومع ذلك لم أكن مغمضة العينين عن تلك المحاولات التى كانت تجرى من حولى ، والتى كان يستهدف أصحابها أن تكون هناك علاقة عاطفية ، أو بمعنى أصح أن تكون هناك خطوة على أول الطريق المؤدى فى نهايته الى الزواج . كنت ألتقط التلميحات ، أو النظرات الباسمة ، أو العيون اللامعة بطلب الوصال ، أو الأيدى التى تمد يدها بالسلام لتظل مطبقة على يدى أطول مدة ممكنة ، أو تضغط بهدف توصيل رسالة معينة ، كنت ألتقط هذه الرسائل أو البرقيات لأحتفظ بها لنفسى دليلا على رغبة الآخرين فىّ ! لكن ما ضايقنى فعلا أن هذه الرغبة لم تلمع فى العيون ولم تنضح على الأيدى الا بعد أن تغير مظهرى وأصبحت من أكثر العاملات فى الشركة أناقة وبريقا ! مما جعلنى أسائل نفسى مراراً : ألا يمكن أن تكون للإنسان قيمة فى حد ذاته ؟ !

المهم أننى أوصدت الأبواب أمام مثل هذه المحاولات ، لأننى كنت واثقة أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا التفكير الذى لو سمحت لنفسى بتنفيذه لخنت بذلك آمال أسرتى المعلقة على كتفى ! والحقيقة أننى لم أضق بهذا الدور الذى منحنى احساسا غامرا بالسعادة ، وضاعف من حجم وجودى وكيانى ، تماما مثل دورى فى مجال العمل ! كلاهما أعطانى احساسا انسانيا عميقا ، وثقة بالنفس ، وقدرة على البذل والعطاء على حب وطواعية !

ومع ذلك شعرت بالأنثى النائمة فى أعماقى تريد أن تحطم القيود بعد أن أوشكت على الإستيقاظ من ثباتها العميق ! وجدت نفسى أطيل النظر فى مرآتى قبل أن أخرج كل صباح ، وأثناء العمل بين الحين والآخر ، والتمست العذر لكل من حاول التقرب منى ! فأنا نفسى أصبحت مغرمة بوجهى وبجسدى بعد أن أهملتها كثيرا ! وتضافرت الظروف على إيقاظ الأنثى النائمة ، فسرعان ما عمل أخى فى ورشة ضخمة للخراطة ، قريبة من ميدان صلاح الدين وحصل على مرتب لم يحلم به أبى فى يوم من الأيام . ولم يكتف منير بالورشة بل عمل سائقا لتاكسى بعد الانتهاء من عمله ! وكان فخورا وسعيدا بحمله العبء الأكبر ، وكثيرا ما داعبنى بقوله بأنه لابد أن يأتى اليوم الذى أجهز فيه نفسى لبيت الزوجية وأحتاج فيه الى كل مليم من المبالغ التى سبق أن أنفقتها على أسرتنا ! وكم حمدت الله على أنه منحنى أخاً باراً مثل منير ، ولم يرزقنى بأخ مثل كمال الذى طالما أذل أخته هالة ، أو بآخر مثل حاتم الذى يحاول أن يعيش عالة على أخته مها بحجة انتظار الوظيفة المناسبة ، وكأنه يسعى للسير على نهج أبيه الذى هجر أسرته ليتزوج من فتاة فى سن مها فى محاولة أخيرة لتجديد شبابه الذى ضاع هدراً !

لم تعرف هالة ومها شيئا عن المحاولات والمناورات التى دارت حولى ! فلم أكن فى حاجة الى رأيهما طالما أننى لم أصل الى أى مفترق للطرق ! فليست هناك ثمة خطورة تتربص بى ، وتثير قلقى العميق لألجأ الى طلب الرأى والنصيحة الخالصة ! فلم

يكن فى امكانى أن أقول لهالة إن خالها الوقور قد أوشك على الوقوع فى غرامى ، فقد لا تصدقنى ، أو قد تظن أننى أحاول تشويه صورته ، أو أننى أصبت بالغرور ، وبذلك أبدو ناكرة لجميل من ساعدنى فى وقت الحاجة ! كان حرصى على صداقتها يفوق حرصى على حياتى نفسها ! كذلك كنت أعلم مقدما السخرية التى ستنهال بها مها علىّ لو بلغ مسامعها هذا الكلام الذى لابد أن تعتبره من باب الهراء ! ولماذا لا أستعين بالكتمان ومها نفسها لم تقص علينا شيئا من المفارقات التى ربما تكون قد وقعت لها فى الشركة باستثناء أن زميلا لها أبدى اعجابه بها لكنها لم تقتنع به بعد ، وأنها غير مستريحة لنظرات صاحب الشركة اليها لكنها تقول لنفسها : إن بعض الظن إثم ! خاصة وأن زوجته سيدة فاضلة جميلة وله منها ثلاثة أطفال يتمنى كل رجل أن يكونوا أطفاله !

لكن ما وقع لى بعد ذلك دفعنى الى فتح قلبى لهالة ومها ، بل ولها على وجه الخصوص لأن هالة كانت قد تزوجت وانفصلت عنا تماما لولا سعينا لمعرفة عنوانها من مايسة ! فقد كان هناك زميل لى فى الشركة يختلف تماما فى شخصيته وأسلوبه عن الآخرين ! لم يكن يقبل أو يتودد أو حتى يبتسم مثلهم . وكان فى البداية يأتى الى مكتبى لأمور عاجلة تتعلق بالعمل ، ولا يكاد ينتهى منها حتى يشكرنى وينصرف . وذات يوم حضرت لقاء بينه وبين عبد الرحمن بك ، كان كلاهما جادا لدرجة التجهم ، وعجبت لهذا الشاب الوسيم الرقيق الذى لا يعرف الإبتسام

طريقا الى وجهه ، فلابد أن فى حياته مأساة أفقدته بهجة الحياة التى كنت أنا شخصيا قد شرعت فى تذوقها أخيرا !

انقضت فترة طويلة والعلاقة بينى وبين أشرف على هذا النحو الرسمى المتحفظ ، الى أن أراد ذات يوم لقاء عبد الرحمن بك فى أمر عاجل يتعلق بالعمل ! وكان عبد الرحمن بك فى اجتماع مع بعض عملاء الشركة الذين كان أحدهم بل وأهمهم عم أشرف نفسه ! اتصلت بعبد الرحمن بك الذى طلب منى فى حزم غريب أن ينتظره أشرف فى مكتبه حتى ينفض الإجتماع . فظننت أن الإجتماع كان حامى الوطيس بدليل أن بعض الأصوات كانت تنفذ من خلال الباب المحكم الإغلاق والمبطن بالجلد ! ودهشت لطلبه بأن ينتظر أشرف بعيدا فى مكتبه !

دون دعوة جلس أشرف أمام مكتبى صامتا لبعض الوقت ودون أن يرفع عينيه ليواجهنى ! كم بدا وسيما ورقيقا بكل آيات النعمة والرفاهية على وجهه ! شعره البنى الناعم اللامع المتهدل على جبهة وجهه الأبيض المشرب بلون الورد ، يكاد يلمس احدى عينيه العسليتين الواسعتين . أما شفتاه فكانتا رقيقتين بعض الشئ فوق ذقنه ذى الغمازة فى المنتصف ! أما أناقته فقد فاحت مع العطر الذى يشع بانتشاء الذكورة بالأنوثة ، ومن الحلة البنية الصوفية ، والقميص الأصفر المنير تحتها ، ورباط العنق الذى يمزج الخضرة الداكنة بقلوب صغيرة لكنها دامية !

أخيرا وضع الملف على مكتبى وشبح ابتسامة يلوح فى أفق

وجهه :

ـ يبدو أن عبد الرحمن بك سيتأخر كثيرا فى الإجتماع ؟ !

كان فستانى الأخضر يبين عن مفترق نهدى فى ذلك الصباح البارد من ديسمبر ، فتراجعت الى الخلف فى مقعدى :

ـ ما على الرسول إلا البلاغ ! ولحضرتك مطلق الحرية فى التصرف !

ـ أخشى أن أذهب الى مكتبى فى نفس اللحظة التى يطلبنى فيها !

ـ فى هذه الحالة سأبلغك فورا !

ـ أفضل الإنتظار . . فقد جئته فى أمر عاجل ! ومكتبى فى آخر الشركة !

ـ كما تشاء . . المكتب مكتبك !

ـ شــــكراً !

وران الصمت مرة أخرى لكن نظراته شرعت فى التمسح بوجهى هذه المرة ! أخفضت عينى حتى لا تذهب به الظنون الى حيث لا أعلم . قال :

ـ اذا كان عبد الرحمن بك مصرا على أن أعود الى مكتبى لحين انفضاض الإجتماع فاننى لا أرى ضرورة لإحراجك !

لم أستوعب معانى كلماته وإن أجبته بتلقائية لا تخلو من دهشة :

ـ لا أرى أى سبب للإحراج . . فجميع العاملين ينتظرونه هنا اذا جاءوا للقائه . . وأظن أن حضرتك لست استثناء من

هذه القاعدة !

استرخى فى مقعده تاركا الإبتسامة المريحة تتربع على وجهه الجميل أخيرا :

ـ الجميع يقولون إن عبد الرحمن بك لم يكن يحلم بسكرتيرة مثلك !

ـ هذه مجاملة منهم ! فأنا التى لم أكن أحلم برئيس مثله !

ـ فى الواقع فانى أحسد عبد الرحمن بك على هذا الحب العظيم الذى يتمتع به !! وأتمنى مجئ اليوم الذى أحصل فيه على عشر معشار هذا الحب !

لم أسترح أول الأمر لأسلوبه الغامض فى الحديث ، فتشاغلت بتقليب بعض الأوراق ، لكنه واصل الحديث فى حرص ودبلوماسية :

ـ الجميع يقولون إنه لا وجه للمقارنة بينك وبين السكرتيرة السابقة !

سألته دون تمهيد أو تفكير :

ـ هل ارتكبت أخطاء مميتة ؟ !

تراجع فى بعض من لعثمة :

ـ أبداً . . أبد ا . . فلم أكن أعرف عنها شيئا . . وانما أنا أنقل اليك ما يقال !

ـ ألم تكن تتردد على مكتب عبد الرحمن بك عندما كانت موجودة ؟ !

ـ طبعا . . لكن الأمر لم يتعد التحيات الرسمية والسؤال

عنه كالعادة !

- ولماذا تركت العمل ؟ ! هل استغنى عنها عبد الرحمن بك ؟ ! حاولت أن أحصل على اجابة مقنعة من الزملاء فأجاب الذين لمْ يتهربوا من الإجابة بأن تنقل العاملين بين الشركات المختلفة بحثا عن مرتب أعلى أصبح هذه الأيام من الأمور العادية !!

كان على أحر من جمر أو هكذا خيل لى وهو يستمع الى كلماتى التى صمت بعدها للحظات دفعته الى أن يؤمن عليها :

- هذا صحيح . . فالجميع يقولون إنها حصلت على مرتب أكبر فى شركة أخرى !! فقد انتهى العصر الذى يتعلق فيه الإنسان بوظيفة واحدة طول العمر !

- لكننى لن أترك عبد الرحمن بك أبداً !

ضحك ضحكة مقتضبة اقتضاب كلماته :

- الجميع يبدءون بالعاطفة ثم يلجأون الى العقل !!

لم يغب عنى ذكاؤه ولباقته بالإضافة الى وسامته وجاذبيته ، فتلاشى داخلى احساس التوتر الغامض الخفيف الذى بدأ مع جلسته ، وتمنيت أن يطول الإجتماع حتى أواصل معه الحديث أطول فترة ممكنة ! لم أعرف فى تلك اللحظة أننى أصبت بأعراض خفيفة من الحب عندما بدت لى أحاديثه شيقة ، وشخصيته جذابة ، دفعتنى الى التفكير فيه بعض الوقت ، لكنه تفكير سرعان ما تبخر فى سخونة دوامة العمل وزحام الحياة ! ومع ذلك لم أنس عندما خرج عبد الرحمن بك من الإجتماع مودعا

زواره وعملائه ، ووجد أشرف جالسا أمامى ، أن تغيرت ملامحه ! كنت أعرف ما يدور داخله أكثر مما يدور حوله ، أو هكذا خيل لى ! وجدته يدعو أشرف على الفور للدخول الى مكتبه ، حتى يناقشه فيما جاء من أجله ، لدرجة أن أشرف اختصر حواره مع عمه الخارج مع بقية العملاء ودخل !

دغدغتنى سعادة غامضة أوحت الىّ بأن الغيرة قد دبت فى قلب الرجل الوقور الذى أصر من قبل على انتظار أشرف وبقائه بعيدا فى مكتبه لحين استدعائه حتى لا يجلس معى ! فلا مجال للمقارنة بينهما ، كما أنه لا مجال للمقارنة بينى وبين السكرتيرة السابقة ! فأشرف لا يكبرنى الا بأعوام قليلة ، وفى عنفوان الشباب ، وفى قمة الوسامة والجاذبية واللباقة والذكاء . لم يقل شيئا محددا فى جلسته الأولى معى ، لكن الأنثى التى استيقظت داخلى أخيرا قالت لى أشياء محددة ! وطالما أننى لن أتخلى عن الحذر والحيطة ، ولن أترك قيادى لأحد ، فليس هناك خوف من الإقتراب من قلب الدنيا الذى سمعت عنه كثيرا لكننى لم أستمع الى دقاته بعد !

لم أكن أتعجل الأمور بعد أن بدأت الدنيا نفسها فى الإقبال علىّ ! ولذلك لم ألهث وراء أشرف الذى عاد مرة أخرى الى أسلوبه الرسمى المتحفظ ، وان لم يخل الأمر هذه المرة من ابتسامات ، وأسئلة عن الحال والصحة ، وتعليقات عابرة على أناقتى كلما أتى الى لقاء عبد الرحمن بك الذى طلب منى أن أدخله الى مكتبه فور مجيئه اليه كقاعدة ثابتة ، مهما كان مشغولا مع زوار

أو عملاء أو عاملين ، كذلك كان يحرص على توصيله الى باب مكتبه بعد انتهاء المقابلة وهو يناقشه فى بقايا الموضوع الذى جاء من أجله ! وقد أسعدنى هذا السلوك الجديد من عبد الرحمن بك سواء أكان نتيجة لغيرته المفرطة علىّ أو للأهمية المتزايدة لأشرف الذى يجب ألا ينتظر اللقاء مثل بقية المسئولين فى الشركة ، برغم أنه أصغرهم سنا !

ودارت الأيام ليسافر عبد الرحمن بك فى رحلة عمل الى ألمانيا لمدة أسبوعين ! وكانت تلك أول أجازة حقيقية أحصل عليها منذ التحاقى بالشركة باستثناء الإجازة الأسبوعية يومى الجمعة والسبت ، وكثيرا ما ألح علىّ عبد الرحمن بك للقيام باجازة سنوية ولو لمدة أسبوع واحد ، لكننى كنت أداعبه بقولى إننى لا أعرف ماذا أفعل بهذا الأسبوع ؟ ! كما أن وجودى فى الشركة بمثابة راحتى الحقيقية ! وكان يضحك من أعماقه لأنه لم ير شقتنا ولم يعرف أن مكتبى الصغير الملحق بمكتبه هو الجنة بعينها اذا ما قورن بغرفة نومى الخانقة التى أنام فيها مع ثلاث من أخواتى ، كل اثنتين منا على سرير حديدى فقد طلاءه الأسود اللامع منذ طفولتى المبكرة ، لكن أعمدته الأربعة الصدئة أصرت على شموخها الذى اقترب من سقف الغرفة التى حرصت على طلائها أخيرا مع الشقة كلها بعد أن أوشكت جدرانها على العرى الكامل من طبقتها الجيرية الرقيقة !

فى غياب عبد الرحمن بك لأول مرة فى الخارج ، أصبح لدى متسع من الوقت . فقد قل التردد على المكتب أو انعدم تماما

باستثناء أشرف الذى استطاع أن يجد وقت فراغ يقضيه فى مكتبى وهو المشغول دائما ، وتعلل بارتباط عمله بعجلة عبد الرحمن بك ، ولذلك لم يعد عمله اليومى يستغرق فى غيابه أكثر من ساعة أو ساعتين ! كانت الرقة الحانية تنبع من نظراته ، وتنضح على نبراته ، بل إنه جرؤ بعد يومين فقط من غياب عبد الرحمن بك على الإمساك بيدى لقراءة الطالع فى كفى التى تركتها فى يده التى قالت لها أشياء مثيرة كثيرة ، برغم أننى اكتشفت فى الحال أنه لا يعلم شيئا عن أسرار الكف التى كثيرا ما أفضت بها أمى لنا وهى تطالعها فى أكفنا الواحدة بعد الأخرى ! ومع ذلك تركت له كفى ليقول من خلالها ما عجز أن يقوله لى مباشرة ! تنبأ لى بحياة سعيدة زاخرة بالحب والمتعة مع شاب ارتبط بى حتى العبادة ! وعندما سألته عن أوصاف هذا الشاب وعما اذا كان الإرتباط يعنى الزواج ، أدلى باسما بأوصافه تقريبا لكنه تجاهل الإجابة عن الجزء الثانى من السؤال الذى كنت على وشك أن أكرره لولا صوت أقدام كانت قادمة تجاه المكتب فانتفض تاركا كفى ومبتعدا بمقعده ، فى حين ألصقت ظهرى بظهر مقعدى !

● ● ● ● ● ● ●

مالت الشمس الى المغيب لكن جدران البيوت لم تفقد الدفء برغم نسمات البرد القادمة فى أواخر الخريف . أتحرق شوقا لإستيقاظ مها التى لا تزال تغط فى نومها ، فى حين أتظاهر أمام أمها بأننى لست فى عجلة من أمرى حتى لا أقلق راحتها ! أما هذا الشاب الواقف فى شرفة البيت القريب من ناصية

الشارع فيبدو أنه معجب بى ، أو لعله يظن أننى قابعة فى الشرفة على الكرسى الخيرزان المائل بظهره الى الجدار حتى ألفت نظر سيادته ! اللعنة عليه وعلى أمثاله ! صدقت مها عندما كانت تردد أن المرأة فى نظر الرجل الشرقى ليست سوى وجبة شهية لا تزيد فى قيمتها عن دجاجة مشوية ، أو قطعة من الحلوى ! ولا فرق عنده بين الحب والإلتهام طالما أن شهيته مفتوحة ! وهو نادرا ما يفقدها حتى فى مواجهة الفول والطعمية ! ولذلك لا يرى فى المرأة سوى الأنثى ، أما الإنسان داخلها فلا وجود له فى نظره ! ولو استطاع الرجل الشرقى أن ينال المرأة بدون زواج ، لإنخفضت نسبة الزيجات بل وربما انعدمت ! لم أكن أعرف سر المرارة التى نضحت بها كلمات مها ، وهى التى لم تمر بتجربة مثل تلك التى مررت بها ، والتى أوشكت بى على الإيمان برأيها الذى يبدو ثاقبا دائما !

● ● ● ● ● ● ● ●

كانت انتفاضة أشرف عند سماعنا لصوت الأقدام القادمة بمثابة تأكيد عملى على أن ما يدور بيننا سر لا يصح للآخرين الإطلاع عليه ! ولذلك قال لى فى اليوم التالى إنه يخاف علىّ خوفه على عينيه ، ولا يحب أن يمسنى أحد بكلمة من قريب أو بعيد ! واللقاء فى المكتب ربما جر علىّ متاعب أنا فى غنى عنها ! وطالما أن الثقة أصبحت متبادلة فلماذا لا يتم اللقاء بعيدا عن العيون والألسنة ؟ ! دهشت لهذه الخطوة الجديدة الجريئة التى يقترحها ، وبدا لى جادا لا يريد أن يضيع وقتا ! وتذكرت هالة التى قررت

الزواج من مجرد عامل فى ورشة لإصلاح الثلاجات وهى ابنة الحسب والنسب ، برغم أنها لم تستطع أن تتخذ من قبل قراراً واحداً ، فضلا عن اصرارها عليه ! فكيف أتردد أنا ابنة مفتش مترو مصر الجديدة فى الإرتباط بأشرف إبن العز والرفاهية والأرستقراطية ! صحيح أنه لم يفاتحنى فى موضوع الزواج ، لكن ليس هكذا تؤخذ مثل هذه الأمور ، وحتى اذا لم تكن ثقتى فيه كاملة ، فاننى لم أفقدها فى نفسى من قبل إلا فى الفترة الأولى من تعيينى بالشركة ! إذاً . . لا خوف من خوض التجربة طالما أننى أملك طاقة الإختبار والإختيار هذه المرة ، وفى امكانى أن أوجهها طبقا لإرادتى طالما أنه يحبنى ! ومع ذلك تمنعت فى بادئ الأمر حتى لا يظننى متلهفة أو رخيصة ! فالفقير قد يكون أغلى بمراحل من الغنى كما قرأت مها لى ذات مرة فى أحد الكتب ! أو الفقر حشمة كما اعتادت أمى أن تذكرنا من حين لآخر !

رفضت فكرة اللقاء خارج الشركة بطريقة « يتمنعن وهن راغبات » ! لكننى فوجئت بامتناعه عن زيارتى فى مكتبى ثلاثة أيام متتابعة ! كدت أجن فيها بعد أن تأكدت من أنه لم يعد مجرد صاحب تلك الجاذبية العابرة السريعة ، بل أصبح سيد قلبى الذى يملك أمره بكل ما فيه من عذرية العواطف والمشاعر والنبض ! لم تمر لحظة فى تلك الأيام الثلاثة إلا واجتررت فيها كل بسمة وهمسة ودعابة ولمحة ولفتة ولمسة ! لم يتخل طيفه عن زيارتى قبل أن أسلم جفونى للنوم وبعد أن أفتح عينى لإستقبال اليوم الجديد !

في اليوم الرابع شعرت باقتراب عودة عبد الرحمن بك من الخارج مع عودتى الى الدوامة التى تستغرقنى تماما ! اجتاحنى قلق غامض غريب متسائل : كيف أجتذب أشرف الى مكتبى مرة أخرى ؟ ! لم يخطر ببالى سوى بعض الحيل الصبيانية المكشوفة التى لابد أن تعرى محاولتى للتمنع ! قررت أن أصبر يوما أو يومين آخرين لعل الأزمة تنحل من تلقاء نفسها دون إراقة لماء الوجه ، لكننى كنت مدركة تماما أنه صبر على أحر من جمر ، خاصة وأن غيابه المتصل أكد لى نبل مقصده ! فمن يرى فى المرأة فريسته ، لا يكل حتى يوقع بها !

فجأة وجدت على مكتبى أحد أقلام الحبر الجاف ! فى لحظات تأكدت من أنه ليس قلمى ، كما أنه لا ينتمى الى مجموعة أقلام عبد الرحمن بك الفاخرة ! لابد أنه قلم أشرف ، تركه سهوا فى آخر لقاء ! أمسكت بالقلم بإعزاز شديد ، وفكرت فى الإتصال به لعله يأتى ويستعيده لكنه وفر علىّ هذه المحاولة الحرجة ، إذ أنه فى نفس اللحظة دخل يسأل عن القلم وأنا ممسكة به ! ابتسم وألقى بتحية الصباح وتأسف للإزعاج لكننى سرعان ما انتفضت واقفة ، وادعيت التفكير فى البحث عن صاحب القلم الذى لم يمر بذهنى أنه هو ! اتسعت ابتسامته وهو يتناول القلم :

ـ كنت أظنه شيئا يمكن أن يذكرك بى اذا كنت قد طردت تماما من حياتك ؟ !

أصابنى وابل كلماته بالحيرة والتردد والخجل :

ـ أهلا بك فى أى وقت !

ـ لا زلت خائفا عليك من الألسنة والعيون ! ولا زلت حريصا على لقائك فى الوقت نفسه ! فماذا أفعل ؟ ! انقذينى من هذه الدوامة .. أرجوك !

كانت ضرباته ناعمة ، متلاحقة ، محسوبة فحاولت أن أكون على مستوى الموقف الجديد :

ـ اذا كنت مصراً فلا مانع عندى ! ولو أن من يرانا هنا يمكن أن يرانا بعيدا عن هنا .. فنحن لن نذهب الى آخر الدنيا !

لم يخف البهجة التى تدفقت من وميض عينيه وفورة حماسه :

ـ هذا أسعد نبأ سمعته فى حياتى ! ومتى سنتقابل ؟ ! خير البر عاجله ! الأيام تمر والعمر كله يمضى فاذا لم نمسك بتلابيب السعادة من الآن فسوف يفوتنا القطار ونندم حين لا ينفع الندم ! قطار الحياة لا ينتظر أحداً .. وها هو على وشك أن يبلغ محطتنا !

ـ لم أعرف أنك فيلسوف أيضا ؟ !

ـ ستكتشفين فىّ أشياء أخرى كثيرة أرجو أن تعجبك أيضا .. لن نضيع الوقت أكثر من هذا .. هل تعرفين كازينو الميريلاند ؟ !

هززت رأسى علامة الموافقة دون أن أنظر اليه فقال فى عزم :

ـ سأنتظرك فى سيارتى الحمراء أمامه فى تمام السادسة !

ـ والى أين سنذهب ؟ !

ـ سندخل الكازينو لنتناول كوبا من الشاى الساخن !
ـ واذا رآنا أحد من العاملين هناك ؟ !
ـ فى شتاء قارس كهذا لا يكاد أحد يتردد على مثل هذا الكازينو فى المساء . . فالكل يهرع اليه فى النهار طلبا لدفء الشمس !
ـ وهل سنجلس فى صقيع الحديقة ؟ !
اندهش للسؤال لكنه أجاب :
ـ سنجلس فى القاعة الداخلية ذات الأضواء الخافتة والأركان المنزوية ! لا تخافى فلن يرانا أحد ! والآن أتركك وسوف أنتظرك على أحر من جمر !

وغادر مكتبى مخلفا وراءه عطره الساحر المتسلل من أنفى الى قلبى منذ أول لقاء بينى وبينه ! كان مسيطرا تماما على دفة الأمور بحيث لم يترك لى فرصة للتفكير المتأنى والتأمل الهادئ حتى بعد أن رحل ! كانت المشاعر ، والعواطف ، والخواطر ، والأفكار ، والهواجس ، والمخاوف ، والآمال ، والتطلعات متداخلة ، ومتشابكة ، ومتصارعة ، ومتلاطمة ، ومتناقضة بحيث لم أتخلص من حيرتى الا عند نزولى من البيت ، وأنا أخبر أبى باحتمال تأخرى بعض الوقت لإنجاز بعض أعمال الشركة فى ذلك المساء ، ودعوته لى بأن يجعل الله لى فى كل خطوة سلامة ! وكان قد أحيل الى المعاش ولزم عقر داره فى تلك الليالى الباردة .

أقلني أول تاكسى قابلته الى الميريلاند.!.كانت الشوارع شبه خالية من المارة بعد أن افترشها الصقيع بدلا من دفء الشمس التى توارت خلف السحب الداكنة التى أنذرت بمطر وشيك ! وأمام الكازينو هبطت من التاكسى لأجد أشرف قابعا فى عربته الحمراء الفاخرة اللامعة . خرج مسرعا منها وهو يبدى اعجابه بمعطفى الجديد برغم أنه من الفراء الصناعى ! سرى البرد فى عروقى وأنا أسير الى جواره فى حديقة الكازينو برغم المعطف الثقيل والحذاء ذى الرقبة التى تصل الى أسفل ركبتى . هل كان برد الجو أم برد الخوف ؟ ! لا أعرف !

دخلت معه القاعة الدافئة لكن احساسى بالبرد لم يتراجع . كانت القاعة فسيحة ذات أعمدة مربعة سميكة ، وموائد صغيرة تراصت على الجانبين وفى الأركان المنزوية التى حدثنى أشرف عنها ، وعلى كل مائدة أباجورة خافتة تضئ وجهى العاشقين المبتسمين أو المنتشيين بلمسات الأيدى أو تلاقى العيون ! فى حين صدحت موسيقى خفيفة حالمة لتضفى على المكان مزيدا من الرقة والتماوج فى شحنة الأحاسيس التى يموج بها . اصطحبنى أشرف الى زاوية بعيدة تكاد تختفى خلف أحد الأعمدة المربعة السميكة المغطاة بالمرايا التى تعكس الوجوه من زوايا متعددة !

جلسنا الى المائدة النائية وسرعان ما جاء النادل الذى يبدو أنه يعرف أشرف جيدا . سألنى أشرف عما أريد أن أطلبه فقلت فى اقتضاب : أى شئ ! طلب أشرف شايا وطبقا من الحلوى ! انحنى النادل فى سعادة وانصرف فى حين أطفأ أشرف الأباجورة

الصغيرة بيننا قائلا :
- حتى لا يرانا أحد على الإطلاق !
أعدت اضاءتها بأصبع مرتعشة :
- لا يهم .. أريدها مضيئة !
أجاب فى اقتضاب لكن نظراته سهام نارية فى عينى :
- كما تحبين ! وأنا أيضا أحب تأمل وجهك الخمرى الجميل فى ضوئها الوردى الحانى !

فجأة دوت فرقعة كطلقات المدافع المضادة للطائرات كما سمعتها فى حرب أكتوبر ! تتابعت أمواج الخوف داخلى حتى تبينت أنه صوت الرعد الذى أعقبته أمطار كالسيول التى أغرقت زجاج النافذة المواجهة لنا ! لم أكن أعرف فى تلك اللحظة أن الطبيعة تحذرنى مما كنت مقبلة عليه ، بدليل هذا الخوف البارد السارى داخلى ، والذى تغلبت عليه بابتسامة اصطنعتها وألقيت بها لأشرف ! سلط علىّ وميض عينيه العسليتين الواسعتين مع نبضات شفتيه الرقيقتين فوق ذقنه ذى الغمازة فى المنتصف :
- لا أكاد أصدق نفسى .. أخيرا سمحت لى الظروف بالإنفراد بكل هذا السحر الخمرى المسكر ! لو ظللت أتأمل جمال وجهك ورقته عشر سنوات متتابعة لما مللت ! وجهك بحر هادر من النشــوة الصامتة ! المتصلة !

ما هذه الموجة الطاغية التى أغرقنى بها هذا الساحر ؟ ! هل أنا حقا ساحرة الى هذا الحد ؟ ! نسيت الرعد والمطر والخوف السارى داخلى بالبرودة التى انداحت أمام طوفان الدماء الساخنة

المتدفقة فى عروقى ! لم أملك سوى الإبتسام فى ذهول فاذ به يلمس أطراف أصابعى بصوت هامس :

ـ ارحمينى . . تكفينى نظراتك !! أما ابتسامتك فلا قبل لى بها !

اتسعت ابتسامتى رغما عنى فانحنى وهو مغمض العينين ليقبل أطراف أصابعى فى وله وعبادة ! حاولت استعادة زمام الموقف قدر الإمكان :

ـ إنك تبالغ يا أشرف ! فأنا فتاة عادية جدا . . وهناك من الجميلات الثريات من يتفوقن علىّ فى كل شئ !

ـ سأقص عليك كيف بدأ احساسى بك ثم حبى لك حتى أثبت لك أنك لست فتاة عادية على الإطلاق !

وصل النادل المبتسم لينحنى ويضع طبق الحلوى فى المنتصف ، وابريقا وفنجان أمام كل منا ، ثم انسحب فى أدب بالغ ليتولى أشرف صب الشاى واللبن فى فنجانى بعد أن سألنى عن عدد قطع السكر ! تصاعد البخار من الفنجان ليسرى مع السخونة المتدفقة فى عروقى ! لم أعرف أن الحب ساحر هكذا ! لكننى عرفت فى تلك اللحظة أننى أحببته بالفعل ، بل وغرقت حتى أنفى فى غرامه حتى كدت أن أختنق ! تناول رشفة ثم قال :

ـ أريد أن أسمع صوتك الساحر !

تناولت رشفة قصيرة بدورى :

ـ وعدتنى بقصة لم أسمعها منك بعد !

ابتسم وهو يضع قطعة الجاتوه فى الطبق أمامى :

ـ وأنا عند وعدى الذى لا يمكن أن أخلفه أبداً . . . فى الواقع عندما رأيتك لأول مرة شعرت أنك مختلفة ومن طراز فريد . . . لكننى حاولت أن أكبت هذا الإحساس الذى داخلنى دون أدرى . . خاصة وأننى لم أعرف فتيات من قبل . . فقد كانت حياتى كلها عمل دائب كما لاحظت بنفسك فى الشركة . . حتى الفتيات اللاتى ألمحن لى برغبتهن فى الإرتباط بى مدى العمر لم أشعر بمجرد وجودهن . . أما أنت يا منى . . فبرغم أنك كنت جادة للغاية . . بحيث لم أنل منك أى انتباه خاص . . فان قلبى تعلق بك . . حتى بعد أن غبت عنك ثلاثة أيام لم تحاولى أن تتصلى بى . . فزاد تعلقى بك . . ولم أستطع البعد أكثر من هذا فجئتك متعللا بالبحث عن قلمى الذى تركته على مكتبك فى آخر لقاء عامداً حتى لا أحرم من لقائك ! وكثيرا ما ساءلت نفسى فى حيرة بالغة : هل هذا هو الحب الذى طالما سمعت عنه من قبل ؟ ! لو كان هو فلابد أن يكون مزيجا من الجنة والجحيم ؟ !

صمت فجأة ليراقب رعشة عينى اللامعة ببوادر الدموع ويتساءل :

ـ لم تأكلى شيئا ! هل تسببت فى فقدانك للشهية ؟ !

تداركت الموقف بابتسامة حرجة :

ـ أبداً . . أبداً !

ثم انحنيت لأزدرد قطعة صغيرة من الجاتوه بينما أتى هو على

فنجان الشاى :

- كل خوفى الآن من أن يأتى اليوم الذى يمكن أن أفقد فيه حبك .. عندئذ سيكون الإنتحار مصيرى !

دون أن أدرى أمسكت بيده ، ولسانى يلهج دون تفكير :

- بعد الشر !! بعد الشر !!

ضغط على يدى وجرى عليها بكف ناعمة حانية :

- لم أسمع أروع من هذه الكلمات ! لا حرمنى الله منك أبداً !

كنت عازمة أول الأمر على أن أفاتحه فى موضوع الزواج ، لكننى وجدت أننى سأهبط بمستوى الموقف الرفيع المثير ، إذ أن هذا الموضوع التقليدى لابد أن يكون تحصيل حاصل بعد هذا الحب الجارف ! نسيت الخوف والقلق والمطر المنهمر على زجاج النافذة ، وانتقلت الموسيقى الهادئة الصادحة فى أرجاء القاعة الى أرجاء نفسى التى اكتشفت فى تلك اللحظة العجيبة كم هى رحبة فسيحة !! لمس ركبتى بركبتيه أسفل المائدة فسرت داخلى رعشة ممتعة وان كنت قد تراجعت الى الخلف قليلا . لم تتخل عيناه عن اطلاق سهاما مسحورة داخل حدقتى برغم محاولاتى المستميتة لإرخاء الجفون والدفاع عن الحصون الأخيرة ! تحولت الجلسة الى حلم ناعم زاخر بالأطياف ، واللمسات ، واللفتات ، والآهات المنطلقة من قلبه لتتمسح بصدرى الذى نفر من عقاله ! ولم أستيقظ إلا عندما وجدت الساعة وقد جاوزت العاشرة فشهقت بصوت مكتوم لم يخف عليه ، فأمسك بيدى

وأنهضني كفارس يمسك بيد أميرته :
- هيا بنا الى البيت !
- أخشى أن يراك أحد الجيران وأنا أهبط من السيارة ؟ !
- ألم يقم عبد الرحمن بك بتوصيلك من قبل !
أخرجني السؤال المفاجئ من خدرى برغم أن توصيله لى لم يكن سراً . كانت كل تصرفاته معى فى النور والعلن . أجبته :
- لم يحدث هذا سوى مرة واحدة غادرت فيها الشركة فى ساعة متأخرة من الليل . . كما أننى تركت سيارته قبل بيتنا بعدة بيوت وليس أمامه بالضبط !
- فلنفعل نفس الشئ . . لا أحب أن أتسبب لك فى أى احراج !

خرجنا الى الحديقة ذات الأضواء الخافتة المتدثرة بأوراق الشجر . احتوى كتفى بذراعه اليمنى كما يفعل البطل مع البطلة فى الأفلام التى أدمنتها أخيرا كلما سمح لى الوقت بالجلوس أمام التليفزيون ! كان المطر قد توقف لكن الممر الذى سرنا فيه الى حيث السيارة كان قد غطت بعض أجزائه طبقة رقيقة من الوحل ، فى حين فاح العشب والورق الأخضر الداكن النضر برائحة طينية فتية !

ركبنا السيارة فحاول أن يقودها بيسراه ليحتوينى بيمناه ، لكن الهواء المنعش المبتل كان قد أخرجنى من خدرى تماما فرفعت يمناه ، وأنا أنصحه بالإلتفات والحرص فى القيادة على الشوارع الزلقة التى كانت قد خلت تقريبا من المارة ولم يبق فيها

سوى أزيز اطارات السيارات المسرعة فى الوحل !

فى تلك الليلة تأكدت أننى بلغت مفترق طرق خطير فى حياتى ، ومع ذلك أجلت الحديث مع هالة ومها فى هذا الموضوع الى أن تتضح لى أبعاده ، خاصة وأن مها تكره الحديث والمناقشة القائمة على مجرد التخمينات والتوقعات ، برغم ثقتى من أن أشرف لم يعد قادرا على تصور حياته بدونى ! ولذلك لم أتردد فى لقائه مرات عديدة متتالية فى نفس المكان الذى يبدو أنه كان محجوزا لنا دائما ! وتحول غزله الرقيق الى كلمات نابضة بأوار الشهوة المحتدمة داخله ، وكثيرا ما انتهز خلو القاعة أو انشغال العيون الأخرى بالغزل ، ليختلس قبلة من احدى وجنتى ، أو يداعب ركبتى بأنامله ! ولم أكن أصده بعنف ، ففى كل لقاء كانت لى هدية فاخرة : فستان من باريس ، خاتم من الفيروز أو العقيق ، ساعة دقيقة جميلة ، حقيبة يد يتمشى لونها مع الفستان السابق وهكذا !

حاولت أن أوقف هذه الهدايا عند حد معين لكنه أصر على الرفض ! فالحب فى نظره سلوك عملى وليس مجرد ألفاظ معسولة تلقى بمناسبة وبغير مناسبة ! وفاض طوفان الهدايا حتى كاد أن يغرقنى ، وتعللت أمام أسرتى بأن عبد الرحمن بك بعد عودته من ألمانيا ، قرر رفع بدل المظهر لى عدة مرات حتى أكتسب احترام الخبراء الأجانب الوافدين للتعامل مع الشركة طبقا لإتفاقياته التى عقدها هناك ! ولم تشك أسرتى فى كلمة واحدة مما قلته ، إذ كنت المثل الأعلى لكل أفرادها . لكن الواقع أن عبد الرحمن بك

قد لاحظ أناقتي المتزايدة لدرجة أنه عبر عن مخاوفه من أن يكون مظهري قد شرع في التهام دخلي! ابتسمت وطمأنته الى أنني تعلمت المحافظة على هذا المظهر بأقل التكاليف! لكنني أحسست بشئ غامض عابر غير مريح في نظراته التي سرعان ما نسيتها!

لم يفاتحني أشرف في موضوع الزواج، بل دار حديثه الأثير حول الحب والسعادة قبل أن يفوتنا قطارها، مع اللمسات المعتادة والقبلات المختلسة! فلم أجد بدأ من أن أفاتحه بعد أن زال الحرج بيننا تماما، وإذ به شعلة من حماس لنفس الموضوع! إن الزواج في نظره تتويج لكل حب رائع مثل حبنا، لكن ظروفه العائلية قد تؤجل الموضوع شهورا قليلة! سعدت بأن المسألة مجرد شهور قليلة، لكنني احترقت بنار حب الإستطلاع ومعرفة السبب الذي سألته عنه بعد شئ من التردد الحرج، فأجابني ببساطته المحببة:

- أنت تعلمين يا منى أن أسرتي قد جمعت ثروة طائلة من دنيا التجارة والأعمال.. وهي الثروة التي أصبحت همها الأول والأخير.. ولذلك قرر أبي أن أتزوج من ابنة عمي الذي يتردد على شركتنا لتعاملاته الضخمة معها حتى لا تخرج الثروة بعيدا عن نطاق الأسرة!! وهددني بحرماني من الميراث اذا عصيت أمره!

قاطعته في لهفة لم أعبأ بإخفائها:

- وأنت؟! ما رأيك؟! هل رضخت لتهديده؟! إنني

أريدك لشخصك فقط ؟ !

ربت على يدى ثم مسحها فى حنان :

ـ التعامل مع أمثال أبى وعمى بمثالية ليس سوى الغباء بعينه !

ـ لا أفهم !

ـ لحسن الحظ أن ابنة عمى قد غرقت حتى أذنيها فى غرام زميل لها تخرج معها فى الجامعة . . وعندما فاتحها عمى فى الموضوع صارحته بكل شئ . . حاول الضغط عليها فأصرت على موقفها ! هددها بالحرمان من الميراث فلم تعبأ ! ويبدو أنه بدأ أخيرا فى الرضوخ لرأيها خاصة بعد أن سمح لزميلها بزيارتهم فى المنزل ! ويبدو أن الأمر لن يستغرق أكثر من شهور قليلة !

ـ ولماذا تنتظرها طالما أن أباها قد سمح لزميلها بالتقدم لطلب يدها ؟ !

ـ لأن أبى مصر على أن هذه الزيجة لن تتم . . فقررت من ناحيتى أن أريحه حتى تتم فعلا . . وبذلك أخرج من المولد بكنزين : أنت وثروة أبى !!

تعجبت لعقله الذى يحسب كل شئ بهذا المقياس التجارى ، وفى الوقت نفسه يتدفق بآيات المشاعر المرهفة والحالمة ! فقررت مفاتحة هالة ومها فى الموضوع برمته ! كان رد هالة أن من الضرورى التأكد من احساسى الداخلى ، لكن مها قالت بصرامتها المعهودة :

ـ كلام فارغ . . لابد أن هناك من الشواهد والأدلة ما يمكن تحليله وبلوغ نتيجة محددة على أساسه ! الإحساس الداخلى قد يكون مضللا !

ـ لقد قصصت عليك تفاصيل كل ما حدث !

وضعت ساقا على ساق فى البنطلون الجينز الضيق الذى لا يفارقها :

ـ هل لا يزال هناك رجل يخاف أن يحرمه أبوه من الميراث لمجرد أنه قرر الزواج من الفتاة التى اختارها ! عار عليه أن يعجز عن إتخاذ موقف ابنة عمه الصريح الواضح المحدد ! هذا إذا كانت هذه القصة حقيقية من أساسها !!

ـ أتشكين يا مها فى صدقه !! إنها مسألة شهور وسيتبين كل شئ !

ـ فى هذه الأمور لابد من قطع الشك باليقين !

تدخلت هالة بوداعتها المحببة :

ـ لابد أيضا من مراعاة ظروف الآخرين ! والمياه تكذب الغطاس !

لم تصمت مها التى ليست على استعداد لهدهدة أى منا :

ـ وربما كانت المياه عميقة ومتقلبة للذين لا يحسنون العوم !

ـ لا أخفى عليك يا مها . . فأحيانا يصيبنى تشاؤمك بالرعب من المستقبل !

ـ التفاؤل والتشاؤم حجة العاجز عن اتخاذ القرار سواء بالسلب أو بالإيجاب ! ومن يضع نفسه تحت رحمة الآخرين . .

فليس له حق الشكوى اذا فعلوا به ما يحلو لهم ! ولو طرحت هالة هذه الإعتبارات السخيفة جانبا لما تركت دراستها بهذه البساطة . . وتخلت عن السلاح الوحيد الذى سمح لنا المجتمع بحمله !

كشفت الثريا المتألقة فى الصالون الذهبى الحيرة والتردد والمرارة فى عينى هالة وهى ترد على طلقات مها :

ـ لا أحب أن أواصل العمل من أجل هدف فقدت الرغبة فيه !

ـ نحن الذين نصنع الرغبة وليس العكس !

لم أستطع مواصلة الإنصات فتساءلت :

ـ منذ متى كنا نستطيع هزيمتك فى الجدل ؟ !

ـ المسألة ليست مجرد جدل . . وإنما مواجهة صريحة لحقائق الحياة بحلوها ومرها على وجه الخصوص ! إن أبشع أنواع الخداع هو خداع النفس . . فالإنسان غالبا ما يخدع نفسه بأنه لا يخدع نفسه !

ظهر شبح ابتسامة على وجه هالة وهى تزيح جدائلها الذهبية الى الخلف :

ـ لابد أن تقللى من قراءتك يا مها . . وإلا سيأتى اليوم الذى لن يفهم فيه أحد ما تقولين !

ضحكت فى محاولة لتخفيف سخونة الحوار :

ـ لم أعرف أن موضوع أشرف سيفجر كل هذه القنابل ؟ !

استرخت مها أخيرا فى المقعد الذهبى الوثير :

ـ تعلمين جيدا يا منى أننى لا أتمنى لك سوى السعادة . . لكن لا تتخلى عن حرصك حتى لو أدى بك الى سوء الظن الذى يحميك من مخاطر حسن الظن !

كانت الحمية المتدفقة مع كلمات مها قد أوحت الىّ بأن نار الغيرة منى قد لسعتها أخيرا عندما وقع فى غرامى شاب ثرى وسيم أرستقراطى مثل أشرف وبهذه البساطة ! ومع ذلك شكرتها على نصيحتها الأخوية الحارة ! خاصة وأن ظروفها الأسرية فى تلك الفترة كانت تنبئ بانفجار وشيك وقع بالفعل وهى فى سنة البكالوريوس الذى كنت أتمنى أن أحصل عليه ، لكن الله عوضنى عنه بخير لم أكن لأناله وأنا حاملة لدرجة الدكتوراه !

لم أشرك هالة ومها بعد ذلك فى موضوعى الأثير إلا من خلال ملاحظات وتعليقات عابرة ! كانت هالة قد تزوجت من لطفى ولم نعثر على عنوانها إلا بعد لأى ، ومع ذلك لم تكن ظروفها مواتية لزيارتها بانتظام . أما مها فكانت قد تخرجت وانهمكت فى عملها الجديد الذى كان الفضل فيه أيضا لعبد الرحمن بك . وكنت أشعر بها وكأنها ترزح تحت عبء ثقيل باهظ ، كنت أظن أن مرتبها الضخم سيخفف منه ! لكن يبدو أن المسألة لم تكن مشكلة مالية بدليل أنها كانت أكثر مرحا عندما هجر أبوها البيت وهى فى سنة البكالوريوس ! لم أحاول أن أدس أنفى بالسؤال عما يقلقها طالما أنها لم تفتح قلبها لنا . فقد كانت طبيعتها تميل الى الكتمان إلا اذا وقع ما يضطرها الى الإفضاء بما تنوء به ! وفى نهاية الأمر عللت نفسى بأن حبى الجارف لها أو

خوفى عليها ربما كانا وراء الهواجس التى تنتابنى ، والتى ربما لم يكن لها أى أساس من الصحة أو الدليل العملى الواضح !

أصبح أشرف بالنسبة لى الأمل والحياة والمستقبل . كنت أعيش أسعد أوقات حياتى فى ظل هذا الحب ، وأتمنى له أن يستمر الى آخر العمر برغم قلقى المتجدد حول موضوع الزواج ! كانت كلمات مها ترن فى أذنى وفى وجدانى كلما فاتحته فى الموضوع ! أحيانا كان يبشرنى بقرب زواج ابنة عمه ورضوخ أبيها وأبيه لإرادة العشاق ، وأحيانا أخرى كان يؤكد على ضرورة اللقاءات المتعددة قبل الزواج حتى ينهض على أساس سليم من التفاهم الكامل المشترك ، وكان يستشهد بآلام هالة التى كنت أحكى له عنها ، على صحة رأيه ، لكننى كنت أصر على أننا تعارفنا بما فيه الكفاية ، واتفقنا على كل شئ ما عدا الزواج ! ومع اصرارى المستمر والمتزايد قرر أخيرا عدم اضاعة الوقت فى الإنتظار وأخبرنى بأنه شرع فى تأثيث شقته الخاصة فى شارع النزهة كى تكون عش الزوجية السعيد . وعلى هذا الأساس سيتم عقد القران بمجرد زواج ابنة عمه الوشيك بدليل أن زميلها قد قام بالفعل بخطبتها رسميا ، ولم يتبق سوى كتب الكتاب والدخلة !

وبرغم هذه المنغصات تركت نفسى لتيار النشوة المتدفق دائما من ينابيعه ! تخليت عن تحفظاتى السابقة ، وترددت معه على دور السينما بحثا عن الأفلام التى يتحدث عنها زملاء الشركة ، والتى يشاهدونها فى أجهزة الفيديو فى بيوتهم ! مرة فى سينما روكسى ،

وأخرى فى سينما بالاس ، وثالثة فى سينما نورماندى ، ورابعة فى سينما الحرية وهكذا ! كان يستكشف مدخل السينما بمفرده فى حين أنتظره على الطوار فى الخارج ، فإذا تأكد من عدم وجود من يعرفنا ، يحجز مقعدين فى آخر صف فى البلكون ثم يعود ليصطحبنى بعد أن يكون العرض قد بدأ فندخل تحت جنح الظلام ونجلس حيث نشاهد فترات متقطعة من الفيلم ! فقد كان مهتما بأشياء أخرى قاومتها فى البداية لكننى قبلتها فيما بعد ، ليس عن مضض ولكن جريا وراء النشوة التى أدمنتها أنا أيضا !

لم أعرف أن للقبلة الساخنة التى تلتهم الشفتين هذا المذاق المسكر بلا خمر ! كان المقعد تحتى يتحول الى قارب صغير بين أمواج الظلام المتلاطمة برغم صور الشاشة المضيئة الملونة ! كانت أنفاسه فى أذنى أعلى من ضجيج المعارك الحربية أو المطاردات العنيفة ! قاومت فى أول الأمر اقتحام لسانه لفمى ، وأغلقت حصن أسنانى بمنتهى الإصرار ، لكنه همس قائلا بأن الحب ليس مجرد كلمات تقال ، ولكنه أفعال أيضا حتى لا يفوتنا قطار النشوة . ومع ذلك لم يعاود الإقتحام إلا فى المرات التالية حين استسلمت القلعة العليا تماما ، وفتحت بواباتها ليس تحت ضغط هجماته ولكن ترحيبا بنوبات النشوة المتصاعدة والمتزايدة التى كلما نهلت منها اجتاحنى عطش أشد !

ثم واصل هجماته المحسوبة على القلاع التالية استعدادا للقلعة السفلى ! لكنه لم يدرك أن عدم حسمه لموضوع الزواج قد منحنى مقاومة لم تخطر له ببال ، مهما تفنن فى استخدام اسلحته

السحرية والسرية ! تحولت كلمات مها فى أذنى الى أجراس انذار ، ولمت نفسى على اتهامى اياها بالغيرة منى ، وحمدت الله على أن هذا الإتهام ظل قابعا فى أعماق أعماقى السحيقة دون أن يفلت منى فى لفتة أو ايماءة ! فأنا لا يمكن أن أخسر صداقة من أنارت لنا الطريق بكل اخلاص وحب ، سواء طلبنا رأيها أو لم نطلبه !

● ● ● ● ● ● ●

وها قد عدت اليها بعد معركتى الخاسرة كى تضمد جراحى ! فما حدث بالأمس ملأنى بشحنة متفجرة لم أعد أحتملها أكثر من هذا ، فهرعت الى حبيبتى مها كى أفرغها بين يديها ! وكم كنت أود أن يطول العمر بهالة كى أفتح لها صدرى المتفجر أيضا ، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ! الذكريات الساخنة بل الملتهبة جنبتنى لسعة أواخر الخريف فى شرفة مها التى لابد أنها على وشك الإستيقاظ الآن ! فاذا انقطع حبل الخواطر أو انتهى ، ولم أجد ما أشغل به نفسى حتى تستيقظ ، فلابد أن أوقظها بنفسى ، والا أصابنى مس من الجنون ، أو ألقيت بنفسى من هذه الشرفة الى الشارع الضيق الذى يزحف عليه الظلام الآن ! وها هى أم مها تقتحم علىّ خلوتى مرة أخرى وتطلب منى الدخول من البرد والظلمة حتى تستيقظ ابنتها والا قامت بايقاظها ، لكننى أدعى مرة أخرى أننى لست فى عجلة من أمرى ، وأنا التى كنت على وشك أن أزورها أمس بعد الساعة

التاسعة مساء ، مع نهاية آخر لقاء لى مع أشرف ، برغم أننى لا زلت أتمنى ألا يكون آخر لقاء بيننا فعلا !!

● ● ● ● ● ● ●

شرع فى اقتحام قلعة النهدين . كان ينتهز فرصة الظلام وخلو المقاعد من حولنا ليدس يده المتسللة دائما فى مهارة ورقة ! واصلت المقاومة الباسلة ، ولكنها لم تكن مستميتة إذ أنها لم تصمد كثيرا أمام زحفه الذى تحالف مع حبى الجارف له ، فانهارت القلعة واستسلمت مع بعض الحرج والندم أول الأمر ، لكن سرعان ما غمرتنى أمواج الدغدغة المنتشية ، وتقاذفت فيما بينها الكرتين البضتين النافرتين ما بين صعود وهبوط ، بين القمم والسفوح ، بين التيارات الباردة والساخنة ، بين ظلام القاع وضوء الشمس المشرقة ! بين سكون العاصفة وعاصفة السكون ، بين هدير الأنفاس وفحيح الهمسات ! تحولت المقاومة الى اشتياق النهدين الى لمسات أصابع الساحر حتى لو أصبحت النشوة ألما !

لكننى شعرت بمخاطر هذا الزحف غير المقدس الذى لا يريد أن يتوقف عند أى حد ، فى حين أن الموضوع الآخر كان قد توقف تماما ! لم يكن يذكره إلا اذا كررته وأعدته على مسامعه ، فلا أسمع منه سوى قصة ابنة عمه إياها ! مع تنويعة جديدة تمثلت فى مواصلته تجهيز شقته لإستقبال العروس السمراء الجميلة متى تم الزفاف الوشيك ! وتفجر حماسه عندما كان يقص علىّ فى اللقاءات المتتابعة آخر ما تم من طلاء ولصق ورق الحائط

الذى اشتراه من الخارج خصيصا ، وان كان يود أن يعرف رأيى فيما أنجزه من خلال زيارة عابرة لعش المستقبل السعيد ! لكننى أكدت له أننى لن أدخل شقته إلا وأنا زوجته !

لم يبد عليه أى احباط بل تقبل رأيى بمنتهى البساطة ، فى حين واصل زحفه فى ظلام السينما بعد انهيار قلعة الشفاة ثم النهدين ! شرعت أصابعه الساحرة فى التسلل الى ركبتى ، فأمسكت بيده فى حنان وداعبتها ، لكنه لم يكن يحيد عن هدفه أبدا ! كان خبيرا فى التخلص والعودة الى التسلل ! وعندما أوقفته فى شئ من الحسم ، نأى عنى وقبع فى مقعده مدعيا الغضب وتفضيله متابعة الفيلم على مداعبتى المعتادة ! بل إنه تظاهر بالصداع والتعب وعبر عن رغبته فى مغادرة السينما التى لم يكن يغادرها معى إلا قبل اضاءة الأنوار بلحظات حتى لا يرانا أحد من الزملاء أو الأصدقاء ! لكنه هذه المرة أصر على المغادرة قبل انتصاف الفيلم برغم أنه كان عرضا كوميديا مرحا للغاية ، مما جعلنى أندم على صده ، لكن الندم كان ممزوجا بالخوف فلم أعرف حدود هذا من ذاك !!

قاطعنى بعد ذلك لمدة تسعة وعشرين يوما ! فى الأسبوعين الأولين تجنبنى تماما حتى كدت أن أجن . جاء مرتين للقاء عبد الرحمن بك ، فتصرف معى بمنتهى التحفظ كما لو كان يجهلنى تماما ! وحاولت أن أفاتحه بالنظرات والكلمات التى لا يفهمنا سوانا ، لكنه تجاهل محاولاتى ! جاءت مهمة تخليص بعض أعمال للشركة فى بور سعيد ، فاذ به يسرع للقيام بها .

وبدلا من أن تستمر ثلاثة أو أربعة أيام كما كان مقررا لها ، قضى هناك عشرة أيام بلياليها ! ثم عاد الى القاهرة ليستأنف سلوكه المتحفظ البارد المتجاهل لمدة خمسة أيام انتهزت آخرها حين ذهب عبد الرحمن بك الى الهيئة العامة للإستثمار لإتمام بعض الإجراءات ، وذهبت بدورى الى أشرف فى عقر مكتبه كى أعرف المدى الذى يريد أن يصل اليه بسلوكه الغريب هذا !

لم يستطع أن يكتم بشائر الفرحة على وجهه ، لكنه صارحنى بأن الحب الحقيقى لا يعنى سوى الثقة المطلقة ، وطالما أن ثقتى فيه قد تراجعت وضمرت ، فانه لا يستطيع أن يفرض نفسه علىّ أكثر من هذا ! عندئذ اعترفت له بعذابى فى غيابه بعد أن عجزت عن مواصلة الحياة بدونه ، وبصورته التى لم تغادر مخيلتى ، وبصوته الذى لا يزال يتردد فى أذنى ، وبنظراته وهمساته ولم أقل لمساته ! اتسعت الإبتسامة التى تربعت على عينيه وشفتيه ، وأكد لى أنها لحظة من أسعد لحظات حياته ، وأنه لا يكاد يصدق أذنيه ، وتواعدنا على اللقاء ، فى حين لم أهتم هذه المرة بسؤاله عن احتمالات زواج ابنة عمه ! يكفى أنه وعدنى بأنه لن يتجاوز حدوده حتى لا يثير غضبى مرة أخرى ، مما جعلنى أقسم له بأننى لا يمكن أن أغضب منه !

لكنه عاد الى محاولاته لإختراق الحدود ، والإلحاح هذه المرة على زيارة عش المستقبل السعيد ، حتى أرى بنفسى ما أتمه وأبدى رأيى فيه ! وكنت قد طلبت منه الخروج عن حدود مصر الجديدة طالما أن معنا سيارة ! لكنه لم يكرر المحاولة عندما دخلنا سينما

كايرو ، وكان الزحام خانقا مما حرمه من مداعباته الأثيرة ، بل وصرح بأنه آن الأوان لنعترف بأننا لا ندخل السينما لمتابعة آخر تطورات السينما العالمية والمصرية !!

عدنا أدراجنا الى ظلام دور مصر الجديدة فتسللت يداه اللتان لا تملان ، من ركبتى الى فخذى وهو يهمس فى أذنى بأحلى الكلمات وأعذبها حتى أعجز عن المقاومة تماما ! لكن مع شروعه فى جذب الإطار الدقيق المحيط بالردفين انتفضت وقبعت عند الطرف الآخر للمقعد . همس آسفا ومتعللا بأن جمالى وسحرى لا يقاومان ، لكننى لم أرد وظللت محدقة فى الشاشة لا أفهم ما يدور عليها من صور لا معنى لها . ربت على كتفى وكرر تأسفه حتى خرجنا قبل نهاية الفيلم دون أن نتبادل كلمة . لكن قبل هبوطى من سيارته وتوديعه اتفقنا على لقاء جديد أسعده تماما برغم أننى اشترطت أن يكون فى كازينو الميريلاند !

فى ذلك اللقاء لم يمل من الإلحاح علىّ لزيارة شقته وإبداء رأيى الذى يتوق اليه . كادت الفرحة أن تنطلق من حلقه لكنه كتم صرختها حين وافقته أخيرا ، لكن سرعان ما انداحت هبات السعادة على وجهه الأبيض المشرب بلون الورد ، وعينيه العسليتين الواسعتين ! كانت لحظة من تلك اللحظات التى يكتشف فيها الإنسان قدراته الخفية التى غابت عنه تماما ، والتى يبدو أن حبيبة عمرى هالة لم تكتشفها أبداً . سألت نفسى : لماذا لا أنتزع زمام المبادرة من يده وأقوم أنا بترويضه بدلا من اصراره هو على ترويضى ؟ ! إنه ليس شريرا أو سافلا ! كما أننى لابد أن

أعترف لنفسى أننى أحبه ، ولا أستطيع أن أتصور حياتى بدونه ! ومن الواضح أيضا أنه طفل مدلل اعتاد الحصول على كل الهدايا واللعب التى يرغب فيها ، وأنا واحدة منها ! لكننى سألقنه درسا تمنيت ألا أفقده على أثره !

تربع الإحباط على وجهه وعينيه عندما أكدت له استعدادى لزيارته فى شقته بشرط أن يتقدم قبل ذلك لطلب يدى من أبى ، وأن تعقد الخطبة رسميا ! تراجعت يده التى كانت ممسكة بيدى فى شغف حار ، ووعدنى بتلبية رغبتى بمجرد زواج ابنة عمه . ابتسمت وأبديت دهشتى الى أننى لم أعرف حتى تلك اللحظة اسمها برغم حديثنا الذى يدور حولها كلما تقابلنا . كان قد أخبرنى عند أول ذكر لها بأن اسمها مى ، ولم أنس الإسم برغم سؤالى الأخير الذى جعله يتردد قليلا ثم أجاب بأن اسمها ماجدة ! ابتسمت فى انتصار وزمام المبادرة يعود الىّ لأعلمه أن الكذب ليس له أرجل !

عاد الى لعبة التجاهل والخصام ، فصممت على ترويضه وترويض نفسى قبله . قابلت التحفظ بتحفظ أشد ، ولم أكن أتصور أننى سأستمتع باللعبة الجديدة برغم حنينى الجارف الى همساته ولمساته التى اجتررت ذكرياتها فى الصحو والمنام ! حتى عندما حاول اعادة المياه الى مجاريها بادئا بالنظرات ، تجاهلت نظراته حتى كاد أن يجن ! فالثمرة التى حان قطافها ظلت متشبثة بشجرتها ، مما أصاب عنقه بالتيبس انتظارا لها ! اذا كان يشعر أننى أقل منه فى المرتبة الإجتماعية ، ولا يمكنه الإرتباط بى برباط

الزواج ، فليذهب هو ومرتبته الى الجحيم ! أما اذا كان طفلا مدللا فأنا كفيلة به ! أما اذا كان ذئبا ناعم الملمس فلدى القدرة على حماية جسدى من أنيابه ومخالبه ! وتألقت كلمات مها فى وجدانى بحروف من نار ونور !

الغريب أن تصرفات عبد الرحمن بك أصبحت مشوبة بتوتر خفى غامض كلما دار بيننا حوار . كان يبدو فى كل مرة أنه على وشك أن يدلى بشئ ، لكن سرعان ما ينهى الحديث بالقاء تعليماته فى اقتضاب شديد ! هل يمكن أن يكون أشرف قد شوه صورتى عنده ؟ ! لا يمكن ! فمن المستحيل أن يصل به الأمر الى هذا الحضيض ! ظللت أضرب أخماسى فى أسداسى لدرجة أننى فكرت فى اعادة المياه الى مجاريها مع أشرف ، هربا من الفراغ أو بحثا عن السبب وراء توتر عبد الرحمن بك ؟ ! وهل كان سلوكه مع الجميع هكذا أو معى أنا فقط ؟ !

لكن حيرتى لم تستمر طويلا ! استنجدت هالة بى وبمها بعد أن أحال لطفى حياتها الى جحيم مقيم ! وشغلتنى محنتها ، خاصة وأن الورشة التى كان يعمل بها أخى منير تتعامل مع ورشة لطفى من خلال خرط قطع الغيار التى تطلبها للثلاجات والسخانات والأفران . وكان تحميسى لأخى لا يفتر حتى انتهى من تحرياته التى اثبتت أن لطفى اشترى شقة مفروشة فى المعادى ، وأنه يقضى فيها الليل أو معظمه مع هيام ! وأنه دعا صاحب الورشة اليها أكثر من مرة لقضاء سهرة حشيش وأفلام فاضحة ، وأن الجميع يعرفون أن زوجته هى السر فى الثروة التى

هبطت عليه فجأة !

دارت الدنيا بهالة ، لكن الدماء فى عروقى أنا ومها غلت وتدفقت الى المخ حتى كادت أن تفجره ، لدرجة أنستنى خصام أشرف وتوتر عبد الرحمن بك الى حين . أصرت مها على أن تواجه هالة لطفى مواجهة مباشرة تصفى فيها كل حساباته معه ! لكننى أشفقت على هالة الرقيقة الطيبة الوديعة من أن يفترسها هذا الوحش ، وكدت أن أعارض رأى مها لولا اقتناع هالة أو رضوخها لمها ، فلزمت الصمت ، خاصة وأننى كنت على وشك مواجهة أشرف بنفس الأسلوب ، ذلك الشعور الذى ألح علىّ فى الفترة الأخيرة ، وثبتت صحته بالأمس فقط !

لا أنسى ما حييت تلك الليلة الليلاء التى اصطحبنا فيها هالة فى سيارة أخى منير فى مطاردة للطفى وهيام ! ولولا كلمات مها وتشجيعها لهالة لملأ الصمت الرهيب السيارة . فقد عجزت عن العثور على كلمات مناسبة بعد أن ألحت على وجدانى المقارنة بين لطفى وأشرف برغم عدم وجود أية وجوه للتشابه بينهما ! كانت مها تتصرف كما لو كانت تريد أن تثأر من لطفى بصفة شخصية ! كان حماسها الهادر أقوى من مرارة هالة الساكنة ، أو هكذا بدا لى ! كما لو كانت تريد اصلاح الكون بأسره ! وتمنيت أن أسألها عن السر فى ارادتها الساخنة التى لم تعرف الشلل برغم ظروفها التى لا تقل سوءاً عن ظروفنا ؟ !

وتمت المواجهة التى لم أحضرها لإنتظارى ساكنة قلقة فى السيارة الى جوار أخى منير الذى أدى المهمة دون أن يفتح فمه بكلمة ، وان كان يختلس النظر من حين لآخر فى المرآة أمامه ليتابع وجه هالة فى طريق عودتنا التى أصرت أن تكون الى شقة زوجها فى الزيتون . تساءلت عما جرى لكن بركان مها الهادر لم يمنحنى اجابة شافية ! لم أنجح فى منع فيضان الدموع دون بكاء مسموع ، وأصررت فيما يشبه الصراخ على ألا نتركها تلك الليلة وهى على تلك الحال ، لكن نبرة قوة متحدية نامية فى صوت هالة لم نألفها من قبل ، أكدت أن عهد التخاذل والإستسلام والضعف قد ذهب الى غير رجعة ، وأنها أخيرا تعلمت كيف تدير دفة حياتها مهما كان البحر مظلما هائجا !

ودعناها عند مدخل الزقاق وقلبى يكاد يتوقف عن نبضه خوفا عليها ، ولم أخف رعبى عن مها التى قالت إن هالة لم تكتشف قوتها الحقيقية الا فى هذا اللقاء الأخير الذى يمكن أن يكون نقطة تحول فى حياتها ! ولم نكن نعلم أنه سيكون نقطة التحول الذى ستختم به حياتها ! وقع علينا نبأ احتراقها بموقد الغاز ككرة حديدية بعثرت مخنا الى أشلاء متناثرة ! فى ذلك الصباح الباكر الكئيب دقت مها ومعها مايسة جرس الباب ليفتحه أبى الذى يستيقظ عادة قبل صلاة الفجر ، وليوقظنى بالنبأ الرهيب بعد نوم متقطع زاخر بالكوابيس المتلاحقة التى أكدت لى أن شيئا ما سيحدث لهالة : رأيتها تسير فى أوحال الزقاق بقدمين عاريتين ، ثم وهى تسقط بقميص نومها الأبيض من أعلى

عمارتهم فى شارع دمشق ، ثم وهى تقع صريعة تحت عجلات سيارة لطفى التى انطلقت منها قهقهات هيام المتشفية !

ومضت أيام المستشفى ككابوس لا يريد أن ينقشع ! لم أكن أملك سوى الصلاة والدموع الصامتة هربا من احساس ضاغط بالذنب كاد أن يزهق أنفاسى ! لماذا شجعنا هالة على تلك المواجهة التى انتهت الى ما انتهت اليه ؟ ! أم أن المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين ؟ ! هل كنا أدوات فى يد القدر أم كنا محركين لتلك اليد الرهيبة ؟ ! هل كان فى وسعنا أن نفعل غير ما فعلنا ؟ ! آلاف الأسئلة التى كانت تتكالب على مخى لتبعثره يمنة ويسرة سواء فى ملازمتى لفراش هالة أو فى ملازمتى لفراشى أنا ! وكان عبد الرحمن بك قد منحنى إجازة مفتوحة لرعاية ابنة أخته ، وكذلك فعلت مها التى رحب رئيسها بالفكرة حتى يمن الله على صديقتها بالشفاء رغم أنها لم تذكره بكلمة خير أو شر !! أما عبد الرحمن بك فكان يتردد على هالة مرة أو مرتين يوميا ، ولكن لفترات قصيرة معتمدا على وجودنا مع أخته للعناية بهالة . واكتشفت كم كنت مخطئة فى قلقى تجاهه ، فقد تحول فى المستشفى الى نهر من الحنان والحب والوفاء الذى أغرقنا جميعا !

ثم فوجئت ذات عصر بوصول باقة فاخرة من الزهور والورود اليانعة وعليها بطاقة « أشرف العسيلى » ومعها تمنياته القلبية بالشفاء العاجل . سعدت بهذه الباقة لثقتى من أننى المقصودة بها ، ومن أن الدرس الذى لقنته اياه قد بدأ يثمر !

لكن آلام هالة التى بلغت حد الهذيان قد جرفت كل الخواطر المتدفقة من خارج الغرفة البيضاء ! كانت تنطق بكلمات وجمل تسرد بها بعض وقائع حياتها التى جاء فيها اسمى واسم مها أكثر مرة ، ثم تتلاشى الكلمات والجمل لتحل محلها حركات الشفاه الصامتة ! لكن سرعان ما يعود الصوت مرة أخرى مع ذكر لطفى وهيام ! بل وكثيرا ما تساءلت عما اذا كان قد جاء ليطمئن عليها ؟ ! كان قد جاء مرة واحدة لكنها كانت ذاهلة عن وجوده ! وعندما أفاقت كان قد رحل ، ولم يعد خاصة بعد أن أقنعتها مها بتغيير أقوالها فى المحضر على أساس أن تعذيبه لها قد دفعها الى الإنتحار !

كانت مها تظن بذلك أنها ستوقع بلطفى تحت طائلة القانون . لكن هالة برغم آلامها وذهولها كانت واعية تماما بأن ما فعله لطفى معها ، يفعله آلاف الأزواج ، ومع ذلك لا يقعون تحت طائلة القانون ! كانت رغبة مها فى الإنتقام من لطفى شديدة ، لكن صدمتها كانت أشد عندما سألت رجال القانون فأفتوا بضرورة وجود سبب مادى ملموس مثل ضرب أفضى الى موت . أما الزواج من ثانية والحصول على ثروة الأولى برضاها ، فكلها أمور يقف أمامها القانون صامتا مكتوف الأيدى لأنه لا يحمى المغفلين !

وجاء رحيل هالة صاعقة جديدة فجرت أحاسيس الذنب داخلنا لدرجة لم نعد فيها نحتملها . كان البكاء المستمر ملجئى الوحيد ، فى حين اشتعلت مها بنار الإنتقام والثأر ، وقررت

الوصول الى لطفى من الثغرة التى يمكن أن يطبق فيها القانون على عنقه ! يكفى سهرات الحشيش والأفلام الفاضحة التى يقيمها لصاحب الورشة فى شقة المعادى ! لكن أين رجل النيابة أو رجل الشرطة الذى يمكن أن يسهل هذه المهمة ؟ ! صحيح أن لطفى حضر جنازة زوجته وكان بادى التأثر وهو يتقبل العزاء ، لكن بمجرد انتهائها هرع الى المحكمة ليستخرج إعلام الوراثة حتى يحصل على ما قد تكون هالة قد أخفته عنه !

ظهر أشرف أيضا فى الجنازة برباط عنق أسود فاخر ! لكننى لاحظت نظرات عبد الرحمن بك المشدودة اليه للحظات ثم تنتقل بعدها لتعبر وجهى ! لم أكن فى حالة تسمح لى بالتفسير أو التحليل ، لكن الشئ الغريب الذى لم أستطع تجاهله نظرات أشرف الى مايسة الجميلة برغم عينيها المنتفختين بحمرة الدموع ، وردائها الأسود ، وشعرها الأشعث مع العاصفة الترابية التى هبت عند بلوغنا المقابر . هل كان يكيد لى ؟ ! أم أنه كان معجبا بها فعلا ؟ ! هل أرسل باقة الزهور الى المستشفى ليلفت نظرها هى ؟ ! ألا يعلم أنها ستتزوج من زميل لها فى الدراسة أحبته حب القلب والعقل ؟ ! أم أن كل النساء رهن اشارته لتلبية رغبته ؟ ! كلها هواجس لم تمنحنى المناسبة الحزينة فرصة التأمل فيها ! فلم أكن أتصور حياتى بدون هالة لدرجة أننى استمتعت بخاطر مجنون أكد لى أنها ستعود لزيارتى وصداقتى كما كانت تماما برغم كل ما حدث ؟ !

لكنها لم تعد وعادت الحياة سيرتها الأولى ! لكن أشرف هذه المرة أغرقنى بوابل من الحنان والرقة المتناهية ! لم يعد يطمع فى جسدى بقدر ما أصبح يتمنى صحبتى لدرجة أنه اصطحبنى فى سيارته عدة مرات الى أطراف صحراء مصر الجديدة لنشاهد غروب الشمس ، ولنناقش كل شئ دون أن يلمس يدى ! سعدت بهذا التحول الذى ظننت أننى كنت السبب فيه بارادتى وترويضى إياه ! بل إنه اعترف لى من تلقاء نفسه بأكذوبة ابنة عمه التى لا وجود لها ، وندمه الذى كاد أن يقتله كمدا نتيجة لهذا الخداع الذى لم يستطع أن يتراجع عنه إلا بعد مواجهة عنيفة مع نفسه ، قرر بعدها أن يفاتحنى بكل شئ ، وسوف يرضى بحكمى عليه حتى لو كان طرده من جنتى ! أما اذا كان الحكم بالبراءة فسوف يتقدم لأبى لطلب يدى بمجرد الإنتهاء من بعض أعمال الشركة التى تستدعى وجوده الى ساعة متأخرة فى الليل ، والتى لن تستغرق أكثر من أسبوع إن لم يكن أقل !

صارحته بأننى لم أصدق حكاية ابنة عمه التى كان اسمها مى ثم أصبح بقدرة قادر ماجدة ! ضحك خجلا ضاعف من حمرة بشرته لكننى أكدت له أن سر تمسكى به أننى أحبه بالفعل ، وأننى أتقبل الناس كما هم وليس كما أريد أن يكونوا ، وأن مجرد اعترافه لى بهذه الأكاذيب من تلقاء نفسه لهو أكبر دليل على أنه سار أخيرا على طريق الحب الصادق النقى الحقيقى !

● ● ● ● ● ● ●

أخيرا ظهرت مها فى الشرفة وهى تتثاءب وتفرك عينيها ، فحسدتها على هدوء بالها . عاتبتنى لجلوسى فى الظلام والبرد ، وجذبتنى الى غرفتها الصغيرة ، وهى تلومنى على إصرارى على عدم ايقاظها . جلست على حافة فراشها بقميص نومها الليمونى فى حين جلست على مقعد مكتبها الصغير الذى تراصت عليه عشرات الكتب التى تمنت كثيرا أن تضعها فى مكتبة خاصة بها لكن الظروف لم تسمح . سألتنى عن عودة العاشق الضال وعن مدى صدق توبته ، وكأنها بسؤالها هذا رفعت الغطاء عن فوهة مرجل البخار المكبوت داخلى ، والذى تصاعد من فمى ولسانى وحلقى مع حب الإستطلاع من عينيها :

ـ تصورى يا مها . . كل ما ظننته سوء ظن من ناحيتك تجاه أشرف كان أفضل تقدير للأمور برغم أنك لم تتعاملى معه وجها لوجه !

ـ كما قلت لك يا منى . . سوء الظن فى زماننا هذا أكثر أمنا وضمانا من حسن الظن . . خاصة اذا لم يكن فى أهل الثقة . . هيه . . قولى ماذا جرى ؟ ! يبدو أن فى جعبتك الكثير هذه الليلة ؟ !

ـ لا أزال لا أصدق ما جرى أمس على وجه التحديد !! ومع ذلك جرى !!

ـ كفاك تشويقا واثارة . . أدخلى الى الموضوع !

ـ مساء أول أمس اصطحبنى أشرف فى سيارته كالعادة لنشاهد غروب الشمس عند أطراف الصحراء . . وهناك فتح

علبه من القطيفة الحمراء بها خاتم ماسى له وميض كالمصباح الصغير ، ثم فتح علبة أخرى بها ساعة ذهبية دقيقة وأسورة مرصعة بالعقيق والمرجان . . وطلب رأيى فيهما لأنهما شبكتى التى سيتقدم بها عند خطبتى رسميا بالإضافة الى الدبلتين بالطبع ! دمعت عيناى ولم أجد كلمات مناسبة سوى أن قبلته فى وجنته امتنانا وشكرا ، فدمعت عيناه أيضا وهو يؤكد أنه لو استطاع أن يقدم لى عمره كله كهدية لفعل . . ولم يحاول أن يحتضننى أو يقبلنى كما اعتاد أن يفعل قبل خصامنا الأخير . . بل حدثنى عن عش المستقبل السعيد الذى أوشك أن يتم تجهيزه بأجمل الأثاث والديكور ، لكنه يتمنى أن يجد من يشرف على العمال فى أثناء غيابه فى الشركة لبعض الأعمال التى تستدعى وجوده الى ساعة متأخرة من الليل . . والتى كنت واثقة منها بنفسى . . وذلك خوفا من أن يتسببوا فى أية خسائر أو تلفيات أو مفقودات خاصة وأن الشقة زاخرة بالأشياء الثمينة . . وفى الوقت نفسه لا يريد أن يعطلهم حتى يكسب وقتا ثمينا وحتى لا يشقى مرة أخرى فى البحث عنهم فى وقت هاجر فيه كل العمال والصناع المهرة الى الدول العربية حيث البترول والثراء والأجور العالية !!

صمت ليرى أثر كلامه على وجهى ثم أضاف بأن كل أمله أن يحوز ثقتى بعد أن فرط فيها بنزقه وطيشه ! أحكم حولى الحصار الحرج فلم أملك سوى أن أعرض عليه الذهاب بنفسى للإشراف على العمال فى غيابه على أن أصطحبك معى . فلم يمانع على الإطلاق ، وأخرج فى الحال من جيبه نسخة من مفتاح

الشقة وأخبرنى أن العمال لا يأتون قبل الخامسة ولا يتأخرون عن التاسعة . . وكل ما يطلب منى أن أعد لهم الشاى من حين لآخر . . وعدنا أدراجنا دون أن يقبلنى مجرد قبلة واحدة . . وكانت كلماته لأول مرة تنضح بالصدق ، وهو يتمنى ألا تنفصل ثقتى فيه عن ثقتى فى نفسى طالما أننا سنتزوج وسنصبح كيانا واحداً !! وبالفعل كنت على وشك أن أستعين بك فى هذه المهمة المثيرة لولا ما حدث بالأمس !

ثنت مها ساقها اليسرى تحت ساقها اليمنى فى جلستها على حافة الفراش ، فى حين ومضت عيناها اللتان تشعان بسحر اليابان من فتحتيها الطويلتين الضيقتين . مسحت شعرها القصير بيد مشدودة بعض الشئ :

ـ قصتك ليست فى حاجة الى المزيد من التشويق !!

ـ لم أتردد فى أخذ المفتاح . . لكننى أجلت قرار الذهاب الى الشقة الى ما بعد استشارتك . . وصباح أمس ذهبت الى عملى بعد أن قضيت معظم الليل فى التفكير وتقليب الأمور على كل وجوهها المحتملة . . ويبدو أن عبد الرحمن بك قد لاحظ الإرهاق على وجهى وهو يحيينى تحية الصباح فى طريقه الى مكتبه ، اذ بمجرد دخوله ضغط الجرس فهرعت اليه وأنا أرسم على وجهى ابتسامة حاولت أن تكون نضرة قدر الإمكان . سألنى :

ـ مالك ؟ !

ـ لا شئ يا فندم !

واذا به يفجر قنبلته بلا تمهيد :
ـ أشرف ؟ !
قاومت موجة عارمة من الخوف البارد المظلم :
ـ ماذا ؟ !
ـ لم أكن أتصور أن تصبحى أنت بالذات لعبته التالية !
خرج صوت من فمى لم أسمع مثله من قبل :
ـ لا أفهم شيئا !
ـ لم أعرف عنك سوى الصراحة .. على كل حال لا يهم .. هل تعرفين ابتسام السكرتيرة التى كانت تجلس مكانك ؟ !
ـ لا أعرفها .. وسيادتك تعلم هذا جيدا !
ـ أشرف .. كان البداية والنهاية .. البداية فى هذا المكتب .. والنهاية فى شقته .. وبعدها تركت العمل .. حاولت مطاردته لكنها لم تفلح .. أكد لها أن المتعة كانت الرباط الوحيد بينهما .. وطالما أنها استمتعت مثله فلا التزام عليه قبلها .. لم تستطع مواصلة العمل بل ومواصلة العيش فى مصر، فهاجرت الى احدى الدول العربية فى نفس الوقت الذى سعت فيه المرحومة هالة لتوظيفك هنا .. وأنت تعلمين كم كنت سعيدا بك وبكفاءتك التى شهد لها الجميع .. لكننى لم أكن أتصور أن تكررى مأساة ابتسام !! فأنت جادة ومحترمة ولست لعوبا مثلها !
دارت الدنيا بى ، ومادت الأرض من تحت قدمى ومع ذلك تماسكت :

ـ ولماذا تقص سيادتك عليّ مثل هذه القصة ؟ !

أشاح بوجهه بعيدا فى ضيق لم أعهده فيه من قبل :

ـ ولم أعرف أيضا أنك أجدت اللف والدوران ؟ ! لكن ما رأيك فى الأنباء التى أتتنى من بعض زملائك ، والتى أكدت مشاهدتهم لك معه فى سيارته التى كانت منطلقة الى ميدان تريومف حيث يسكن ؟ !

ـ كذبة !! كذبة !! إنهم يريدون الدس بينى وبين سيادتك !!

ثم انهرت باكية على المقعد أمامه ، فمسح صلعته فى عصبية متزايدة :

ـ إننى يا بنتى لست بصدد تكذيب هذا وتصديق ذاك . . وانما خوفى وحرصى عليك هو الذى دفعنى الى مصارحتك !

تاهت الأفكار ومع ذلك خرجت الكلمات :

ـ واذا كان بهذه الأخلاق البشعة . . فلماذا تعامله سيادتك بمنتهى التقدير والإحترام ؟ !

ـ عظيم . . هكذا نستطيع الحوار الجاد المثمر . . أولا . . لا أحد ينكر كفاءته كمهندس ومقاول ورجل أعمال . . ثانيا . . أنا من الناس الذين يكرهون التدخل فى الحياة الخاصة لمن يعملون معهم طالما أن هذه الحياة لا تؤثر فى كفاءتهم . . ثالثا . . وهذا هو الأهم . . فان عمه يعد من أفضل عملاء شركتنا بل وفى مقدمتهم جميعا . . ولابد أن يؤثر الإستغناء عن أشرف على هذه العلاقة الممتازة المثمرة !

لم يكن تفكيرى فى أفضل حالاته لكننى قلت بمجرد أن صمت :

ـ لكننى لم أذهب الى شقته . . ولا أعرف حتى موقعها . . فقد نشأت فى أسرة علمتنى أن العفة هى الحياة نفسها . . اذا ضاعت إحداهما ضاعت الأخرى !!

استرخى عبد الرحمن بك فى مقعده قليلا :

ـ ومع ذلك سمحت لنفسك بالركوب معه فى سيارته الخاصة ؟ !

ـ لم يجد مكانا أفضل منها كى يقف فى أحد الشوارع ويفاتحنى فى موضوع الزواج . . لكننى لم أعده إلا بالتفكير فى الموضوع واستشارة أهلى أولا !!

استرخى تماما فى مقعده :

ـ هذا تطور خطير . . فلم يحدث أن وعد أشرف أية فتاة بالزواج من قبل !! يبدو أنه لم يجدك بالسهولة التى تصورها ! وماذا سيكون ردك ؟ !

ـ لا أعرف حتى الآن . . ولا أنكر أننى خائفة !! ولذلك كنت فى حيرة وتردد : هل أطلب رأى سيادتك أم يغلبنى الحرج والخجل ؟ !

ـ أنت تعلمين جيدا أنك فى منزلة ابنتى التى لم أنجبها . . ولا أنكر أننى جاهدت كى أحميك من نفسى . . فقد وقعت من نفسى وقعا طيبا منذ أول مرة رأيتك فيها . . وقد تصاعدت مشاعرى نحوك بعد أن عرفتك أكثر . . وفكرت فى لحظة جيشان

عاطفى لا يتمشى مع سنى أن أطرح عليك فكرة الزواج . . لكننى أدركت فيها بعد أننى أظلمك بذلك . . فمثلى يمكن أن يكون لك أباً . . ولذلك قررت أن أحميك من نفسى . . وقد كنت أظن أنك فى أمان . . وأنك قادرة على أن تحمى نفسك من الآخرين !!

قاطعته بعد انقشاع الضباب أمام عينى :

ـ وأرجو أن أكون عند حسن ظنك الذى حرصت عليه دائما . . فأنا لا أزال قادرة على أن أحمى نفسى من الآخرين وفى مقدمتهم أشرف نفسه ! وأحب أن أعرف رأى سيادتك فيما يجب أن أفعله تجاه عرضه هذا ؟ !

ـ الموضوع فى غاية البساطة . . فأنا لا أحب أن أفترض فيه سوء الظن مسبقا برغم سوابقه . . وعليه اذا كان جادا شريفا هذه المرة أن يسلك الطريق المعتاد وأن يتقدم لطلب يدك من أبيك قبل أية خطوة أخرى !! لا أن يصطحبك فى سيارته جلبا للقيل والقال !!

ـ ولا أخفى على سيادتك . . فهذا ما كنت أنوى القيام به فعلا برغم حيرتى وخوفى وترددى !!

ـ لا تترددى يا ابنتى . . فلا خوف من السير فى طريق النور حيث كل الأشياء واضحة محددة . . ومن يعلم ؟ ! ربما تاب الله عليه أخيرا بعد أن رأى صورته التى تتشوه يوما بعد يوم فأراد أن ينقذ ما تبقى من ملامحها القديمة ! والآن أريدك أن تغسلى وجهك . . فلا أحب منظر الدموع الجافة على وجنتيك !

نهضت وراحة نفسية عميقة تسرى فى عروقى المشدودة وتنبئ بسعادة غامضة لا أدرك كنهها :

ـ أفضال سيادتك تكاد تغرقنى حتى رأسى . . أتمنى من الله أن يمكننى من رد واحد على الألف منها !!

ـ لا فضل لإنسان على إنسان ! وانما الفضل فضل الله عندما يحمى الخير من مناورات الشر . . وحتى تستمر الأرض صالحة لسكنى الناس الطيبين !

شعر بأننى على وشك الكلام فقال :

ـ لا تخفى شيئا عن أبيك ؟ !

ـ هل كنت سيادتك تعلم شيئا من قبل عن معرفتى بأشرف ؟ !

ـ هذا موضوع فات أوان الكلام فيه ! فالمستقبل هو قضيتك الآن !

ـ ولماذا لم ينصحنى من أخبر سيادتك . . بالإبتعاد عن أشرف ؟ !

ابتسم فى بعض الحرج ثم قال :

ـ لعلك تعلمين أن هناك من يتمنى أن يحل مكانك منذ مجيئك الى هنا !

اجتاحتنى رغبة دافئة لتقبيله لكننى انحنيت اجلالا وتمتمت وأنا أتراجع :

ـ حفظك الله لنا . . حفظك الله لنا !

خرجت وحاولت الإتصال بك يا مها لكن تليفونك كان مشغولا ! كنت أجلس فى مكتبى على أحر من جمر بين الرغبة فى الإتصال بك وبين اللهفة على تحديد ميعاد عاجل مع أشرف للمواجهة الحاسمة !! ولم تنطفئ جمرات وجدانى المشتعل إلا بمجئ أشرف بابتسامته المعهودة للقاء عبد الرحمن بك ، فانتهزت الفرصة وطلبت منه ميعادا للقاء فى المساء ، دهش لأنه كان البادئ كل مرة بتحديد الميعاد ! خاصة وأنه كان مرتبطا بأعمال الشركة فى المساء ، فى حين كان المفروض علىّ أن أتوجه الى شقته للإشراف على عمال الطلاء والديكور ! حاول الإستفسار ثم التملص لكنه رضخ مع اصرارى على لقاء لمدة نصف ساعة فقط لا أكثر ! كان رضوخه مشوبا بالقلق لأول مرة ، وهو القلق الذى تجسد على وجهه عند خروجه من مكتب عبد الرحمن بك محاولا تأمل نظراتى ! وقراءتها !!

لم تملك مها سوى أن تلهث بالشوق لمعرفة ما جرى :

ـ كنت أفكر فى تجهيز كوبين من الشاى مع بعض الكيك !! لكن لن أقدم لك الشاى والكيك إلا بعد أن أعرف كل

التفاصيل !!

ضحكت من قلبى ضحكات لم أعرفها منذ أمد طويل ، وشاركتنى فيها مها فى جلستها المتحفزة على حافة الفراش . لم أشأ أن أشوقها أكثر من هذا ، فأنا أدرى بلسانها :

ـ وجدت أشرف فى انتظارى بسيارته فى ميدان صلاح الدين كالعادة . . لم يتخل عنه القلق لدرجة أنه لم يلحظ أناقتى التى كانت فى قمتها . . بل بادرنى بالسؤال عن السر فى هذا اللقاء الطارئ ، فرجوته تأجيل الحديث فى أثناء القيادة ، مما ضاعف من توتره الذى انعكس على انطلاقه المجنون بالسيارة بين المارة والسيارات حتى بلغ مشارف الصحراء حيث اعتدنا الوقوف . لم يكن قد حان ميعاد الغروب بعد اذ افترشت الأشعة الذهبية الرمال بوهج مبهر برغم حنوها ! دون أن ينظر الىّ كرر السؤال :

ـ لم أعرف بعد السر فى اصرارك على هذا الميعاد المفاجئ ؟ !

ابتسمت وقد بلغت ارادتى قمتها حتى تصورت نفسى مها الهزاز :

ـ وهل أصبحت تكره لقائى خاصة اذا كان مفاجئا ؟ !

لم تغادر عيناه خط الأفق الذى تنطبق عنده الزرقة على الصفرة :

ـ لا أقصد . . ولكن أردت فقط أن أعرف السبب ؟ ! أليس من حقى ؟ !

ـ من حقك طبعا . . وفى الحقيقة كل ما أردته هو أن أسألك سؤالا واحداً أعتقد أنك الوحيد القادر على اجابته !!

ـ وهل يستدعى هذا السؤال كل هـذا التخطيط والتشويق ؟ !

جرى على مسافة بعيدة حيوان صغير يشبه ابن آوى سرعان ما اختفى فى أحد الجحور . أجبته :

ـ كان لابد من جلسة بعيدة عن ضوضاء العمل . . كما أنه لا يحتمل التأجيل !

دق على عجلة القيادة بعصبية لم أعهدها فيه من قبل :

ـ إنك بهذا تضيعين الوقت الذى لابد أن أمضيه فى مكتبى هذا المساء ؟ !

ـ وأنا حريصة على مصلحة العمل مثلك تماما . . كل ما أردته أن أعرف السر فى عدم زواجك من ابتسام برغم الحب العميق الذى كان بينكما !! والذى كان حديث الشركة كلها قبل أن أعين بها ؟ !

التفت الىّ فى عصبية انتفضت على أثرها إحدى خصلاته الناعمة على بياض جبهته :

ـ من هى ابتسام هذه ؟ ! ماذا تقصدين بالضبط ؟ !

ـ تسألنى كما لو كنت أنا التى أعرفها ؟ ! أنت تعرف قصدى بالضبط !!

ـ يبدو أنك على استعداد لتصديق أية أكاذيب مغرضة عنى ؟ ! لن أعيش عمرى لأدافع عن نفسى ضد شكوكك

المتصلة !!

ـ للأسف .. فهى ليست شكوكا !!

ـ عموما .. ليس لك أن تحاسبينى عن حياتى الماضية .. فهى ملكى أنا وحدى !

ـ هذا صحيح .. لكن الإنسان لا يغير جلده بين يوم وليلة !! فالحاضر فى أغلب الأحيان امتداد طبيعى للماضى !!

تقلصت ملامحه فبدا وجهه قبيحا كأنه وجه آخر :

ـ اذا كنت تظنين أن من حقك محاكمتى .. فأنت مخطئة تماما !!

أدار محرك السيارة واستدار فى طريق العودة . سألته :

ـ الى أين .. ؟ !

ـ الى مكتبى !! فلن أضيع وقتى فى مثل هذا الكلام الفارغ !!

انطلق بالسيارة بالجنون نفسه الذى أتى به فلم أصمت :

ـ لم أعهد فيك من قبل هذا الميل للهروب من مواجهة المواقف !!

ـ آن الأوان لتعرفى حدودك معى ! ومع ذلك أستحق كل ما جرى لى بعد أن تركت لك الحبل على الغارب !!

برغم ضجيج العجلات الحديدية للمترو المنطلق الى جوارنا ، صحت فيه :

ـ أنت الذى لم تعرف حدودك معى !! لأننى وثقت بك وسمحت لك .. فظننتنى احدى ضحاياك !!

- يجب أن تعرف قدر نفسك . . فأنت مجرد سكرتيرة قادمة من أسرة متواضعة بمؤهل متوسط !!

لم أدر إلا وأنا أقبض على يده المتشبثة بعجلة القيادة التى اهتزت بعنف لدرجة أن السيارة كانت على وشك الإصطدام بسيارة أخرى انطلقت منها شتائم واتهامات بالعمى والغباء ، لكننى صرخت :

- قف هنا . . وإلا ألقيت بنفسى فى الطريق !!

وفتحت الباب فعلا ، فأسرع فى رعب شديد ليقف بحذاء الطوار صائحا :

- ما هذا الذى فعلته يا مجنونة ؟ !

لم أرد . تركت السيارة فى حين أخرجت من حقيبتى مفتاح شقته وألقيت به فى وجهه المذهول :

- امنحه لامرأة أخرى على استعداد للإشراف على عمالك يا باشمهندس !!

ثم سرت على الطوار لا ألوى على شئ ، فى حين ظل واقفا بسيارته دون أن يوقف المحرك . أشرت لتاكسى أقلنى الى هنا لكننى لم أجدك . عدت الى بيتى لكن النار المتأججة داخلى دفعتنى الى العودة اليك حوالى الثامنة ، وظللت مع أمك حتى التاسعة والنصف لكنك لم تعودى ! كان بعض من برد الراحة قد سرى فى عروقى الملتهبة فعدت أدراجى الى البيت كى أتأمل ما جرى لى فى انتظار لقائك اليوم . سألتها :

ـ أين كنت طوال مساء أمس ؟ ! إنك لا تفتحين لى صدرك فى حين أقص عليك كل مغامراتى بالتفاصيل المملة ؟ !

حاولت مها افتعال ابتسامة مسترخية :

ـ بعد مغامراتك المثيرة . . كل القصص تبدو مملة وسقيمة !

غمرتنى أمواج مسترخية من الراحة السارية فى عروقى المشدودة بعد أن أفرغت شحنتها بين يدى مها التى سألتنى بعد لحظة تأمل :

ـ هل كان هذا قرارك النهائى ؟ !

ـ تبقى شئ واحد فقط أريد أو أتمنى أن أعرفه : هل كان صادقا عندما طلب منى الذهاب للإشراف على العمال فى شقته ؟ !

ـ عجيب أمرك يا منى ! عين فى الجنة وعين فى النار ؟ ! بعد كل هذه الإهانات التى كشفت عنجهيته وتعاليه وتكبره . . تريدين أن تتأكدى من صدقه ؟ ! فليذهب الى الجحيم هو وصدقه !!

ـ لا أخفى عليك . . فإننى خائفة من الفراغ الذى سيتركه فى حياتى !!

ـ كان المفروض عليك أن تحسمى أمرك بنفسك منذ أمد بعيد . . قبل أن يدفعك اليه عبد الرحمن بك أو أنا !!

ـ كنت أريد التأكد من حقيقة مشاعره !!

ـ أنا التى لم أتعامل معه . . تنبأت لك بنهاية مماثلة !! كانت كل تحركاته ومناوراته تدل على أنه شاب من إياهم ! أنسيت

قصة ابنة عمه الساذجة السخيفة ؟ ! كنت تعللين نفسك بالأمل فى الزواج من شاب ثرى وسيم مثله . . واستطاع هو أن يربط عنقك بحبل هذا الأمل الكاذب ! الزواج يا منى فى مجتمعنا صفقة لابد أن تعقد بين أنداد !

ـ ألم أكن نداً له ؟ !

ـ لا تخدعى نفسك أكثر من هذا ! هل كنت نداً له على المستوى الإجتماعى والإقتصادى ؟ ! إن زواج المصرية من أجنبى قادم من أوروبا أو آسيا أو أمريكا ولا يمت اليها بصلة من قريب أو بعيد . . قد يكون أسهل وأنجح من زواجها من مصرى لا ينتمى الى طبقتها الإجتماعية !

ـ عندك حق . . والدليل على ذلك زواج هالة ولطفى ! !

ـ وإن كان الموقف معكوسا . . إن شابا مثل أشرف يفضل الإرتباط بزوجة من طبقته حتى لو خانته مع آخر . . على الزواج من واحدة مثلك قد تقضى العمر كله عند قدميه !

ـ بالمناسبة . . نسيت أن أسألك عما تم فى موضوع لطفى ؟ !

أرخت مها جفونها فى حزن غريب غامض :

ـ تم القبض عليه فعلا مع صاحب الورشة فى شقته وهما يدخنان الحشيش ويشاهدان الأفلام اياها !

ـ وهيام ؟ !

ـ لحسن حظها لم تكن موجودة . . ولم يثبت عليها ما يدينها ! !

ـ لكنك لا تبدين سعيدة بهذه الخطوة ؟ ! هل أصابك الإحساس بالذنب . . وأنت التى كنت تتمنين الإعدام للطفى ؟ !

حاولت مها ازاحة غلالة الحزن الغريب الغامض بابتسامة شاحبة :

ـ لم أظلم لطفى حتى أحس بالذنب . . كل ما فعلته أننى سعيت لتطويل ذراع القانون حتى يقع تحت طائلته !

أدركت خداع مشاعرى كالعادة فحاولت تغيير مجرى الحوار :

ـ وأنت يا مها . . ألم تفكرى فى الحب أو الزواج بعد ؟ !

عبرت سحابة من التجهم وجهها الجميل ذا التقاطيع اليابانية الدقيقة :

ـ يبدو أننا فى زمن مات فيه الحب ؟ !

ـ لكن الزواج أمر لا مفر منه !! لم تولد بعد الفتاة التى يمكن أن تعيش بدونه !! إنه الهدف والملجأ الأخير !

ـ واذا لم يأت الزواج ! هل كتب علينا أن نلهث خلفه حتى لو تنازلنا عن كرامتنا بل وانسانيتنا ؟ !

ـ وهل لديك بديل آخر ؟ !

ـ سيأتى اليوم الذى يمكن فيه للفتاة أن تعيش بمفردها اذا لم تجد الرجل المناسب !! اليوم الذى سينظر فيه الناس اليها بنفس البساطة التى ينظرون بها الى الشاب الأعزب أو المضرب عن الزواج . . ولن يمسها أحد بكلمة !

- وهل تنوين أن تكونى رائدة فى هذا المجال ؟ !
- لا أعرف ما سوف يأتى به المستقبل . . لكننى متأكدة من أننى لن أتنازل عن كرامتى وكبريائى وكيانى من أجل أى رجل ! مهما كان هذا الرجل ! فكلها أشياء اذا تنازلت عنها مرة واحدة فقد يصعب عليك الإحتفاظ بها بعد ذلك !!
- هل تقصدين يا مها موقفى من أشرف ؟ !
- لا أقصدك أنت بالذات . . يكفى الدرس الذى تلقاه على يديك !!

ساد سكون جياش بالمشاعر . كنت على وشك أن أعبر لها عن مخاوفى من أن يحاول أشرف أن يفضحنى بأن يقص على كل من هب ودب ما جرى بيننا من لمسات وأحضان وقبل على سبيل الإنتقام منى ، لكننى كبحت جماح نفسى لأن مها نفسها لم تكن تعلم شيئا عن المدى الذى بلغته علاقتنا ، كما أننى قررت فى نفس اللحظة أن مصيرى سيكون بيدى ، وسأثبت للجميع أن هذا « الأشرف » مجرد مهندس فى الشركة مثل باقى العاملين ، وسأعرف كيف أوقفه عند حده لو حاول لسانه أن يلقى بكلمات هنا أو كلمات هناك ؛ كذلك تؤكد علاقته السابقة بابتسام طبيعته التى تميل الى التحفظ والكتمان !!

تركت مها حافة فراشها فى طريقها الى باب الغرفة وابتسامة حانية على وجهها الحبيب .
- والآن . . حان ميعاد الشاى والكيك بعد هذه الجلسة المثيرة !

خرجت لتتركنى وحدى مع تأملاتى الهادئة التى حلت محل الخواطر الهائجة والهواجس المتلاطمة ، وإن لم يخل الأمر من خوف غامض من أن يأتى اليوم الذى أجد فيه نفسى عاجزة عن الحصول على زوج ، فقطار الحياة لا يتوقف لمن لا يلحق به !

حاولت الاسترخاء فى مقعدى أمام مكتب مها الذى علقت فوقه على الجدار لوحة صغيرة لا أعرف السر فى اعجاب مها بها : صورة صخرة بارزة وسط أمواج المحيط التى تضربها فى عنف ، لكن قممها تتحول الى رذاذ غزير متناثر هنا وهناك ! ولا يتبقى منه سوى الزبد !!

الحركة الثالثة

مها الهزاز

هل عاد عصر أكلة لحوم البشر ولكن فى شكل جديد ؟ ! وها أنذا أجلس الى مكتبى بين كتبى الحبيبة التى كثيرا ما لجأت اليها كلما تأزمت بى الأحوال ، فترشدنى أو تخفف عنى أو تشغلنى بقضية أعم وأشمل من الأزمة التى أمر بها . لكن يبدو أن وطأة الأزمة الحالية أشد وأثقل من أن تخفف منها القراءة التى لن توقف شرودى وشتات أفكارى وهواجسى عند حد معين . فالقراءة شحنة فكرية وثقافية رقيقة ، ولن تتمكن من طرد الشحنة المتفجرة الراسخة داخلى والتى تحتاج الى تفريغ قبل أن تدمرنى أشلاء متناثرة ! لا يمكن أن تتصور منى أن صديقة عمرها أمها القوية الصلبة الصامدة تعانى من كل هذه الآلام ! صحيح أننى أثبت كيانى الراسخ فى وجه الأعاصير التى هبت على حياتى فى الفترة الأخيرة تريد أن تقتلعنى من جذورى ، لكننى فى النهاية بشر ، ولابد أن شظايا المعركة قد أصابتنى بشظايا وجروح لن تلتئم قبل مضى بعض الوقت !

هذه الليلة الحارة الرطبة ، كيف أقضيها ؟ ! لن يزور النوم جفونى برغم أننى لم أنم كالمعتاد فى فترة الظهيرة ! الحاسة السادسة عند أمى تؤكد لها أن شيئا غير عادى وغير طبيعى قد وقع ، ولذلك فهى تطرق الباب من حين لآخر بحجة تقديم كوب من الشاى أو السؤال عن شئ لا لزوم له أو لا أعرف عنه شيئا ، وفى أثناء الحوار المقتضب تحاول قراءة عينى ثم تتساءل عما اذا كنت مرهقة أو متوعكة ، فأتظاهر بالإبتسامة والسخرية من هواجسها التى لا مبرر لها ، وأطالبها بالذهاب الى فراشها للراحة

والنوم خوفا على قلبها الضعيف من الإجهاد والسهر ! فتخرج متباطئة ، وقلق عينيها الحائرتين لا يفارق وجهى برغم أنها اعتادت أن أسهر بعض الليالى حتى ساعة متأخرة لأنجز بعض أعمال الشركة ، وبرغم أننى تظاهرت هذه الليلة بوضع دفتر وبعض الكشوف أمامى على المكتب !

كلما فكرت فى انتقاء كتاب من هرم الكتب المتراكمة على مكتبى لعله يخرجنى من دوامة الأفكار والآلام والهواجس التى دارت بى هذا الصباح تحاول أن تجذبنى الى بؤرة قاعها ، ماتت الرغبة تحت تيارات الطوفان المتدفق من أعماقى ! لكن السؤال الذى تراقص على الجدار الأبيض أمامى أوحى الىّ بشئ قد مر بذهنى منذ سنوات ، وكنت قد صارحت به منى على سبيل الدعابة ! كان السؤال : اذا لم تفلح القراءة فى امتصاص الشحنة المتفجرة ، فهل تنجح الكتابة ؟ ! وكان الشئ : هل أستطيع فى يوم من الأيام أن أكتب كتابا أو رواية أو مسرحية أغير بها أفكار بنات جيلى حتى يتخلصن من سلاسل عصر الحريم الصدئة الثقيلة التى لا تزال تشد أقدامهن الى صخور الماضى ؟ ! لماذا لا أجرب الآن ؟ ! هل هناك أفضل من تجربتى الحية الساخنة كى أقدمها لهن ؟ ! لقد أثبتت خطب الوعظ والإرشاد والنصح عقمها عبر التاريخ ، وإلا كان البشر قد تحولوا الى ملائكة لكثرة ما قيل ! فنفس الأخطاء تتكرر ، والخطايا ترتكب ، والوعاظ مصرون على مواصلة مهمتهم أما التجربة الحية فحياة ذات أبعاد انسانية متكاملة لابد أن تحتوى كل من يقرأها ! وهذه الشحنة

التى لم أعد أحتملها ، لابد أن تخرج لتقتسمها معى كل من تقرأها ، حتى يخف الحمل الذى يبهظ فكرى ووجدانى ! وحتى اذا لم تجد قارئة واحدة ، فيكفى تفريغها على الورق !

صفحات الدفتر أمامى بيضاء ناصعة لم تلطخها كلمة أو يسودها حرف ! دفتر من دفاتر الشركة التى نستخدمها فى تسجيل اليوميات ، فلماذا لا أستخدمه الآن فى رصد تجربة حياتى حتى أتحسس معالم الطريق ؟ ! كيف بدأت ثم واصلت والى أية مرحلة وصلت أو انتهيت ؟ ! تدفقت أمواج الشحنة فى خلايا مخى وزوايا وجدانى وأوشكت أن تتساقط قطرات من سن القلم الذى أمسكت به ! لكن كيف أبدأ ؟ ! ومن أين ؟ ! هل البحث عن نقطة البداية صعب ومحير الى هذا الحد ؟ ! هل أبدأ من سنى طفولتى ؟ ! أم من عام التحاقى بكلية التجارة بالجامعة ؟ ! أم من لحظة حاسمة غيرت مجرى حياتى ووضعتنى فجأة وجها لوجه أمام مسئولياتى فى وقت كانت المسئولية الوحيدة الملقاة على عاتق زميلاتى هى التفوق فى دروسهن أو مجرد مواصلة الإستذكار على أسوأ الفروض ؟ ! نعم . . لابد من البحث عن هذه اللحظة الحاسمة ! لكن هل توجد لحظة أشد وطأة وأكثر حسما من اللحظة التى هجر فيها أبى البيت ليتزوج من فتاة تكبرنى قليلا ، وليتركنى أحمل مسئولية البيت كله بحكم أننى كبرى أخوتى ؟ !

أمسكت بالقلم بأصابع حديدية وشرعت فى الكتابة دون خطة مسبقة محددة . سأسلس قيادى لطوفان أفكارى ومشاعرى ليتدفق حيثما يشق مجراه حتى تنتقل سخونة التجربة الى نبض

الحروف وخفقات الكلمات . لا يهمنى فى هذا ، الصورة التى سيصل اليها ما أكتب : هل هو رواية ؟ ! أم سيرة ذاتية ؟ ! أم دراسة تحليلية ؟ ! أم مأساة واقعية ؟ ! أم أنه مزيج من كل هذه الصور والعناصر ؟ ! المهم تفريغ الشحنة مع مداد القلم على الصفحات البيضاء الناصعة ! ترددت قليلا لكن السد انهار من تلقاء نفسه وجرى القلم بما جرى !

● ● ● ● ● ● ● ●

أنا أنتمى الى أسرة متوسطة تقع فى المنطقة المحايدة بين طبقة هالة وطبقة منى . وكان أبى يعمل مديرا للشئون المالية فى مجلس حى مصر الجديدة ، لكنه كان دائم النقمة على وظيفته التى لا تناسب طموحه . ولم يكن يفرق بين النقمة والطموح خاصة بعد أن أصبح أخوه الأصغر الذى لم يكمل تعليمه الثانوى من طبقة الأثرياء التى طفت فجأة على سطح المجتمع فى عهد الإنفتاح الإقتصادى دون أسباب واضحة أو لأسباب مريبة ! وكان أبى الوحيد الذى أكمل تعليمه الجامعى فى أسرته ليحصل على بكالوريوس التجارة ويصبح محط الأنظار المعجبة أو الحاسدة ! وكان شديد الإعتزاز بمكانته فى الأسرة ، وبوظيفته فى الحكومة . وكثيرا ما كان أخوه الأصغر يلجأ اليه راجيا المساعدة المادية أو الأدبية ، فلا يلقى منه سوى مساعدة لا تذكر ، وتأنيبا وتقريعا ولوما على فشله فى إكمال دراسته والسير على نهجه . فقد كان أبى يعتبر نفسه المثل الأعلى لكل من حوله سواء رضوا أو أبوا ! وفى أعقاب حرب أكتوبر تمت ترقيته الى مدير الشئون المالية فى

رياسة حى مصر الجديدة وبدأ يتطلع الى حلمه الأثير فى أن يصبح يوما رئيسا للحى كله !

لكن عاطفته تجاه أمى وأخوتى كانت فى طريقها الى النضوب يوما بعد يوم ! لم تكن متدفقة فى يوم من الأيام ، وظل مجراها يضيق حتى لم نلق منه سوى النقمة واللعنة مع بداية عهد الإنفتاح الإقتصادى والثروات الخيالية فى بلد لا يزال يعانى من الفقر والجهل فى أبشع صورهما ! فجأة أصبح عمى الفاشل فى دراسته وحياته ، والصبى فى ورش وكالة البلح وشون روض الفرج مليونيرا فى غمضة عين ، وصاحب شركتين : إحداهما للإستيراد والتصدير ، والأخرى لتقسيم الأراضى ، كما كان يتاجر فى العملات الصعبة ! هنا تحول زلزال أبى الى بركان سرعان ما انفجر فينا كلنا ! بحمم ملتهبة من السخرية المريرة من ذلك الزمن الأغبر الذى وضعه فى نهاية الصف اقتصاديا واجتماعيا بعد أن كان يسعى حثيثا لبلوغ أوله !

كنت فى تلك الفترة قد التحقت بكلية التجارة وكلى اصرار على التفوق الدراسى برغم كل الصعاب والمعوقات . كانت الأسعار قد تضاعفت ثلاث أو أربع مرات ، وتضاعف معها تقتير أبى علينا لدرجة أننا لم نعد نتذوق اللحم سوى مرتين أو ثلاث فى الشهر . وكنت بالطبع عاجزة عن اقتناء أية ملابس تناسب المظهر اللائق لطالبة جامعية ، ولذلك كانت سعادتى بالبنطلون الجينز الذى أملكه لا توصف ، بعد أن علمت من زميلاتى أنه كلما ازداد قدما وحال لونه ، تضاعفت قيمته

وأناقته . وزاملنى البنطلون ثلاث سنوات متتابعة ، لم يترك فيها ساقى كلما خطوت الى الشارع ، وقد جنبنى مظهر الحاجة الملحة !

أردت التفوق وحققته بالفعل . لم أتنازل عن تقدير جيد جدا طوال السنوات الثلاث ، وتوهج أملى فى أن أعين معيدة بعد تخرجى ، وأواصل شق طريقى حتى أصبح الدكتورة مها الهزاز . استطعت أن اتخذ من كل متاعب البيت وآلامه حافزا قويا ومتصلا للتفوق . فقد علمتنى الكتب أن أتقبل الناس على ما هم عليه طالما أننى عاجزة عن تغييرهم كما أريد . كنت مدركة تماما لشخصية أبى المشغول بذاته عنا ، وأمى السيدة الطيبة التى تتجسد فيها ملامح الأمهات الطيبات المغلوبات على أمرهن ، عبر رحلة زواج تناهز ربع قرن بأيامها السعيدة وأيامها التعيسة ، أنجبا فيها بنتين وولدين ، كنت أنا كبراهم . لكن الخطر البارز فى هذه الحياة المتقلبة كما وعيت واستطعت أن أدرك وأفهم ، كان أنانية الأب الذى يريد أن يدور كل من حوله فى فلكه دون أن يضحى بشئ من راحته أو من رفاهيته لأبنائه !

كانت هناك خلافات عادية بين أمى وأبى ، تهدأ أحيانا ، وتنفجر فى أحيان أخرى ، لكن حدتها كانت آخذة فى التصاعد المستمر الذى اعتبرته نتيجة طبيعية للتصاعد المرعب فى الأسعار ، والضغوط المتزايدة على الأعصاب ! ثم حدثت مفاجأة فى نهاية السنة الثالثة اعتبرناها الحبل الذى ألقى لغرقى أسرتنا ! فقد ظل أبى يبحث لمدة سنتين متواصلتين عن وظيفة من النوع

الجديد الذى هرع اليه بعض زملائه وأصدقائه ، والذى يعود على شاغله بمرتب يزيد على أربعة أو خمسة أضعاف المرتب الذى يتقاضاه بالفعل . نجح أبى فى العثور على وظيفة نائب مدير فرع أحد بنوك الإستثمار الأجنبى فى مصر الجديدة ، فقفز مرتبه الى خمسمائة جنيه فى الشهر بالإضافة الى معاشه الذى قام بتسويته فى وظيفته السابقة ! فقد لقى أخيرا تقدير الأجانب الذى افتقده عند المصريين !

دوت الفرحة المنتشية فى شقتنا المتواضعة بشارع العقبة بمصر الجديدة لأول مرة . لكن يبدو أنها كانت حلما جميلا سرعان ما استيقظنا منه ! فقد بدأ أبى يضرب على وتر شبابه الذى ضاع هدرا تحت وطأة المسئوليات المتتابعة برغم علمه وثقافته وخبرته التى لم تدر عليه سوى الملاليم ، فى حين أن أخاه الجاهل الفاشل الذى يصغره بعشر سنوات أصبح فى غمضة عين من أصحاب الملايين ! ثم كرر وأكد أن الإنسان يعيش مرة واحدة ، لو أفلتت منه فلن يمكنه تعويضها أبداً ! وأن التضحية اذا استمرت الى ما لا نهاية ، فانها تصبح ضربا من العبث والسخف والإنتحار ، وأن المسئولية يجب أن تتوزع بالعدل حتى لا يحملها واحد فقط قد تطحنه فى النهاية ، وأن الأسرة نظام فاشل لأن المسئولية فيه تشغل مكان المتعة وتلغيها تماما ، وأن القطار لا يمكن أن يفوت من يصر على اللحاق به ، حتى لو بالعربة الأخيرة قبل غروب الشمس !

ثم بدت عليه مظاهر التأنق المبالغ فيه : الحلل الأنيقة المستوردة ، وعطور الرجال المثيرة للنشوة ، والشارب الكث الذى حلقه أخيرا فبدا أقل من سنه بعشرين سنة ، والشعر الذى صبغه فاختفى بياضه تحت لون بنى داكن . كنا نظنها أعراض الإنفتاح والإستثمار الذى انتظرنا ثماره بفارغ الصبر ، لكن الحاسة السادسة عند أمى أكدت لها أنها أعراض من نوع آخر ! وثبتت صحة حاستها وصدقها عندما افتعل شجاراً بلغ فيه حدودا لم تخطر ببالنا !

كان قد اعتاد التأخير فى عودته من البنك الى ما بعد السادسة مساء على أساس أن هذه البنوك تعمل من الثامنة والنصف صباحا الى الرابعة والنصف مساءً ، ثم يخرج فى حوالى السابعة والنصف ولا يعود إلا بعد أن تأوى الأسرة كلها الى الفراش . واستشعرنا بوادر الخطر مع أمى باستثناء أخى حاتم الذى يلينى فى السن مباشرة ، والذى لم يخف اعجابه بتصرفات أبى ومظهره الجديد . كانت بوادر الخطر التى نبتت على سطح ذلك الصيف الساخن قد تمثلت فى الفتات الذى يلقيه أبى من الخير العميم الذى هبط عليه فجأة ، بحيث زادت مرات الوجبات التى نتناول فيها اللحم بمعدل مرتين فى الأسبوع . أما فيما عدا هذا فالمصروف تقريبا واحد ، والبنطلون الجينز الذى لم يفارق ساقى لا يزال يؤدى مهمته دون كلل ! واحتملنا كل هذا متعللين بأنه فى حاجة لمواجهة متطلبات الوظيفة الجديدة بمسئولياتها المرتفعة من الأناقة والمظهر الراقى ! ولم نعد نراه أكثر

من ساعة فى اليوم الواحد ! وصبرت أمى على مضض بنفس أسلوبها المستكين ! برغم أنه واصل غيابه الذى أصبح يغطى اليوم كله ! كان يخرج فى الصباح ولا يعود الا بعد منتصف الليل دون أن يسمح لأمى بأن تتبادل معه كلمة واحدة عندما يجدها قابعة فى فراشها وقد أسلمت خدها لكفها فى انتظاره !

وبدأ عام الليسانس والموقف المتفجر على ما هو عليه إن لم يكن الى أسوأ ! ودعوت الله أن يؤجل الإنفجار ـ اذا كان لابد منه ـ الى ما بعد حصولى على البكالوريوس . كنت فى سنة حاسمة من عمرى ، ولا يعقل أن أفشل فيها بعد أن واصلت تقدير جيد جدا فى السنوات الثلاث السابقة ! لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ! وطول الكبت لابد أن يولد الإنفجار كما تعلمنا فى المدرسة ! كنت فى تلك الليلة التى لا تنسى ، قد آويت الى فراشى بعد الانتهاء من استذكار محاضرات اليوم وقراءة أحد المراجع ، لكن قلقا غامضا طارد طلائع النوم من جفونى حتى عاد أبى بعد دقات الساعة الواحدة التى جلجلت فى الصالة ! كان يصدر صفيرا جزلا كشاب يرفل فى حلل السعادة والحيوية ! وسمعت خطوات حذائه اللامع الأنيق صوب غرفة النوم . وهناك دار حوار لم ألتقط كلماته الأولى ، لكنه سرعان ما انفجر بكاءً ونحيبا من أمى ، ولعنات من أبى عليها وعلينا وعلى كل شئ ، وأنه لم يعد يحتمل هذا البيت الكئيب لحظة واحدة بعد أن أضاع عمره فيه دون لحظة متعة عابرة ! ثم وقع ثقيل لأقدامه ، وفتح عنيف للباب الذى انطبق خلفه كطلقة مدفع !

قضيت مع أمى ليلة باكية دامعة كئيبة أكدت لى فيها أن فى الأمر امرأة أخرى ، وأنها رضيت بالذل ، والذل لم يرض بها ! حاولت قدر امكانى أن أطيب خاطرها راجية أن تعود المياه الى مجاريها ، فما وقع ليس نهاية العالم ! إنه يقع بين أى زوجين ، والحياة الزوجية لا تخلو من متاعب ، وأننى سأزوره فى مكتبه فى اليوم التالى ولابد أنه سيعود معى الى بيته وبيتنا !

كنت أقول هذه الكلمات لأمى محاولة كبت دموعى مع خفقات قلبى الخائف ! اذ أن الأمور لم تكن تنبئ بأى خير لكننى تعلقت بالأمل حتى بزوغ الفجر فارتديت ملابسى ، وانتظرت الصباح بفارغ الصبر لأذهب اليه بحمرة عينى وهالاتها التى أحاطت بها كدوامات حول حجرين ألقيا فى بركة راكدة ! كانت أول مرة أزوره فيها فى مكتبه الجديد ، بل إننى لم أكن أعرف سوى أن البنك يقع فى شارع النزهة فواصلت السؤال عنه كالغرباء ! كانت هبات أواخر الخريف المحملة بالرمال الصفراء والأوراق الجافة المتطايرة من فروع الأشجار تلفح وجهى وتزيد من حمرة عينى حتى عثرت على البنك ، ودخلت لأجد دنيا أخرى غير تلك التى عرفتها ! المكان كله مكيف الهواء بعطره الذى فاح من العاملين والعملاء على حد سواء ! الأرض كلها مغطاة بسجاد ذى وبر بنى قصير ! كل شئ لامع ومتألق ! وجوه الرجال نضرة حليقة طافحة بالحيوية والإقبال على الحياة ! وجوه النساء تحمل بصمات ملوك المكياج فى باريس ! الأزياء ، والأحذية ، والحقائب ، والألوان ، والأصوات ، والخطوات ، والكلمات ،

كلها أنغام سارية مع الموسيقى الخفيفة الحالمة الناعمة المنبثقة من أركان غير مرئية !

دب فى قلبى خوف جديد تربع مكان رعب الليلة السابقة . سألت عن الأستاذ محمود الهزاز فصححوا معلوماتى : تقصدين محمود بك الهزاز ؟ ! أجبت بالإيجاب ، فأرشدونى فى أدب جم الى الدور الثانى ، لكن نظراتهم الى البنطلون الجينز المستهلك الناحل والبلوزة البيضاء الرقيقة الحال لم تكن تحمل نفس الأدب ، بل كانت هناك دهشة ممزوجة ببعض السخرية ! صعدت السلم الحلزونى المبطن بنفس السجاد البنى لأواصل السؤال ، فدلونى على مكتب يقع فى نهاية الممر الهادئ بجدرانه ذات الورق المشجر بفروع ذهبية . وعلى الباب قرأت بالإنجليزية : م . الهزاز ! لم يرد أحد على دقات أصابعى الوجلى ، ففتحت الباب برفق لأجد فاتنة مشعة بالألوان والعطور تجلس الى مكتب بنى أنيق ، وتنظر الىّ فى دهشة متسائلة :

- أى خدمة ؟ !

- محمود بك الهزاز موجود من فضلك ؟ !

انقلبت دهشتها الى سخرية وهى تتأمل بنطلونى ذا اللون الأزرق الحائل تحت البلوزة التى كويتها بنفسى :

- هل هناك ميعاد سابق ؟ !

- أنا مها ابنته !

امتزجت السخرية بالذهول وكأنها تريد أن تتأكد من صحة كلامى أو سلامة عقلى . انتفضت واقفة :

ـ لحظة واحدة !

فتحت بابا خلفها لتختفى وتتركنى أتأمل الغرفة التى أطبق عليها السكون الذى قد يرسل الجالس فى مقعد مريح مثل مقعدها الى النوم الهادئ المريح اللذيذ الذى حرمت منه فى الليلة السابقة . عادت لتتألق بفستانها الأصفر وشعرها الذهبى الذى ذكرنى بجدائل هالة التى كنا نعشق النظر اليها :

ـ تفضلى !

وأفسحت لى الطريق لأدخل وأواجه أبى الذى لم يخف نفس الدهشة التى لمحتها على وجوه الآخرين وان تمالك نفسه :

ـ خيرا يا مها ؟ ! ما الذى أتى بك الى هنا ؟ !

لم أعبأ بلهجته غير المرحبة ، وجلست أمامه دون دعوة لم يقدمها :

ـ شئ طبيعى أن تزور ابنة أباها الذى تحبه والذى ليس لها فى الدنيا سواه !!

تحاشى النظر الى عينى المتوسلتين وقرر اقتحام الموضوع دون مقدمات :

ـ لابد أن أمك قد قصت عليك ما حدث من وجهة نظرها . . وهى حرة تماما فى ذلك . . فلكل وجهة نظره . . لكن أحب أن أقول لك . . وأنت ناضجة بما فيه الكفاية . . إن لكل إنسان الحق فى أن يعيش الحياة التى يراها . . وأنا فى حاجة الى الإبتعاد بعض الوقت لمراجعة حساباتى بعيدا عن الحساسيات المتفجرة . . حتى لا تغرق السفينة بنا كلنا !

لم تكن حبال العاطفة والود ممتدة بيننا ، فبحثت عن كلمات تناسب الموقف فى حين فتح الباب ، ودخلت السكرتيرة المتألقة لتقدم له ملفا بأسلوب فيه كثير من الألفة الباسمة وان تظاهر أبى بالجدية العابسة ! تذكرت رأى أمى بأن فى الأمر امرأة أخرى ! كانت السكرتيرة تناهز الأربعين فى حين لم يتجاوز أبى الخمسين إلا بقليل ، وان بدا كل منهما أقل من سنه بكثير ! تشاغل أبى بتقليب أوراق الملف ، والسكرتيرة لا زالت تتفحصنى فى تراجعها الى مكتبها . قطعت حبل الصمت :

ـ حضرتك كل شئ فى هذه الحياة التى لا نستطيع مواصلتها بدونك . . لن تسمع من ماما أى اعتراض على أى شئ حتى لو قضيت الليل كله بعيدا عنا . . لكن لا تقرر الإبتعاد عنا كما تقول !

لم أشأ للدموع المتجمعة فى عينى أن تنهمر على وجنتى حتى لا أشعر بمزيد من الإذلال الذى سرى فى قلبى كالحديد المنصهر ، والذى جعلنى أتمنى ألا أمر بهذه التجربة مرة أخرى حتى لو كانت على يدى أبى الذى جاء بى الى هذه الدنيا ، والذى أخرج من درجه رزمة من الأوراق المالية وضعها أمامى :

ـ لا تظنى أننى بالأنانية التى قد تصورها أمكم عنى !! خذى هذا المبلغ لتصريف شئونكم حتى تهدأ النفوس وتعود المياه الى مجاريها !!

ـ نحن نريدك أنت !! ولا الملايين تعوضنا عنك !! كما أنه لم يكن هناك ما يستدعى كل هذا !! والشجار أمر طبيعى بين

كل زوجين !! ولذلك فنحن فى انتظارك اليوم على أحر من جمر . . سواء بعد الإنتهاء من العمل أو بعد منتصف الليل !!

ـ أية محاولة للضغط عليّ قد تأتى بعكس النتيجة المطلوبة تماما !

إذاً . . فالأمر جد وخطير وليس مجرد زوبعة فى فنجان كما تمنيت ! لكن هل الأمر بالبساطة التى يتصورها ؟ ! تلاشت هالة الأبوة من حوله فانتابتنى قوة جديدة تحت نبرات كلماتى الواضحة :

ـ لم يتخرج أحدنا بعد فى الجامعة !! وليس هناك من هو مسئول عنا سواك !! ورجاء ابنة لا يمكن أن يكون ضغطا على أبيها بأية حال من الأحوال !

نظر الى ساعة يده الفاخرة الجديدة ولم يخف ضيقه :

ـ ولذلك قدمت اليك هذا المبلغ لحين تسوية كل الأمور المتعلقة !!

ـ لا أكاد أصدق أذنى !!

ـ عندما تكبرين وتختبرين الحياة . . ستدركين أن هناك حتميات لا مفر منها . . وأن من يفرط فى حياته أكثر من اللازم لا يستحقها أساسا !!

ـ لم تعرف ماما سوى التضحية المستمرة من أجلنا جميعا !!

ـ لكل وجهة نظره كما قلت لك !

ألقيت بآخر ما فى قلبى من خفقات خائفة :

ـ هل هى القطيعة النهائية ؟ !

أذهلته جرأتى . فهو لم يعرف الكثير عن شخصية ابنته الكبرى ! تماسك :

ـ أرجو ألا تكون هكذا !!

ثم عاد الى النظر الى ساعته مرة أخرى كما لو كان يريد أن يطردنى . وفرت عليه كل هذه الحركات المكشوفة بالنهوض دون أن أمد يدى بالسلام :

ـ على كل حال . . نحن أسرتك وفى انتظارك دائما مهما كانت المغريات التى تجذبك بعيدا عنا !

ـ فليفعل الله ما فيه الخير لنا جميعا !

قالها كما لو كان مصرا على إنهاء المناقشة ! تلاشى الخوف والتردد والحيرة أمام أمواج القوة المتدفقة الساخنة فى أطرافى الباردة ، وتساقطت الهالات والمثاليات والشعارات التى قرأت عنها فى كتب المطالعة التى كانت مقررة علينا فى المرحلة الإعدادية ، ودون أن أدرى وجدت يدى تمتد لتمسك بالرزمة المالية ، ولسانى يقول بصوت خافت :

ـ شـــكراً !

وتراجعت الى الخلف حتى خرجت من الغرفة الأنيقة التى لم أتأملها جيدا ، ونظراته الحائرة لا زالت تتابعنى ! فلتذهب المثاليات الجوفاء ومعها العواطف الدافقة الى الجحيم ! فلا تساوى شروى نقير فى عالم اليوم ! لو كانت أمى مكانى لملأت الغرفة بالنواح والدموع والنشيج والتشنج ، ولألقت على الأرض بالمبلغ الذى لا يبدو صغيرا من مجرد الإحساس بسمكه ! لكننى

تلقيت أول درس عملى واقعى على يدى أبى بعد أن قرأت كثيرا عن الفلسفة البراجماتية النفعية ! إن هذا المبلغ خير من صرخات لإحياء مشاعر ماتت بالفعل ، مشاعر لن نشترى بها لحما أو خبزا أو قماشا أو دواء ، لن تعيننا على مواجهة مطالب الحياة حتى تخرجى الذى لم يتبق عليه سوى خمسة أو ستة شهور على أكثر تقدير ! فقد تعلمت منذ تلك اللحظة أن أتوقع الأسوأ دائما حتى أقف على أرض صلبة سواء فى مواجهة أبى أو أى انسان آخر !

لم يعد أبى . ولم يكن قراره مفاجئا كما بدا لنا لأول وهلة ! لم يرسل ورقة الطلاق الى أمى مما أنعش آمالنا فى عودة محتملة ، لكن الحياة التى تلقيت أول دروسها القاسية على يديه ، أكدت لى أنه قرر ترك الموضوع معلقا حتى لا يدخل فى متاهات الطلاق والنفقة والتردد على المحاكم ، وأنه تفضل علينا بمبلغ الخمسمائة جنيه كمكافأة لأمى لإنهاء خدمتها له على مدى ربع قرن ! هذا هو سعر الإنسان فى زماننا الغريب هذا ! كل شئ ارتفع سعره الى أرقام خيالية ، حتى الأحذية ! أما البشر فسعرهم فى السوق فى انخفاض مستمر ، بل إن معظمهم لم يعد له سعر على الإطلاق ! وذات محاضرة بالكلية ناقشت أستاذ مادة التكاليف فى هذه القضية لكنه نهرنى على زعم أننى سأنحرف بالمحاضرة الى منحنى سياسى لا مكان له فى المدرج !

حمدت الله على أن المبلغ يمكن أن يسير دفة السفينة لحين تخرجى ! وصمدت للصدمة لدرجة أننى كتمتها عن هالة ومنى لولا زيارتى لهالة مع منى فى كهف الزيتون ! فى تلك الزيارة اتهمتها بتضييع الوقت فى قراءة الأفكار بدلا من تخطيط

المستقبل ، فتحرشت بى منى وهاجمت الشعارات السهلة التى أتشدق بها دون محاولة لتطبيقها ، وتوقعت لى نفس السلوك حتى بعد تخرجى ! فما كان منى إلا أن اعترفت لهما بأن أبى قد نفذ تهديده القديم الذى لم نأخذه بالجدية اللازمة ، وهجر البيت ليتزوج من فتاة لا تزيد عن عمرى إلا بسنوات قليلة ، بعد أن فتح الله عليه بالمال الوفير ، وتركنا بلا عائل ! ومع ذلك قررت مع أمى بصفتى ابنتها الكبرى أن ندبر الشهور المتبقية على تخرجى قدر الإمكان . فلن نستجدى أحداً ! ولم أقص عليهما حكاية المبلغ الذى رأيت فيه شبهة استجداء مقنع ! وفى الحال بادرت حبيبة قلبى هالة بعرض وساطتها لدى خالها ليعمل على تعيينى فى شركته كما فعل من قبل مع منى ! لكننى لم أبد حماسا شديدا للفكرة برغم شدة احتياجى لها ، اذ لا يعقل أن نغرق فى أفضال هالة علينا بهذا الشكل ، فى حين لا تمنحنا هى الفرصة كى نخلصها من براثن ذلك « اللطفى » الكريه الذى تزوجته ، والذى لم تساعدها براءتها القاتلة على فهم أبعاد شخصيته الحقيقية ! ترك أبى الموقف معلقا كما لو لم يكن لنا وجود فى حياته من قبل ! احترقت بنار حب الإستطلاع لإصرار أمى على أن فى الأمر امرأة أخرى ، فقررت التحرى فى حدود امكاناتى برغم ضيق وقتى فى تلك السنة الحاسمة التى ستقرر مصيرى ! عدت لزيارته مرة ثانية وأخيرة ، لكنه أنهاها بعد دقائق بحجة أن الزيارات الشخصية ممنوعة جريا على سنة الأجانب فى شركاتهم ومؤسساتهم ، حيث الوقت مكرس تماما للعمل ولا شئ غير العمل ! تركته دون سلام ودون أى مبلغ هذه المرة بعد أن

صممت على معرفة السبب الحقيقى وراء هذا الإنقلاب الغريب ! لدرجة أنه لم يتحنى فرصة الحديث عن موضوع النفقة !

تعرفت على زميلة لى بالكلية تعمل أختها بنفس البنك ! وعادت الىّ بكل أخبار أبى التى أكدت صدق ظنون أمى ! فقد تزوج من الأخت الصغرى لسكرتيرته ، والتى تناهز الثلاثين من عمرها ، بل وتفوق أختها جمالا وفتنة ، وأن مرتبه ليس خمسمائة جنيه كما قال لنا ، وانما تعدى السبعمائة !! غير البدلات والحوافز والمكافآت !! وأنه استأجر لها شقة مفروشة بالقرب من مطار ألماظة !!

كم غلى الدم فى عروقى عند سماعى لتلك الأنباء لدرجة أننى فكرت فى فضيحة أتسبب له فيها فى البنك ، لكننى تداركت الأمر ! فقد رأتنى أختها ، ولم تتحرك فيها شعرة واحدة ، بل لم تفقد ألفتها الباسمة مع رئيسها ! إنهم يعرفون ما يريدون ، ويخططون للحصول عليه ! فكل شئ له حساباته الخاصة به ! غابت عنى هذه الحقيقة وأنا التى تعلمت الحسابات على أعلى مستوى فى الكلية ، فى حين لم تتعد زوجة أبى المرحلة الثانوية !!

كتمت الأنباء عن أمى التى لم يعد فى وسعها أن تنوء بأعباء أخرى ! وقررت ألا أشتت جهدى بعيدا عن معركتى الحقيقية : معركة الليسانس ! لكن يبدو أن سهر الليالى لا يثمر كثيرا مع البال المشغول والقلق المتواصل ، ولذلك حصلت على تقدير

جيد لأول مرة ، وفى السنة الحاسمة بعد تقديرات تقترب من الإمتياز طوال السنوات الماضية ، وفقدت الأمل العذب فى العمل معيدة بالكلية على طريق الدكتوراة !

شرعت فى البحث عن وظيفة ، ولم أجد حرجا فى الذهاب الى عمى المليونير صاحب شركات الإستيراد والتصدير وتقسيم الأراضى ، وكان ترحيبه مفاجأة لى ، بل وعرض علىّ مرتبا لا أجرؤ على أن أحلم به ، ولا يقل كثيرا عن مرتب أبى فى البنك الأجنبى ، لكنه اشترط شرطاً واحداً فقط : أن يأتى أبى اليه معتذرا عن كل محاولاته السابقة لإذلاله ، وراجيا إياه أن يقبلنى للعمل فى احدى شركاته ! وعندما صارحته بهجره لنا ، وعدم انفاقه علينا ، واصرارنا على عدم استجداء أحد ، صارحنى بمعرفته بكل التطورات الأخيرة ، ومع ذلك أصر على أن يشرب من نفس الكأس التى طالما سقاها له كلما طلب منه معونة أو مساعدة أو خدمة فى تلك الأيام التى لا يستطيع نسيانها ! وبذلك تفتتت بين يدى أصنام الأخوة كما تفتتت من قبل أصنام الأبوة ! فقررت ألا أستجدى أحداً حتى لو كان من ألصق الناس بى ! وكانت ثقتى فى قدراتى وامكاناتى قد أكدت لى أننى لابد أن أجد من يقدرها حق قدرها ، وأنه اذا صح العزم وضح السبيل كما علمنى أستاذى فى اللغة العربية !

هرعت حبيبة عمرى هالة الى خالها دون أن تخبرنى ! ولم أفتح معها الموضوع الا فى تلك المرة فى أعقاب هروب أبى ! لكنها

عادت اليّ بوجهها الحبيب ، وجدائلها الذهبية ، وعينيها الزرقاوين ، وبشرتها البيضاء المشربة بالحمرة لتقص عليّ حكاية صاحب شركة استثمار فى ميدان سفير لم يستكمل هيئة العاملين فيها بعد ، وهو يرحب بى بناء على وساطة خالها وصديقه ، بشرط أن يختبرنى أولا شكلا ومضمونا ، وأخرجت من حقيبتها السوداء اللامعة بطاقة خالها وعليها توصية لصاحب الشركة . اغرورقت عيناى بالدموع الشاكرة ، وعجز لسانى عن أى تعبير فاحتضنتنى بحب دافق لم ينضب معينه أبداً داخلها ! وبدأت مرحلة جديدة تماما فى حياتى !

● ● ● ● ● ● ● ●

الآن أسترخى قليلا لأريح أصابعى من ضغط القلم . لكن يبدو أن أمى لا تريد أن تريح كتفيها من عبء القلق الغامض الذى ينتابها هذا المساء دون أن أحكى لها حرفا واحدا عما جرى اليوم ! هل هو « قلب الأم » كما يقولون ؟ ! ها هى الآن تدخل لتقدم لى كوبا من الشاى وقطعة من الكيك فى حين ألاحظ نظراتها من طرف خفى وهى تحاول التمسح بما كتبته فى الدفتر ! تنصحنى بالراحة والنوم فأؤكد لها أننى لن أنام قبل أن أنتهى من عملى ! تخرج وهى تتمتم بأن أرحم شبابى ! أرتشف رشفة شاى لكننى لا أمس الكيك الذى أعشقه ، فلم تعد شهيتى مفتوحة إلا للكتابة التى لم أعرف قدرتها على التنفيس والتفريج إلا فى هذه اللحظات ! !

● ● ● ● ● ● ●

كانت أمى قد نصحتنى بعدم رفع دعوى لمطالبة أبى بنفقة على سبيل الإبقاء على ما تبقى من صلات لعله يساعدنى فى التعيين بعد التخرج بعد شهور ، فهو على الأقل لا يزال وسيظل أبى مهما حدث ! ووافقت أمى تماما على موضوع النفقة لكن موضوع التعيين لم يخطر ببالى لأننى أسقطه من حسابى ! كنت قد قررت أن ألقن أبى درسا عمليا ليعرف حقيقة ما فعل . فاذا كان قد ألغى وجودنا تماما بالنسبة له ، فلماذا لا نفعل نحن نفس الشئ ؟ ! على الأقل فأنا صغيرة وقوية وقادرة على التحمل وقبول التحدى ، والزمن يسير فى صالحى مهما صادفت من عقبات ، أما هو ففى خريف العمر مهما تصابى ، وتأنق ، وحلق شاربه ، وصبغ شعره ، ولعله يتلقى درسا آخر على يد التى تزوجها عندما تكتشف أن الربيع لا يمكن أن يحل مع الخريف ! لذلك اكتشفت أن خير رد على ما فعله أبى ، أن نلغى وجوده تماما بالنسبة لنا ! سنعتمد على أنفسنا ، ولن نمد أيدينا اليه كأنه لم يكن معنا فى يوم من الأيام ! الأبوة حنان وتراحم ، ود وعطف ، حب وألفة ، مساندة ومسئولية ، رحمة وتضحية ، وليست مجرد قدرة على الإنجاب ! حتى القطة التى يتهمونها بالغدر والخيانة لا تتخلى عن أبنائها وقت الخطر !

من هنا كانت القطيعة النهائية مع أبى بعد زيارتى الثانية له ؛ قطيعة لابد أنه ارتاح لها . فلم تعد هناك منغصات ولا مساعدات مادية ، لكنه لم يعرف أن الرزق رزق الله ، وأن الزمن لم يبتسم له إلا مع حلول الخريف ، ولذلك فهى ابتسامة

صفراء محملة بالرمال التى سرعان ما تعصف به حين ينفض الجمع من حوله ! يكفى أنه هجر أمى بلا طلاق حتى يكشف نواياه الحقيقية ، أمى التى أفنت حياتها من أجله دون أن تطلب شيئا لنفسها طوال ربع قرن ! أمى التى لم تفقد ايمانها بأن الله لن ينسانا ، بل وسيعوضنا خيراً . وبرغم أن ايمانى لم يكن فى قوة ايمانها ، فاننى شعرت أن الله قد منحنى قوة الإرادة والصمود والتحدى الكامنة داخلى لأواجه كل التقلبات المتوقعة وغير المتوقعة مع الأيام ! تلك القوة التى كنت أتمنى أن تمتلك هالة ولو جزءاً يسيرا منها لتواجه ذلك « اللطفى » الكريه المراوغ كالحية الرقطاء ! لكن يبدو أن النعم توزع على البشر بطريقة لا تخطر ببال بشر : بريق الثروة من نصيب هالة ، ودفء الأسرة من نصيب منى ، وقوة الإرادة من نصيبى أنا ! المهم كيف يستفيد الإنسان بما لديه !

كانت فرحتى لا تقدر وأنا فى طريقى الى مقابلة الدكتور غلاب صاحب ومدير شركة مصر الجديدة للإستثمار الحديث ، وصديق عبد الرحمن بك خال هالة ! كانت أمنيتى وايمانى بأن الله لن يرجعنى بخفى حنين ، وسأثبت لأبى عمليا أننا أسقطناه من حسابنا كما أسقطنا هو من قبل ! ارتديت أفخر ما عندى من ملابس كنت أحتجزها للمناسبات والأعياد ، ومعظمها هدايا من هالة فى عيد ميلادى . فقد عرفت قيمة المظهر فى تلك الأماكن منذ زيارتى الأولى لأبى فى البنك عندما رأيت ما يرتديه أهل الإنفتاح والإستثمار ، فهم لا ينتمون بصلة من قريب أو

بعيد لموظفى حكومتنا العتيدة ، أصدقاء الفول والطعمية والكساء الشعبى ، وزبائن الأتوبيسات الخانقة ، وسكان الأزقة الرطبة المظلمة !

ذهبت الى مقر الشركة فى ميدان سفير بعد أن تخليت عن فكرة ركوب الأتوبيس خوفا على الفستان الأصفر المبهر من الإتساخ ، وعلى الحذاء البنى اللامع مع أقدام الراكبين التى يمكن أن تطأ أى شئ مع اهتزازات الأتوبيس ، وعلى الحقيبة البنية الجميلة من يد نشال ماهر ، خاصة وأنها تحتوى على بطاقة التوصية التى أرسلها الىّ عبد الرحمن بك مع هالة ! أما الفستان - هدية هالة - فكان مستوردا من باريس ، ويناسب طقس أغسطس القائظ الرطب برغم جفاف مصر الجديدة . كان نسيجه ناعما خفيفا بعض الشئ لدرجة أن انعكاس ضوء الشمس المبهر خلفه ، يمكن أن يبرز كل معالم ساقىّ حتى الردفين ! لكننى اقنعت نفسى بأن العيون فى مثل هذه الأماكن قد شبعت من مثل هذه المناظر التى أصبحت ضمن الديكور المعتاد للمكان ! وهو ما لاحظته فى بنك أبى عندما دخلت فاتنة أجنبية ترتدى فستانا أبيض كقميص النوم الذى يغرى أكثر مما يستر ، لكن المصريين أنفسهم تشبهوا بالأجانب ولم يحاول أحدهم أن يختلس مجرد نظرة !

هبطت من التاكسى وما زالت دعوات أمى ترن فى أذنى . تصفحت عمارات ميدان سفير حتى عثرت على لافتة الشركة على الدور الأول لإحداها . دق قلبى فى عنف وأنا أخطو داخلها .

دلفت من الباب الزجاجى الذى أغلق خلفى من تلقاء نفسه ، فشعرت كأننى انتقلت فى لحظة من أفريقيا بترابها ورمالها وصخبها الى أوروبا بصفائها ونقائها وهدوئها برغم أننى لم أزر أوروبا أو غير أوروبا ! لكن هكذا كان احساسى فى الجو المكيف المشبع بتلك العطور والروائح المنعشة والمثيرة للنشوة الصامتة ! بعد زوبعة رملية خفيفة دارت فى الميدان ولفحت وجهى ! وخفت أن تفسد صورتى الجميلة التى خرجت بها من البيت ، والتى كانت تشبه الى حد كبير نجمة يابانية رأيتها فى فيلم فيديو عند هالة ! كنت قد قضيت أطول فترة ممكنة أمام المرآة وان كانت تعد أقصر فترة بالنسبة لهالة ومنى اللتين طالما أعجبتا بعينى المشعتين بسحر اليابان من فتحتيهما الطويلتين الضيقتين ، وأنفى الدقيق ، وجسدى الصغير المتناسق ، لكننى كنت أداعبهما بأن سر اعجابى واعتزازى بملامحى اليابانية يرجع الى النهضة والمنتجات اليابانية التى أغرقت بها هذه البلاد كل أرجاء الدنيا ! برغم أنها بدأت حضارتها الحديثة مع مصر المعاصرة ! وقد يكون أحد أجدادى القدامى من الساموراى الذين أشترك معهم فى الإصرار على الهدف حتى الموت !

دخلت غرفة سكرتيرة الدكتور محمود غلاب لأقدم لها بطاقة التوصية ! تركتنى بابتسامة مرسومة لأتأمل الغرفة الصغيرة الوثيرة التى لا تضاهيها غرفة منى فى أناقتها ! كانت السكرتيرة جميلة لكنها متبرجة أكثر من اللازم لدرجة أنها ذكرتنى بالراقصة التى أحيت حفل زفاف ابنة عم هالة ! عادت لتفتح لى الباب وأدخل

وأنا أكاد أتعثر فى السجادة الصينية الوثيرة بعد أن علت دقات قلبى حتى كدت أن أسمعها ! رفعت عينى لأرى الدكتور غلاب جالسا خلف مكتب طويل من الطراز الحديث ومغطى بالبللور . ابتسم مرحبا بى :

- أهلا وسهلا . . كيف حال عبد الرحمن بك ؟ ! لم أره منذ زمن طويل ؟ !

قاومت التلعثم والتردد بأقصى ما أستطيع :

- إنه يهديك السلام !

- هل تمتين اليه بصلة القرابة ؟ !

لم أحب أن أكذب وفى الوقت نفسه صممت على تعزيز مركزى :

- إنه صديق عزيز للعائلة !

لاحظت أنه تركنى واقفة أمامه عندما رد على مكالمة تليفونية لم تمنع عينيه من أن تمسحا جسمى من أم رأسى الى أخمص قدمى ، فحمدت الله أننى وضعت المظهر فى الإعتبار ، فالله وحده يعلم كم أنا فى حاجة الى هذه الوظيفة بصرف النظر عن قيمة مرتبها ؟ ! لم يكن الدكتور غلاب وسيما وان كان أنيقا للغاية ! كان الصلع قد زحف على مقدمة رأسه لكنه ترك الشعر ليتهدل طويلا على مؤخرته ! أما عيناه فجاحظتان توحيان بالثقة والإعتزاز الشديد بل والخبيث بالنفس ! شفتاه غليظتان خاصة السفلى التى تتدلى بلونها البنى الداكن ليتناغم مع وجهه الأسمر ! كان يرتدى حلة بيضاء حريرية ، وتحتها أطل قميص سماوى

عليه رباط عنق كحلى عليه بعض حروف يبدو أنها الحروف الأولى لمصمم الأزياء الذى ابتكره . كذلك كان فى كم الحلة منديل من نفس نسيج رباط العنق ولونه ! أما العطر الفواح منه فيبدو أنه استحم به قبل أن يترك بيته !

انتهى من المكالمة ومن تأملى وتفحصى ليشير بذراعيه بحركة رشيقة كى أجلس على المقعد أمامه . ابتسمت فى حرج وأطعت لأسمعه :

- متى تخرجت يا مها ؟ !

- هذا العام !! وكنت فى الأعوام السابقة مواظبة على تقدير جيد جدا . . لكن ظروفى العائلية هذه المرة لم تسمح لى بتقدير أعلى من جيد !!

- خير . . ان شاء الله !!

ندمت على هذه المصارحة لكننى تداركت :

- مرت ماما بظروف صعبة . . لكنها انتهت والحمد لله !

يبدو أنه كان وشك أن يسأل أسئلة شخصية أخرى ، لكنه أزاح حشرجة فى حلقه ، وأشعل غليونا أمامه فامتزج عطر التبغ بعطر المنديل !

- لا يهمنى فى الواقع تقدير الجامعة . . المهم الكفاءة الشخصية والمرونة فى العمل الى أقصى الحدود !!

ضغط على الجملة الأخيرة لينطقها بايقاع بطئ للغاية . قلت :

ـ وأنا تحت أمر سيادتك !

ابتسم وهو يطلق العنان لسحب الدخان المعطر :

ـ لعلك تعلمين أننى كنت أستاذا فى كلية التجارة . . وكنت فى ذلك الوقت أفتح مكتبا للمحاسبة فى هذه الغرفة التى تجلسين فيها الآن بالذات بالإضافة الى غرفة السكرتيرة . . وكان دخل هذا المكتب الصغير أضعاف أضعاف مرتبى من الجامعة برغم جهدها المضنى فى تحضير المحاضرات وتجهيز الإمتحانات ! وكنت قد سافرت منذ حوالى ثلاث سنوات الى السعودية لأعمل أستاذا زائرا فى جامعة الرياض ! وعندما أصبح الإنفتاح الإقتصادى واقعا راسخا اتفقت مع بعض المستثمرين فى السعودية على الإشتراك معى فى تأسيس هذه الشركة ، فوجدت ترحيبا منهم ، وعدت الى القاهرة لأستقيل من الجامعة وأشترى هذا الطابق كله للشركة التى استكملت تقريبا كل هيئة العاملين بها !

سعدت لكلمة « تقريبا » هذه أيما سعادة ! قطعت السكون المشبع بالدخان :

ـ لم يسعدنى الحظ بأن أتتلمذ على يدى سيادتك !!

ـ فعلا . . فقد تركت الكلية منذ أربع سنوات !!

ـ إنه لشرف كبير أن أتتلمذ على يدى سيادتك فى الحياة العملية !!

ابتسم ابتسامة مسترخية فى مقعده الوثير :

ـ لا أخفى عليك سراً اذا قلت إن وزارة الإقتصاد كانت قد

عُرضت عليّ فى التعديل الوزارى السابق الذى تم منذ شهرين فقط . . لكننى اعتذرت ! فالعائد الإقتصادى هو المقياس الوحيد لكل قراراتى !! وعلى كل حال فقد تركت الوزارة لزميل لى كان يتوق بل ويحلم دائما بها !

كانت الثقة والإعتزاز بالنفس تقطران من صوته الجهورى الأجش ! نظر الى ساعته الذهبية الفاخرة وواصل استمتاعه بالتدخين ، فى حين بحثت عن كلمات لعلها تصل بى الى تحقيق هدف اللقاء ، أو حتى مجرد سد فراغ الصمت لكننى فشلت ! واصل تفحص وجهى بعينيه الجاحظتين وشفتيه الغليظتين :

ـ نحن لا نعين أحدا فى الشركة دون فترة اختبار كافية لتقرير مدى صلاحيته !! لسنا مثل الحكومة التى أخذت على عاتقها دون مبرر تعيين كل الخريجين على سبيل حشو الوزارات والمصالح بهم حتى لا يقال أن فى مصر بطالة . . إن البطالة الصريحة فى نظرى أفضل من المقنعة . . لكننا لم نتعود بعد على مواجهة مشكلاتنا بصراحة كما يفعلون فى أمريكا مثلا !

جاوبته دون أن أرفع عينى :

ـ تحت أمر سيادتك !! وأرجو أن أكون عند حسن ظنك حتى أكون جديرة بشرف الإنتماء الى شركتكم !

كانت قضيتى الشخصية الملحة أهم عندى من أية قضية عامة يمكن أن يثيرها فى مقعده الجلدى الوثير المريح ! انتزع ورقة من مذكرة أمامه وكتب عليها بعض كلمات ثم قدمها لى

فانتفضت واقفة لأتسلمها وهو يقول :
- قدمى هذه التأشيرة للأستاذ فهمى فى قسم الحسابات . . فسوف يتولى تدريبك فى فترة الإختبار . . كما لابد من دراسة « كورس كومبيوتر » وأفضل أن يكون فى الجامعة الأمريكية . . وسوف تتولى الشركة الصرف عليه !! وسوف تحصلين على مرتب لا يقل عن مائة جنيه لحين انتهاء فترة الإختبار التى اذا تم اجتيازها بنجاح فستحصلين على ثلاثمائة جنيه بالإضافة الى المكافآت والحوافز والعلاوات !

لم تصدق أذناى هذه الكلمات المتساقطة كقطرات المطر على شقوق الأرض العطشى . تساءلت فى بلاهة خفيضة :
- فى الشهر ؟ !
أطلق ضحكة لم يخف رنة السخرية فيها :
- فى الشهر طبعا !
قبل أن يواصل كلماته انحنيت فى حرج وأدب جم :
- شكرا يا فندم ! شكرا يا دكتور !

ثم تراجعت لأخرج سائلة السكرتيرة عن مكتب الأستاذ فهمى ، فأشارت الى الغرفة المجاورة وهى تتفحصنى لدرجة أننى شعرت بنظراتها تخترق ظهرى وأنا فى طريقى الى الأستاذ فهمى الذى وجدته منكبا على بعض الكشوف بنظارة سميكة مثل قاع الكوب الزجاجية لدرجة أنه لم يشعر بوجودى الا عندما قلت :
- صباح الخير يا أستاذ فهمى !
رفع رأسه فى أدب ورقة فبدا صغر سنه التى لا تتعدى

الخامسة والثلاثين :

ـ صباح الخير يا فندم .. تحت أمرك !

قدمت اليه تأشيرة الدكتور غلاب فقرأها بحرص وتمعن ويده اليسرى تجرى على شعره الأكرت فى بعض الخجل والحساسية ، ثم سرعان ما انتفض واقفا وهرع ليدفع مقعداً خلفى :

ـ تفضلى إستريحى .. أهلا بك فى بيتك ومكتبك !!

لم أر عذوبة مفاجئة مثل هذه من قبل !

● ● ● ● ● ● ● ●

ياه !! لم أعرف أن الكتابة ممتعة الى هذا الحد ؟ ! حتى الشاى برد فى الكوب بعد أن نسيته تماما ! عند عودتى ظهر اليوم من الشركة كنت أظن أن ما وقع هو نهاية العالم ! الآن أشعر أنه مجرد مرحلة عابرة تركت مكانها لمرحلة جديدة فى كفاحى الذى لن يتوقف إلا مع آخر دقة من دقات قلبى ! كيف تجرى الذكريات والخواطر والمواقف مع حبر القلم بهذه الحيوية والتدفق كأننى أعيشها من جديد ولكن فى ضوء جديد ؟ ! عقارب الساعة تقترب من منتصف الليل ، والسكون يلف الشقة والشارع إلا من نباح بعض الكلاب البعيدة ، ومع ذلك لا أشعر بوحشة أو برغبة فى النوم ! فالكلمات بقع مضيئة على الصفحات ، وتخبرنى الآن بأشياء لم أستوعبها فى حينها !

● ● ● ● ● ● ● ●

لم أجد راحة نفسية مثل تلك التى وجدتها مع الأستاذ فهمى الطيب ، الخجول ، الودود . كان سعيدا بى سعادة الأخ الأكبر بأخته الصغرى التى سرعان ما أثبتت قدرتها على استيعاب كل ما هو جديد فى تكنولوجيا الحاسبات الإلكترونية ، بعد أن انتهت من « كورس الكومبيوتر » فى الجامعة الأمريكية بتفوق ! كان لى نعم الأخ فى ارشاداته وتوجيهاته فى كل ما كان يعن لى من أسئلة واستفهامات ، وذلك على النقيض تماما من أبى الذى لم يكن على استعداد ليلقن الأجيال التالية أصول مهنته حتى لا يجد ذات يوم صبيا من صبيانه يحاول منافسته ! أما الغرفة التى احتوتنا أنا وفهمى فكانت خير مدرسة لى لأتعلم ما فاتنى من دراسات الكترونية حديثة لم نتلقاها فى الجامعة ، خاصة وأن هذه الحاسبات الإلكترونية بأحجامها المختلفة تحتل كل ركن من أركان الشركة ! كنت أجلس الى المكتب الصغير المواجه لمكتبه لأتبادل معه الأحاديث العلمية التى يتجاوب معها فى شوق بالغ ، أما اذا ذكرت أمامه سيرة أحد العاملين فى الشركة ، فسرعان ما يتشاغل بما أمامه من كشوف ، خاصة اذا كان حديثى عن الدكتور غلاب برغم أننى لم أكن أذكره إلا بكل خير واعزاز وتقدير ! وفسرت سلوكه هذا فى ذلك الحين بأنه من الجدية الموضوعية بحيث يرفض الخوض فى أية سيرة شخصية بأى شكل من الأشكال !

لم يكن فهمى مغرما بالحديث عن نفسه ، ومع ذلك استطعت أن أعرف قصة كفاحه التى كشفت لى عن معدنه ! فقد

توفى أبوه وهو فى المرحلة الثانوية فتركه مع أخته وأمه لمواجهة تيارات الحياة بمعاش ضئيل ، لكن بالكفاح الذى طبعت عليه معظم الأسر المصرية المتواضعة ، استطاع أن يتخرج فى كلية التجارة ، وأن يعمل مأمورا فى مصلحة الضرائب ، لكنه وجد أن المرتب الضئيل والجهد المبذول دون تقدير مادى أو أدبى لن يحققا أمله فى تزويج أخته التى تخرجت بعده فى كلية الحقوق دون أن تعثر على عمل يناسب مؤهلها ! وظل فى محاولاته المستميتة لتغيير مجرى حياته الى الأفضل حتى قرأ عن حاجة الشركة الى من يشغل وظيفة مدير حسابات ، فتقدم للإختبار الشخصى ، فإذ به يجد نفسه أمام الدكتور محمود غلاب أستاذه بالكلية ، والذى كان يعتبره من أفضل تلاميذه لدرجة أنه منحه فرصة للتدريب فى مكتب المحاسبة الذى كان يديره قبل افتتاح الشركة ، لكن فهمى وجد أن مرتب مصلحة الضرائب أكبر ففضلها على المكتب . لكن سرعان ما عاد التلميذ الى أستاذه بمرتب خمسمائة جنيه هذه المرة ، مرتب مكنه فى شهور قلائل من تجهيز أخته وتزويجها بحيث لم يعد مسئولا إلا عن أمه ! وقد تجلى حرصه فى عدم دعوة أحد من الشركة لحضور حفل الزواج ، فهو من أنصار سد الباب الذى تأتى منه الريح ليستريح ، فكفاه ما واجه من رياح عاصفة منذ صباه !

شعرت أن الحظ قد فتح لى بابه أخيرا على مصراعيه بالمرتب الضخم الذى جعل أمى تدق على صدرها نشوة وذهولا عندما لامس رقمه أذنيها ، والذى دفع بأخى حاتم الى القول بأنه

يستطيع أن يعيش أخيرا على مستوى زملائه فى كلية الهندسة من أصحاب السيارات الخاصة . كذلك فان تعاملى فى الشركة كان قاصرا على الدكتور غلاب والأستاذ فهمى ، بل إن الدكتور بلغ فى حفاوته بى حدودا لم تكن تخطر لى ببال ! فقد أعلن عن حفل استقبال أقامته الشركة فى فندق فاخر قريب من مطار القاهرة للترحيب بالموظفين الجدد الذين اكتملت بهم هيئة العاملين بالشركة ! وفى الحفل اكتشفت أن الموظفين المحتفى بهم كانوا رجلين وامرأة هى أنا ! كنت بؤرة الإهتمام من الدكتور غلاب وبالتالى من جميع الحاضرين الذين لم أستوعب معانى نظراتهم : هل كانت إعجابا أم حسداً أم حقداً أم تشفيا أم توقعا لأشياء لا أدركها ؟ ! كما كانت زوجة الدكتور ضمن الحاضرين مثالا للسيدة الأنيقة ، الجميلة ، الأرستقراطية ، المترفعة ، بحيث بدا مظهرى الذى صرفت عليه دم قلبى لهذا الحفل خصيصا ، متواضعا للغاية فى مواجهة فستان السهرة الأسود الطويل الذى كشف عن مرمر عنقها وأعلى صدرها تحت شلالات شعرها البنى الطويل ، وخاتم السوليتير المتألق فى اصبعها ، ومبسم السيجارة الذهبى ، وحديثها الذى يمزج العربية المتكسرة على صخور الإنجليزية الطلقة ، بالفرنسية التى تحاكى لهجة الممثلات فى الأفلام ! لم تعرنى التفاتا سوى سلامها المترفع عند الوصول ثم الرحيل ! فقد قضت معظم الحفل محاطة بزوجات الشركاء وبعض المستثمرين العرب والأجانب !

أما أنا فكنت محاطة باهتمام الزملاء وعلى رأسهم الدكتور

غلاب شخصيا الذى كان قمة فى أناقته وبراعته فى ادارة الحوار والحديث ! ولولا أحاديث العمل التى دارت بينه وبين شركائه وعملائه لصور لى غرورى أن هذا الحفل قد أقيم لى خصيصا ! ومع ذلك كان لى عذرى الشخصى فى هذا الظن أو الشك المجنون ! فمنذ أن عملت بالشركة ومعاملة الدكتور غلاب لى آية فى الحفاوة التى لا توجد عادة بين مليونير يمتلك شركة ويديرها ، وبين موظفة عادية مثلى ! صحيح أننى كنت أشعر فى أعماقى بالفخر لأنى دفعت عن أسرتى الجوع ، والعوز ، والهوان ، والحاجة لكل من هب ودب ، والحمد لله فاننا منذ هجرنا أبى لم نحتج لأحد بفضل عملى الذى أخلصت له اخلاصا يجل عن الوصف ! وكان الدكتور غلاب فى البداية يعاملنى برفق وحنان زائدين على الحد ، وكنت شديدة الإمتنان له لهذه الأبوة التى اعتبرتها تقديرا انسانيا منه لظروفى ومسئولياتى الخاصة التى عرفها فيما بعد من عبد الرحمن بك الذى حضر حفل الإستقبال الذى فوجئ فيه الدكتور غلاب بأننى أقابل فيه عبد الرحمن بك لأول مرة برغم توصيته بتعيينى بالشركة !

كذلك تصورت أن معاملة الدكتور الرقيقة لى لم تكن قاصرة علىّ بل كانت أسلوبه العادى بالنسبة لكل العاملين . وركنت الى هذا التصور حتى وجدته ذات يوم وقد تحول فى مكتبه الى أسد هصور يكاد يفتك بموظفة فى قسم الإستيراد ارتكبت خطأ لم أعرف كنهه ، بل إنه أنذرها بالرفت لو عادت لإرتكاب مثل هذا الخطأ مرة أخرى ! وبمجرد خروجها بأقدام مهزوزة وسيقان

مرتعشة ابتسم لى وطلب منى الجلوس الى جواره لمراجعة بعض الكشوف معى ، وكأن شيئا لم يحدث على الإطلاق ليعكر صفوه !

وفى أثناء المراجعة كانت عيناه تبتعدان عن الأرقام والقوائم لتمسح فتحتى عينى الطويلتين الضيقتين ، وأنفى الدقيق ، ونهدى اللذين اشتد عودهما تحت البلوزة بسبب أنواع الغذاء التى لم تعرف طريقها الى بيتنا الا بعد عصر الدكتور غلاب كما كنت أسميه ! وعندما تسرى الحمرة فى صفحة وجهى ، كانت نظراته تتحول الى ابتسامات وكلمات مداعبة :

ـ أجمل ما فيك أن وجهك يشع بسحر اليابان دون الصفرة اياها !! لقد عرفت فتيات ونساء ساحرات كثيرات . . لكن جمالهن كان واضحاً مباشراً . . يكشف عن أسراره من أول وهلة أو أول نظرة . . أما جمالك أنت فغير تقليدى !! غامض !! يثير النشوة أكثر مما يحرك الشهوة . . كذلك فان عقلك الناضج المتزن يختلط بغموض جمالك لينتج عنه مزيج لم أختبر مثله من قبل !

كنت أحتمى من نظراته بتأمل الأرقام والقوائم تاركة لحمرة الخجل أن ترد على ما لا أستطيع مواجهته . عندئذ يغير دفة الحوار بسرعة البرق منهيا اياه بجملة أثيرة عنده : من لا يعشق الجمال الذى خلقه الله لا يستحق الحياة نفسها لكفره بنعمة الله !! ثم يضع نظارته السلكية الذهبية الدقيقة ليتفحص الأرقام والقوائم بمنتهى الوقار والدقة والجدية !

كنت أتمنى أن أقص هذه المناورات على فهمى لعله يرشدنى لأحسن أسلوب يمكن مواجهته بها ، لكنه كان قد أغلق باب الحوار معى فيما يتصل بالأمور الشخصية للزملاء والزميلات . وكنت أظنها فى ذلك الوقت مثالية مبالغ فيها ، لكن الأيام أثبتت لى فيما بعد أن تلك الحاسة الغامضة التى لا أدرى كنهها كانت صادقة فى معظم ما أوحت الىّ به من هواجس وخواطر واحتمالات وأفكار ومشاعر !! وكنت قد سمعت عن جمال زوجة الدكتور غلاب من زميلاتى ، لكننى لم أتصور أنها بذلك الجمال المبهر الذى رأيتها به فى الحفل ، وان كان ظلها ثقيلا بعض الشئ ! عندئذ أكدت لنفسى أننى تركت العنان للغرور كى يحملنى الى آماد لا توجد إلا فى خيالى ، وأن كلمات الدكتور غلاب لى ليست سوى مداعبة عابرة يمكن أن تقال لأية زميلة أخرى فى نفس كفاءتى ! فلا يعقل لمليونير له زوجة مثلها أن يتنازل كى يتعبد فى محرابى !

عندئذ قررت أن أتجنب سوء الظن تجاه الدكتور غلاب ، الرجل الذى نقل أسرتنا من حال الى حال ، فما هكذا الإعتراف بجميله ! أما قوله لى يا حبيبتى فى نهاية كل جملة ، وسلامه الحار على يدى ، وأشياء من هذا القبيل ، فأمور عادية بين أب وابنته ! ونظرا لأننى لم أذق طعم الحنان مع أبى ، فقد أسأت فهمه عندما أتى من غريب ! وأدركت حكمة الأستاذ فهمى فى عدم الخوض فى الأمور الشخصية للرؤساء والزملاء ، فقد يصل بى سوء الظن أو الظن السيئ الى متاهات لا خروج لى منها ؛

فلابد أن تنعكس الظنون على السلوك بطريقة أو بأخرى !

أدركت أننى يمكن أن أتعلم الحياة من فهمى كما تعلمت على يديه من قبل أصول العمل واتقانه ! وزاد ارتباطى به ، ولم يخف هو اعجابه بكفاحى وصمودى ، وإن أبدى اعتراضه ـ وكان اعتراضه الأوحد ـ على تدليلى لأخى الذى تخرج فى كلية الهندسة بعدى ، لكنه لا يريد أن يعمل إلا عملا لأئقا به ، ويفضل أن يبتزنى ـ على حد قول فهمى ـ بدلا من أن يشرع فى كفاحه مبكراً بعد أن تخرج بفضل دعمى المستمر له ! فلا يعقل أن يكون هو الرجل ويصر على الذهاب الى النادى ويسهر مع أصدقائه فيه ، فى حين أواصل أنا كفاحى من أجل الأسرة كلها !! وكنت أداعب فهمى بقولى : من شابه أباه فما ظلم ! لكنه لم يتقبل المداعبة ، بل ومن النادر أن يرحب بأية مداعبة ! ففى النهاية لا يصح عنده إلا الصحيح ! وكنت مقتنعة بصحة رأيه تماما ، لدرجة أن الصدام بينى وبين أخى حاتم تصاعد الى شجار ذات مرة رفع فيه حاتم يده على سبيل تهديدى بالصفع ، فما كان منى الا أن صفعته بالفعل حتى يثوب الى رشده ، ولولا صراخ أمى وتدخلها لتماسكنا بالأيدى فى معركة حامية ، أنهيتها بأنه اذا كان رجلا بالفعل فعليه أن يذهب الى أبيه كى يحصل على حقه منه ، أما أنا فلن أنفق عليه أكثر من أخوته الذين لا يزالون فى أشد الحاجة الى إكمال تعليمهم مثله ! يكفى أننى وأنا بنت فى حاجة الى الإعداد لمستقبلى ، أواصل الصرف عليه ، وكان من الممكن أن أحذو حذو أبيه الرجل رب العائلة الذى هجرها ليجدد

شبابه ، ولن يلومني ـ عندئذ ـ أحد !

ورب ضارة نافعة ، إذ يبدو أن الشجار قد أوقد روح الكبرياء داخل حاتم بعد أن ظننته صورة مكررة من أبى ! لم يعد يطلب منى أى مبلغ كما كان يفعل من قبل ! بل وتحاشى الحديث معى لدرجة أصبت فيها بالإحساس بالذنب ، مما اضطرنى الى فرض نفسى عليه بمداعبته واجباره على قبول مساعدتى التى اعتبرها لأول مرة دينا عليه سوف يسدده بالكامل بمجرد عثوره على عمل ! كانت كلمات سمعتها منه وأنا لا أصدق أذنى ، وعندما تأكدت من صحتها سالت الدموع من عينى وأنا أهرع لإحتضانه !

كان فهمى نعم الصديق ، والزميل ، والناصح ، والمرشد الذى انتقل دون أن أدرى الى مرحلة الحبيب بعد أن أصبح موجودا فى حياتى وكيانى وفكرى سواء أكان غائبا أو حاضرا ! لم أجد مثل طيبته وحنانه وبراءته وبساطته فى هذه الغابة التى نسميها الدنيا ! لم يكن مظهره يوحى باحتمال أن يكون فتى أحلام أية فتاة ! نظارة سميكة مثل قاع الكوب الزجاجية ، شعر أكرت قصير ، حلة لا تعترف بأحدث ما وصلت اليه أزياء الرجال ، حديث لا يخرج عن حدود العمل ، جدية لا تعرف الدعابة والمرح الا نادراً ، عجز تام عن استخدام الكلمات الحلوة الرشيقة ! وكثيرا ما كنت أجد فيه النقيض الكامل للدكتور غلاب برغم فارق السن بينهما والذى لا يقل عن عشرين عاما إن لم يزد !

ومع ذلك وجدت عند فهمى ما لم أجده مع أبى ! الطيبة والحنان والبساطة التلقائية دون أى افتعال برغم احساسى فى بعض المواقف بحرصه على كتمان بعض الأشياء المرتبطة ببعض الزملاء والزميلات ! كيف مزج البراءة والنقاء بالحرص والكتمان ؟ ! لا أعرف ! المهم أننى وجدت نفسى فى حالة انجذاب شديد اليه ، حالة لم أقاومها بل تركت نفسى لقيادها مستمتعة بها وهى تجرفنى فى رقة وهدوء ! كانت عاطفتى تجاهه مقيدة بلجام العقل الهادئ الرزين المستنير بعيدا عن عواصف العواطف الهوجاء التى جرفت هالة ، والتى أوشكت أن تقتلع منى من جذورها ! ولم أكن فى حاجة الى التخطيط للإنفراد به ، فلم يكن هناك ثالث فى غرفتنا الصغيرة التى أحببتها أكثر من بيتى ! أحببت فيها الشجرة التى كثيرا ما تداعب فروعها وأوراقها زجاج النافذة مع أول هبة للهواء ، ضجيج عجلات المترو الذى لا يهدأ ذهابا وايابا فى ميدان سفير ، أبواق السيارات التى تصر على اختراق زجاج النافذة المغلق والمحكم فى جدار الغرفة المكيفة الهواء !

شرعت فى الإلتفاف حوله فى رقة وحنان ! كنت مدركة للجهد الكبير الذى لابد أن أبذله ، والوقت الطويل الذى يجب أن أقطعه حتى أصل الى قلعته الحصينة القديمة ! إنه شاب لا يمكن أن تخاف الفتاة على نفسها وهى فى معيته . فهو ليس لطفى أو أشرف آخر ! وكنت أضحك بينى وبين نفسى على أن الوضع مع فهمى ربما انقلب تماما اذ يصبح الخوف عليه لا على الفتاة !

وقد نجحت فى اغرائه بأن يحكى لمحة عن حياته العاطفية التى لم أجد فيها سوى قصة حب يائسة من طرف واحد عندما كان طالبا بكلية التجارة . كانت المرة الوحيدة التى نبض فيها قلبه وهو مدرك تماما عجزه الكامل عن فتح بيت للزوجية فى ظل ظروفه الطاحنة فى ذلك الوقت ، ومع ذلك تجرأ وصارحها برغبته فى الزواج منها دون أن يكون على أية علاقة بها سوى الزمالة العابرة ! ذهلت الفتاة لدرجة الصدمة التى لم تتوقف عند هذه الحدود ، بل هرعت لتشكوه للدكتور غلاب الذى سرعان ما استدعاه وأنبه برقة طالبا منه أن ينتبه لمستقبله أولا وأخيرا ! انحنى فهمى له شاكرا للنصيحة ، وأقسم بعدم العودة الى مثل هذا النزق والطيش مرة أخرى ! لكن العجيب الذى لم يفهمه فهمى أن الفتاة اشتغلت كمعيدة بعد ذلك برغم عدم تفوقها فى السنوات السابقة ، وقد حصلت الآن على الدكتوراه ، وتعمل بالتدريس فى الكلية ، ومتزوجة من أحد الوزراء السابقين !

استمرأت نجاحى فحاولت استدراجه للإدلاء باسم زميلته أو باسم زوجها ، لكنه امتنع مصرا على أنها كانت درس العمر ، اذ كان من الممكن أن تتسبب فى رفته من الكلية واضاعة مستقبله كله ، مستقبله الذى لن يسمح لأية امرأة بتدميره . فقد قرر منذ تلك اللحظة البعيدة أن يبعد عن الشر وأن يغنى له ! لكننى سألته :

ـ وماذا يمكن أن يكون موقفك لو أن مستقبلك نفسه ارتبط بفتاة لم تستطع أن تمنع نفسك من الوقوع فى حبها ؟ !

ـ اذا كنت قد نجحت فى هذا وأنا لم أترك سن المراهقة بعد . . فلا يعقل أن أفشل وأنا فى هذه السن ! !

ـ لكن الحب سنة الوجود . . والحياة بدونه حياة ناقصة غير طبيعية !

تشاغل بالدق على بعض أزرار آلة أمامه محاولا إنهاء الحوار :

ـ كل شئ قسمة ونصيب . . فالأمر كله لم يتعد مجرد افتراضات !

لم أستطع أن أكتم غيظى ! إنه لم يفكر فىّ على الإطلاق برغم كل محاولاتى المستميتة التى ضاعفت من ارتباطى العاطفى به على عكس ما تصورت ! اجتاحتنى موجة من السخرية المريرة وأنا أقول له جملة أبى الشهيرة :

ـ إن قطار الحياة لا يمكن أن يفوت من يصر على اللحاق به . . حتى لو بالعربة الأخيرة قبل غروب الشمس !

رمشت عيناه خلف نظارته السميكة ، لكنه لم يرد ! لم أكمل له بالطبع بقية رأى أبى فى أن الأسرة نظام فاشل لأن المسئولية فيه تشغل مكان المتعة وتلغيها تماما ! فقد بحث أبى عن المتعة داخل أسرة جديدة وان كانت بدون أبناء !

لم يعرف قاموس حياتى كلمة « الفشل » ، فكيف أفشل مع هذا الشاب الطيب ، الودود ، الخجول ، البرئ ؟ ! فكرت فى استخدام الأسلحة التى كنت أربأ بالأخريات أن يستخدمنها ! لكننى فى النهاية أنثى لابد أن تشعر أنها مرغوبة من الرجل الذى

مال اليه قلبها ! أقبلت على شراء الأزياء التى تبرز مفاتن الجسد ، واكتشفت سحر جسدى برغم ضآلته ! فقد ظهر تناسقه البديع لكل ذى عينين ! وأدركت كم كان الدكتور غلاب خبيرا بالنساء وذواقة للجمال ؟ ! وهو الذى لم يتوقف عن الإطراء على جمالى كلما رآنى فى مكتبه على انفراد ، بل وأضاف اليه فى الفترة الأخيرة بعض الكلمات واللمحات واللمسات التى أعادت الىّ شكوكى وظنونى القديمة برغم مشاهدتى لجمال زوجته المبهرة ! كانت نظراته تكاد تحتضن جسدى وهو يكرر على مسامعى :

ـ معك أشعر أننى عدت الى سن الثلاثين أو أقل !! لا أعرف ما الذى ينتابنى كلما رأيتك وأنا الخبير المحنك الذى عرك الحياة والنساء فى الداخل والخارج ؟ ! وأنت الفتاة البريئة البسيطة فى جمالها وسلوكها وكل شئ ؟ !

لم أكن أملك سوى حمرة الخجل لأرد بها على اطرائه المخيف المحير ! فيربت على كتفى وذراعه تكاد تحتوينى :

ـ فى عملى كما فى حياتى الخاصة أحب دائما أن يكون اللقاء فى منتصف الطريق . . فالمبادرة من طرف واحد هى فرض للذات وقد يقابل برفض الآخرين !

لم أكن أفهم ما يعنيه فى ذلك الوقت ، لكن ثقتى فى نفسى لم تترك للخوف الحقيقى ثغرة كى يتسلل منها الى قلبى ! كنت ممسكة دائما بدفة حياتى ، ولم أهتم بمناورات الآخرين أو ضغوطهم طالما أنها لا تؤثر على الطريق الذى تشقه سفينتى بين

الأمواج ، وطالما أن بوصلتى محصنة ضد كل المجالات المغناطيسية التى لا أرغب الدخول فى دواماتها !

شرعت فى استخدام الأسلحة التقليدية للأنثى فى مواجهة نظارة فهمى السميكة ! حرصت على الجلوس بفساتينى الخفيفة واضعة ساقا على ساق تاركة الذيل ينهمر على طرفى المقعد ، والفرصة لتسلل عينيه ! كان مكتبى مواجها له دون ما يستر سيقانه أو سيقانى ! وسرعان ما نجحت التجربة التى لم يثبت فشلها منذ أيام آدم وحواء ! بدأ يتطلع أسفل المكتب من طرف خفى فى حين تظاهرت بالإنهماك فى بعض القوائم والأرقام ! وعندما اعتاد متعة النظر بدأت فى الإمساك الباسم بتلابيب عينيه المتسللتين ولسان حالى يقول له : قفشتك ! فيهرع محرجا الى كشوفه وآلاته الحاسبة ليلوذ بها ! لكن شيئا داخله كان قد تغير ، وانهار السد الذى حرص على تدعيمه منذ حادث الكلية كما كان يسميه !

عرفت الإبتسامة المتأنية المترددة طريقها أخيرا الى وجهه ! واعتاد اطراء أناقتى ثم تهور ونسى أو تناسى وامتدح جمالى وكأنه ارتكب فعلا فاضحا ! تسللت عيناه خارج باب الغرفة خشية أن يكون أحد قد سمع همساته اللاهثة خوفا ! لكننى داعبته بأن زميلته فى الكلية صدمت لأنها لم تره على حقيقته الأصيلة ، ولو رأتها لكان من الممكن أن تقبل عرضه للزواج ، لكن حمدا لله لأنها لم تقبل ، وإلا كانت مصيبته الكبرى وهو لا يملك إلا ما يقيم به أود أسرته فى ذلك الوقت ! انفجر ضاحكا لأول مرة من أعماق قلبه ، فتأكدت من أنه بلع الطعم ! فقد بدأ هو أيضا فى تفصيل الحلل الجديدة ، وشراء الأحذية الأنيقة ، وأربطة العنق المستوردة ، واستخدام العطور التى أبديت نشوتى بها ! لدرجة أن الدكتور غلاب نفسه علق على هذا التغيير ضاحكا :

ـ لابد أن كيوبيد قد أصابك أخيرا يا فهمى بسهم من سهامه !

ابتسم فهمى محرجا على سبيل مجاراة الجو لكن الدكتور أضاف :

ـ وأرجو أن يكون سهما غير ملوث حتى لا تصيبك مضاعفات الحب !

لم يفهم فهمى وخرج من المكتب محرجا ليقص علىّ ما دار داخله ، لكننى لم أستوعبه أيضا ! فبحار الدكتور غلاب عميقة ويصعب بلوغ قاعها ! خاصة وأن سلوكه معى أصبح صريحا ، ومع ذلك ظللت أتجاهل وأتعامى وأتهرب لحين بلوغ شط الأمان

مع فهمى . فزواجى من فهمى لابد أن يضع حدا لمثل هذه المناورات التى لم تعد خافية علىّ ، وإن كانت خافية على كل الزملاء والزميلات بما فيهم فهمى الذى لم يتخل عن كتمانه وتحفظه برغم بوادر تصريحاته بأنه أصبح متعلقا بى ! ومع ذلك لا يمكن أن أنسى ما تفتق عنه ذهن الدكتور غلاب بعد رؤيته لأزيائى الجذابة الأنيقة التى ربما ظن أننى ارتديها له خصيصا !

● ● ● ● ● ● ● ●

السرعة التى أكتب بها لا تكاد تصدق ! كتبت ما يقرب من عشر صفحات فيما لا يزيد على ساعة ! تدفق الخواطر والذكريات والأفكار والتأملات مثل فيضان كاسح لا يعترض مجراه عائق منذ أن انهار السد هذا الصباح !! إن مراجعة الإنسان لحسابات حياته الشخصية أخطر ألف مرة من مراجعة أى شركة لحساباتها مهما بلغت من ملايين ! كم سهرت الليالى من أجل حسابات الدكتور غلاب والأستاذ فهمى ! الحسابات التى لا أعرف من أين تنبع وأين تصب ؟ ! فهى شبكة أخطبوطية تمتد خارج حدود مصر ، وتزخر بالأسماك الضخمة التى تصل فى حجمها الى حجم الحوت والقرش ، أما نحن فلسنا سوى أسماك الزينة الدقيقة أو البيساريا التى ربما سقطت من ثقوب الشبكة ، أو دخلت فى باطن الحيتان دون أن يشعر بها أحد ! سهرت الليالى من أجل هذه الحسابات ، فلا أقل من أن أسهر ليلة من أجل نفسى كى أراجع ما فعلت ، وأحسب مواطن الخطأ والسهو حتى أبدأ من جديد ، ولابد أن أبدأ من جديد !

● ● ● ● ● ● ● ●

كثرت استدعاءات الدكتور غلاب لى فى الفترة الأخيرة وأنا أتعجب لهذا الكهل الذ لا يريد أن يهدأ أبداً ! فى حين يعانى الشاب الذى يشاركنى غرفتى من هدوء مزمن ! وفى كل مرة كنت أجد بعض الملفات والمراجع متناثرة على أرض مكتبه أسفل الرفوف البللورية الأنيقة التى كانت تحملها ، وهو يصرخ طالبا السكرتيرة حتى تعيدها الى مكانها ! لم يحدث أن دق الجرس أو طلبها فى الديكتافون مما يضطرنى الى الإنحناء أو الجلوس القرفصاء لإنجاز المهمة ، فيسرع لمشاركتى اياها بعيون الصقر ! ونظراته تسلل عبر فتحة البلوزة باحثة عن مفرق النهدين ، ثم يجلس القرفصاء لتتسلل عبر مفرق الفخذين اذا ارتبكت دون أن أدرى ، وانهمكت فى لم الملفات وترتيب المراجع ، لكن سرعان ما كنت أضم ساقىّ ، فيعود أدراجه الى مكتبه مقهقها !

على كل حال لم تتكرر المحاولة أكثر من مرة واحدة بعد ذلك . فقد عدت الى ارتداء البنطلون الجينز خاصة وأن زميلات كثيرات كن يفخرن بارتدائه ! وحرصت على أن يكون فضفاضا حتى لا يبرز قمتى الردفين ومفرق الفخذين ، واستدارة الساقين ! ومع ذلك داعبنى ضاحكا بأن الجينز الواسع لا يختلف عن لباس البمبوطية ، وأن جماله فى ضيقه ! لكننى ابتسمت تاركة لحمرة الخجل الرد عليه كالعادة !

أدركت أن فهمى هو المنقذ الوحيد من هذه الورطة التى تزحف لتحتوينى بطريقة ناعمة خبيثة ، خاصة وأن الدكتور غلاب كرر على مسامعى أنه ليس من النوع الذى يتعجل الأمور

التى تبدو أروع وأجمل اذا تحققت بعد صبر طويل . كان يتكلم عن دنيا الأعمال التى علمته أن لكل شئ أوانه المناسب ، لكن عينيه قالتا أننى المقصودة بالصبر وليست دنيا الأعمال !

ألقيت بكل ثقلى على فهمى لدرجة أننى دعوته الى البيت لحفل عيد ميلادى الذى لم أتذكره منذ سنين عديدة ، وعندما قابلته أمى همست فى أذنى بعد دقائق على انفراد : جعله الله من نصيبك ! طيب وابن حلال وناجح فى عمله ! فى حين لم يبد حاتم الترحيب اللائق به فى بداية الأمر ، لكن فهمى بلباقته وحرصه ودقته وقدرته على الإقناع استطاع أن يحتويه تماما بحيث عقد العزم فى نهاية السهرة على البحث عن أى عمل يدر عليه أى دخل لحين عثوره على العمل الذى يناسب بكالوريوس الهندسة الذى يحمله . فالعمل فى حد ذاته ـ بصرف النظر عن نوعيته ـ قيمة عظيمة لا يعرفها غير أبناء الدول المتحضرة ! كما أن الإنسان هو الذى يمنح العمل قيمته وليس العكس !

عشت بعد ذلك شهورا عديدة تصورت فيها أننى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أحلامى فى مستقبل مستقر ولا أقول سعيداً ! كانت فترة كلها سفريات متصلة للدكتور غلاب ما بين السعودية والكويت ودول الخليج ، وأمريكا وألمانيا الغربية وفرنسا وايطاليا . وبرغم أنه كان يعود من كل سفرية وفى يده هدية رقيقة لى : زجاجة عطر باريسى ، نظارة شمسية على أحدث طراز ، قرط ذهبى صغير ، حزام جلدى فاخر ، إلا أنه كان بادى الإنشغال ! وحاولت أكثر من مرة أن أقاوم تدفق هذه

الهدايا ، فأنا لست سوى موظفة ضمن موظفين كثيرين ، لكنه رده كان عنيفا : لم يحدث أن رد أحد إليّ هدية قدمتها اليه ! وبرغم أنه واصل كلمات الإطراء المتصاعد ، فانه سرعان ما كان يحمل حقائبه الى بلد جديد . وكانت بعض سفرياته طويلة لدرجة أنه مكث فى أمريكا أكثر من شهر ونصف !

فى تلك الفترة عاش فهمى انطلاقه يبدو أنه لم يشهد مثلها من قبل فى حياته ، كما لو كان شبح الدكتور غلاب فى الغرفة المجاورة قد أصابه بما يشبه الشلل ! ولم أدرك السر فى هذا ! ففهمى محاسب ناجح وقدير للغاية بشهادة الدكتور نفسه ، فما الداعى لسلوكه المتحفظ الذى قد يصل فى بعض الأحيان الى الخوف التقليدى الذى يميز تصرفات موظفى الحكومة ؟ ! فى حين أن هذا الخوف ينقشع تماما بمجرد غياب الدكتور أو سفره الى الخارج ! فتنطلق ضحكاته بل ويمارس دعاباته البسيطة التى تعلمها أخيراً !

كان قد اشترى مؤخرا عربة مستعملة لكنه قام بتجديد محركها وطلائها باللون الأخضر الذى أفضله لأنه يثير البهجة داخلى ! وبدأنا فى الخروج معا بعد أن اتفقنا على فترة صداقة لعلها تكون اختبارا لنا لمعرفة مدى أوجه الإختلاف والإتفاق بيننا قبل أن نعلن خطبتنا . ويبدو أن عملنا فى الحسابات جعلنا نحسب لكل شئ حسابه ، حتى فى الأمور العاطفية التى يترك الآخرون أنفسهم لها كى تجرفهم الى حيث تشاء ! لكننى اكتشفت أن تحفظه معى لم يكن بدافع الحكمة والرزانة والعقل

بقدر ما كان نتيجة لخوف دفين داخله لم أدرك كنهه ولم أصل الى عمقه ! لدرجة أنه لم يحاول أن يقبلنى أو حتى يمسك بيدى اذا أتيحت له الفرصة ! كان ينطلق بالعربة - بعد أن تمرس بالقيادة وتمكن منها - الى أماكن الخلاء البعيدة التى يحلو للعشاق اللجوء اليها : الهرم ، المعادى ، حلوان ، القناطر الخيرية ، المقطم ، لكن بمجرد أن تميل الشمس الى الغروب ، كان يدير محرك العربة فى طريق العودة بعد أحاديث ذات شجون حول أمه وأخته المتزوجه ، وذكريات الدراسة ، وأيام العمل فى مصلحة الضرائب ، واعتزازه البالغ بعمله مع الدكتور غلاب الذى يشعر أن مصيره مرتبط به منذ أيام الدراسة !

كنت أتفنن فى تجميل وجهى وأناقة مظهرى عند الخروج معه ، لكنه لم يحدث أن غازلنى سوى مرة واحدة عندما عبر عن نشوته بالعطر الذى استخدمه ، والذى لم يعرف أنه هدية من الدكتور غلاب نفسه ! ومرة أخرى انتهزت فرصة درايته بقراءة الكف التى عرفها من أمه ، وفتحت له كفى ليتفحصها بنظارته السميكة ويقول كلمات لم أستوعبها بل لم أسمعها . كنت مشغولة بأنفاسه الساخنة على كفى التى قربتها من شفتيه عمداً فاذ به يَفْجُر ويقبلها ، لكنه سرعان ما أعادها الى حجرى وكأنه يعتذر عما بدر منه فى حين أشاح بوجهه بعيدا تجاه الهرم الأكبر والصحراء الشاسعة المحيطة به ! كانت الرغبة تومض فى عينيه برغم سمك نظارته ، لكن سرعان ما كانت الحواجز والسدود تحيط بها من كل جانب حتى تخنقها فى النهاية !

كم تعجبت لتناقضات هذه الدنيا ؟ ! أشرف الذى يلهث خلف منى ولا يتورع عن أية خطوة تؤدى بها الى فراشه ، وفهمى الذى يقبل كفى فينتابه احساس من اغتصب عذراء !! فهمى الذى لم تعرف عنه هالة ومنى شيئا لظنهما أن العاطفة لا يمكن أن تعرف طريقها الى قلبى ! كانتا مشغولتين بهمومهما وآمالهما وآلامهما ، وكأن المفروض أن أستمع اليهما وأنصحهما كلما كان فى إمكانى برغم أننى كنت أصغر من هالة بعدة شهور ! ولا أنكر أننى كنت مستمتعة بهذا الدور الذى يناسب ثقافتى الواسعة ، كما أننى لم أحب أن أتساوى معهما فى طرح مشكلاتى العاطفية على بساط البحث وكأننى لا حول لى ولا قوة ، حتى لو وجدت معهما الفرصة لذلك ! وكانت هالة تداعبنى بأننى عندما أحب شابا ما وأقرر الزواج منه ، فإننى سأتقدم فورا لخطبته من أبيه أو ولى أمره الذى لن يستطيع رفض طلبى طالما أن الشاب قد أضاء لى الضوء الأخضر للإقدام على هذه الخطوة ! لكن الخوف كل الخوف أن ينكر الشاب قبوله لى خوفا من أبيه مما قد يسبب لى احراجا ما بعده احراج !! وكنت أكمل الدعابة لهالة بأننى عندئذ سوف أقوم باختطافه عنوة أو سراً حتى أنقذ ماء وجهى وألقنه درسا فى الرجولة والصدق !!

أما منى فقد غرقت فى حب أشرف حتى أذنيها بل وعينيها ، فلم تر فى الدنيا سوى مشكلتها لدرجة أنها لم تسألنى عن حياتى العاطفية إلا بعد أن هجرت أشرف ، يوم جاءتنى وظلت جالسة فى الشرفة حتى استيقظت من نوم ثقيل لم يأت الا بعد نصف

قرص من الأقراص المنومة تناولته لأول مرة فى حياتى حتى أهرب - ولو مؤقتا - من الوقوع بين شقى الرحى : الدكتور غلاب والأستاذ فهمى !! المد والجزر ، الهجوم والتقهقر ! سألتنى يومها :

- ألم تفكرى فى الحب أو الزواج بعد ؟ !

فلم أجد ردا سوى :

- يبدو أننا فى زمن مات فيه الحب !!

ثم أكدت لها أننى لن أتنازل عن كرامتى وانسانيتى من أجل رجل ، مهما كان هذا الرجل ! بل إننى أفضل ظل الحائط على ظل الرجل ! فلن يفكر الحائط أن يذلنى فى يوم من الأيام أو يرى فى جسدى مجرد لعبة أو متعة عابرة !! وكانت كلماتى تقطر مرارة لعل منى لم تلحظها ! فقد كنت أمر بفترة حالكة بلغت قمتها ثم انحسرت صباح اليوم أو صباح أمس بمعنى أصح بعد أن اجتازت الساعة الصغيرة القابعة على مكتبى منتصف الليل بما يزيد على ساعة !

كانت حبيبة عمرى هالة قد رحلت بعد تلك الليلة الليلاء التى طاردنا فيها لطفى حتى وكره فى المعادى ! عدنا ولسانى لم يسكت عن تشجيعها حتى لا تجبن أمام تهديداته . أكدت لها أن صمودها المفاجئ فى مواجهته لم يكن سوى ميلاد جديد لها ! وأننى سأصطحبها لتقضى الليلة معى ، فلا يمكن أن أتركها على تلك الحال ! لكنها أجبرتنا على تركها ، ونادرا ما كانت تجبر أحدا على فعل شئ !! لم أعرف القلق مثلما عرفته فى تلك الليلة

التى لم تنته إلا بدقات جرس الباب عند الفجر ومايسة تقف باكية مرتعشة بالنبأ الرهيب الذى نقلته البومة الى أسرة هالة ، فقد كانت تعرف جيدا أن بيتها يقع أمام ورشة ابنها ! وحصُلت لأول مرة على بعض الإجازات المتقطعة من الشركة حتى أكون بجوار هالة فى المستشفى ! لكن حالتها لم تتحسن فى الأيام المعدودة التى قضتها هناك برغم الرعاية المكثفة ! تحول ضعفها الى غيبوبة فى أحيان كثيرة تخللتها كلمات وجمل متقطعة ورد فيها اسمى مع اسم لطفى ومنى ومايسة ، بل ونادت أباها الذى كان قد رحل قبْلها برغم ما جرى بينهما من قطيعة ، مما قطع نياط قلب أمها التى لازمتها على الفراش المقابل فى الغرفة البيضاء !

لا أنسى احساس الذنب الذى كاد أن يقتلنى فى تلك الأيام الحالكة ! كنت الدافع وراء مواجهة هالة للطفى ، ثم رضخت وتركتها لنفسها فى تلك الليلة ظنا منى أنها ذاقت أخيرا طعم القوة والإرادة ، ولن تتخلى عنها ! ثم جرى ما جرى ولم أعرف فعلا هل كان قضاءً وقدراً أم أنها شرعت فى الإنتحار هربا من الكابوس ؟ خاصة وأنها حاولته قبل ذلك على سبيل الضغط على أبيها عندما حاول اجبارها على هجر دراستها ؟ ! لم أحتمل وطأة الإحساس القاتل بالذنب خاصة وأن لطفى كان السبب فى هذه المأساة منذ البداية برغم تحذيرى المتكرر لها حتى لا تتزوجه ! انتهزت فرصة تقهقر الغيبوبة الى الوراء وعودة وعيها ، فأقسمت لها أننى سأنتقم من لطفى وهيام اذا لم تغير أقوالها وتعترف بمحاولتها الإنتحار هربا من جحيم لطفى ! ورضخت لرأيى

وعاد رئيس المباحث ليستمع الى أقوالها الجديدة ويسجلها ! لكن هالة كانت مقتنعة برأى أختها مايسة الطالبة بالحقوق ، والتى أكدت لها أن ما فعله لطفى معها لا يقع تحت طائلة القانون الجامد الأصم الذى لا يعترف الا بما هو مسجل فى المحاضر والأوراق الرسمية !

وبالفعل ثبتت صحة رأى هالة أو مايسة ! كنت أظن أننى سأوقع بلطفى تحت طائلة القانون ، لكننى اكتشفت أن ما فعله معها ، يفعله آلاف الأزواج يوميا ! ولجأت الى محامى شركتنا ، وهو أستاذ ضليع فى القانون ، فأفتى بضرورة وجود سبب مادى ملموس مثل ضرب أفضى الى موت ! أما الزواج من ثانية والحصول على ثروة الأولى برضاها فكلها أمور قانونية تماما ! عندئذ تذكرت ما قرأته من قبل ، وما كررته على مسامع هالة ومنى من أن الجرائم التى ترتكب داخل الزواج أبشع وأخبث من تلك التى تقع خارجه والتى يقف منها القانون موقف صريحا !!

كنت أظن أن أمواج الإحساس المتدفق بالذنب يمكن أن تقف عند حد معين ، لكن رحيل هالة جاء ليغرقنى بين لججها التى صرخ صخبها بأننى التى قتلتها ، أو على الأقل تسببت فى مصرعها بعد أن دفعتها الى موقف لا تحتمله طبيعتها الرقيقة ! طاردنى الكابوس ليل نهار ! حتى فهمى لاحظ شحوبى وهزالى لكنى تعللت بأى شئ إلا بالأسباب الحقيقية التى لم أقصها عليه بعد أن منعنى تحفظه وحرصه من أن أترك نفسى على سجيتها معه !

انقلب الإحساس بالذنب الى رغبة محرقة فى الإنتقام والثأر ، وقررت الوصول الى لطفى من الثغرة التى قادنا اليها منير أخى منى : سهرات الحشيش والأفلام الفاضحة التى يقيمها لصاحب الورشة فى وكر المعادى !! وظلت الرغبة تنتابنى بين الحين والآخر كلما فكرت فى رجل الشرطة أو النيابة الذى يمكن أن يقوم بهده المهمة ، وانتهزت كل الفرص للسؤال والإستفسار والتقصى ، لأننى رفضت رأى منى بالإبلاغ عن لطفى ببساطة هكذا ! فلابد أن يكون الأمر متقنا حتى لا يفلت لطفى هذه المرة بجريمته !

وجاءت الفرصة على طبق من فضة ! وفى مكتب الدكتور غلاب نفسه ! كنت أعتمد منه بعض الملفات واذ بضابط كبير الرتبة ، لم أعرف ما هى على وجه التحديد ، وانما قدمنى اليه الدكتور على أنه عصام بك ابن أخته الكبرى ، وأحد أساطين شرطة الآداب فى مصر ! فى الحال تربعت هالة حبيبة عمرى على وجدانى وفكرى ، واذ بى أقص عليه حكايتها من الألف الى الياء بايجاز محكم ! ولم يندهش الدكتور غلاب للقصة التى عاصر تفاصيلها منذ أن منحنى إجازة لمرافقة هالة فى المستشفى ، لكنه ذهل عندما سمع الجزء الذى لم يعرفه ، والخاص بسهرات الحشيش والأفلام الفاضحة !! لدرجة أنه علق قائلا :

ـ لم أعرف أن تلك الفتاة البريئة الجميلة التى عملت فى شركتنا . . خبيرة بالحياة الى هذا الحد ؟ ! لأول مرة يخوننى ذكائى !!

لم أدرك معنى تعليقه فى تلك اللحظة لإنهماكى فى تقديم كل المعلومات الممكنة لعصام بك الذى أول الموضوع اهتماما مخلصا ! شعرت ببرد الراحة يسرى فى قنوات النار المشتعلة داخلى وأنا أكتب البيانات التى ستقود لطفى أخيرا الى مكانه الحقيقى فى المجتمع ! وانتهت المقابلة وكلى أمل ألا تضيع حياة هالة هباء ، كأنها لم تكن !

وانتظرت النتيجة على أحر من جمر ، وكان الدكتور غلاب يؤكد لى بصفة شبه يومية أن عصام بك يوالى الموضوع عنايته ، وفى الوقت نفسه يسألنى مداعبا عما اذا كنت قد حضرت احدى هذه الجلسات أو شاهدت أحد هذه الأفلام مع صديقتى هالة ، وكان ردى كالعادة حمرة الخجل وهى تسرى فى وجهى مع عدم القدرة على مواجهة عينيه ، لكن يبدو أنه ظن أن حرجى معناه الخجل مما فعلته ، فنفيت بشدة ، خاصة وأننا لم نذهب الى وكر المعادى إلا فى تلك الليلة المشئومة !

ومع ذلك تطور سلوك الدكتور غلاب من التلميح الى التصريح بحيث لم يعد يحتمل أى لبس أو شك ! تشبثت مرة أخرى بالتجاهل والتعامى والتهرب وأنا كلى شوق وقلق لتقصى أخبار لطفى التى استغلها الدكتور ليخبرنى بأن له شقة فى المعادى أيضا ، لكنه يشاهد فيها الأفلام الراقية التى حازت الجوائز العالمية ، ويدعو اليها بعد الزملاء والزميلات ! ثم ضغط بمنتهى التأنى على كلمة « الزميلات » ! ومرة أخرى قرب وجهه من وجهى وكأنه كان على وشك أن يقبلنى ، وعندما نأيت مسرعة

ضحك وقال إن رائحة أنفاسى أجمل من أى عطر باريسى ، لدرجة أنها أسكرته بنشوتها ! ولدرجة أننى تأكدت أنه لم يعد لى أى اختيار إلا اطالة فترة عملى بقدر الإمكان لعله يعود الى صوابه أو أضطر فى النهاية الى ترك العمل ، وهو قرار ليس سهلاً أبداً ! وفى الوقت نفسه قررت أن أفاتح فهمى فى كل شئ ! وكانت المفاجأة المذهلة التى لم أتوقعها على الإطلاق عندما قصصت عليه تفاصيل ما دار بينى وبين الدكتور غالب !

● ● ● ● ● ● ● ●

أخيرا بدأ الإسترخاء يسرى فى جسدى المشدود برغم الطوفان الذى لا يزال يفور ويمور داخله ! لكن يبدو أننى على وشك أن أتجاوز الصدمة ! المهم أننى لا زلت مها الهزاز بارادتها الحديدية ! كم داعبت نفسى وأنا أحمد الله على أن لقب أسرتنا الهزاز وليس المهزوز ! فكرت أكثر من مرة فى النهوض وارتداء قميص النوم الخفيف النضفاض المناسب لهذه الليلة الساخنة ، لكن الأفكار والخواطر الهادرة من أعماق أعماقى ، والحروف والكلمات المتدفقة من سن قلمى تشدنى الى المكتب والصفحات كقيد مغناطيسى غير مرئى ! تجاوزت الساعة الصغيرة على مكتبى الثانية صباحا ولا يزال النوم بعيدا عن جفونى ، بل ولا رغبة لى فيه على الإطلاق حتى اذا جاء ! كيف أنام وأنا أمر بمرحلة ميلاد جديد ؟ ! بعد أن نجحت فى الهروب بل والتصدى لعالم أكلة لحوم البشر كى أعيش الربع الأخير من القرن العشرين ! آه . . ما أروع هذه الصخرة البارزة وسط أمواج المحيط التى تضربها فى

عنف ثم سرعان ما تنحسر بعيدا عنها كأنها لم تكن ؟ !

● ● ● ● ● ● ● ●

أشاح فهمى بوجهه بعيدا عبر صحراء الخريف الممتدة أمام الكازينو الهادئ ، ورموشه ترتعش خلف نظارته السميكة . جرى بيده المشدودة على شعره الأكرث ، وكرر السؤال دون أن ينظر اليّ :

ـ كيف حدث هذا ؟ !

ـ كما قلت لك !

انخفض صوته الى درجة فحيح الهمس ومع ذلك بدا عريضا مرتفعا فى سكون المكان :

ـ كنت ألاحظ حمرة وجهك فى كل مرة تعودين فيها من مكتبه !! لماذا لم تصارحينى بما دار بينكما منذ بدايته ؟ !

ـ كنت أمنى نفسى لعله يعود الى صوابه حتى لا أضطر فى النهاية الى ترك العمل !

رمشت عيناه وهو يستدير لينظر الى عينى عند سماعه الجملة الأخيرة :

ـ وهل تفكرين فعلا فى ترك العمل ؟ !

ـ اذا خيرت بين الكرامة والعمل . . فليذهب العمل الى الجحيم . . هناك ألف عمل وعمل . . وأنا واثقة من كفاءتى التى شهد لها الجميع وأنت أولهم . . أما الكرامة اذا ذهبت فلا أعتقد أنها يمكن أن تعود مرة أخرى !!

ـ أنت تأخذين الأمور بحد السيف !! فنحن فى زمن لا

سأقوله لك لأحد !!

كان حجمه يتضاءل تدريجيا لكننى قررت الوصول معه الى نهاية المطاف :

ـ أعدك . . وأنت تعلم مدى احترامى لكلمتى !

ـ اشتهر الدكتور غلاب منذ أن كنت تلميذه فى كلية التجارة بولعه الشديد بالنساء . . وكان على استعداد ليضع نفسه تحت أمر أية طالبة جميلة . . أما الطلبة فلم يكن يحتمل وجودهم فى صحبته . . ولو جرؤ أى طالب على السؤال أو التعليق فى المحاضرة فلا يلقى منه سوى الإستهزاء والسخرية . . أما ابتسامة طالبة جميلة له فكانت كفيلة باطلاق كل مرحه من عقاله ! حتى زوجته الجميلة الأرستقراطية التى كانت فى حفل الإستقبال . . كانت احدى تلميذاته !! تزوجها بعد أن طلق زوجته الأولى التى أنجب منها فتاة لا تصغرك كثيرا فى السن !! ومع ذلك لم يقنع بالزوجة الصغيرة الجميلة الغنية . . ولم يستطع أن يمنع لعابه من أن يسيل على أية فتاة حتى لو كانت فى سن ابنته . . وكنت قد قصصت عليك من قبل قصة الزميلة التى أحببتها من طرف واحد برغم تأكدى من عجزى عن فتح بيت للزوجية فى ظل ظروف التلمذة الطاحنة ! لم تستطع مراهقتى أن تصمد فى مواجهة جمالها الصارخ فتجرأت وصارحتها برغبتى فى الزواج منها ! فما كان منها إلا أن صدمت وهرعت لتشكونى للدكتور غلاب الذى رحب بها وأنبنى لعدم حرصى على مستقبلى . لكننى لم أقل لك عن السبب الكامن وراء اشتغالها

يستطيع فيه الإنسان أن يفرض كل شروطه خاصة اذا كان محتاجا !!

ـ ماذا تقصد ؟ ! لقد جئت معك خصيصا اليوم لأعرف رأيك فيما حدث !!

ـ أنت لا تعرفين الدكتور غلاب على حقيقته ؟ !

ـ سألتك أكثر من مرة عنه . . فلم ألق منك سوى التحفظ والتهرب من الإجابة !!

نقر على المائدة بأظافر أصابعه الرفيعة المشدودة ، فلم يتوقع هذه المواجهة التى لم يحدث مثلها بيننا من قبل . اختلجت نبراته المرتعشة :

ـ إننا نعيش فى خير الدكتور غلاب . . ومن الحكمة أن نعالج الأمر بدبلوماسية !

ـ منك نستفيد !

شعر باجابتى كطلقة رصاص فأشاح بوجهه عبر الصحراء مرة أخرى :

ـ أنت أدرى بأبعاد الموقف كله . . وبالتالى أدرى بحلوله المحتملة والممكنة !!

تجرعت تحفظه وتهربه كقطرات علقم فى فمى وعلى لسانى :

ـ لم يعد هناك حل ممكن سوى أن أستسلم له أو أترك العمل !

ـ سأحكى لك كل ما أعرفه عن الدكتور غلاب لعله يساعدك فى اتخاذ قرارك . . لكن إقسمى أولا أنك لن تبوحى بما

معيدة بعد ذلك برغم عدم تفوقها فى السنوات السابقة ، ثم حصولها على الدكتوراة وعملها بالتدريس فى الكلية بعد ذلك !!

صمت ليبتلع ريقه الجاف ، فقطعت صمت المكان الذى أضاء أنواره الداخلية الخافتة بعد هبوط ظلال المغيب على الصحراء الممتدة أمامه :

- خمنت السبب وقتها . . لكننى لم أتأكد منه سوى الآن !!
- بعدها قررت ألا أسمح لأى امرأة بأن تدمر مستقبلى !
شعرت هذه المرة أننى المرأة التى يقصدها :
- وأنا لن أسمح لأى رجل بأن يدمر كرامتى !
- إنه قرارك أولا وأخيرا !
- وأنت . . أليس لك دور فى كل هذا ؟ ! ألم نتفق على الخطبة ثم الزواج ؟ !
تجاهل السؤال بتحفظه الذى أصبح مقيتا :
- وأنا تحت أمرك فى أية مساعدة تطلبينها !
- لاحظت فى بعض الأحيان . . خاصة فى حفل الإستقبال . . بعض النظرات غير المريحة فى عيون بعض الزملاء والزميلات . . فهل انتابهم الشك فى أخلاقى نتيجة لإهتمام الدكتور الزائد بى عن الحد ؟ !

أشاح بوجهه مرة أخرى عبر الصحراء التى أوشكت ملامحها على الاختفاء فى الظلام :

- لا أعتقد أن أحداً منهم يعرف شيئا عن حياته الخاصة !
- ألم يحاول الدكتور غلاب مع زميلات أخريات ما حاوله

معى ؟ ! ومنهن من هى أكثر جمالا وأناقة منى ؟ !
ـ لم أعرف ما دار بينك وبينه إلا منك . . فكيف أعرف بالتالى شيئا عنهن ؟ !
ـ ولماذا لم تسألنى عن السر فى حمرة الخجل التى كنت أعود بها من عنده فى كل مرة ؟ !
ـ لا أستطيع أن أفرض نفسى عليك لتبوحى بما لا ترغبين فى الإفضاء به !
ـ تحدثنى كأنك غريب !! تصورت أن الحواجز قد زالت بيننا مع الأيام . . لكن يبدو أنها آخذة فى الإرتفاع والرسوخ . . بدليل أن موضوعا مثل هذا يمس حياتنا فى الصميم لم أعرف فيه رأيك بعد ؟ !

فجأة ومضت عيناه برغم نظارته السميكة وكأن لسان حاله يقول : وجدتها :
ـ لكن ما الذى دعا الدكتور ليحاول ما حاوله معك ؟ !
لم يعد تحفظه الشئ الوحيد المقيت فيه :
ـ تجيد اختيار الألفاظ بدبلوماسية يحسدك عليها الساسة العتاة !! تقصد ما الذى أغرى الدكتور ليحاول ما حاوله معى ؟ !
سارع للإجابة بنبرات مرتعشة :
ـ لم أقصد شيئا على الإطلاق ؟ !
ـ تريد التشكيك فى أخلاقى حتى تهرب بجلدك من الورطة التى تظن أنك وقعت فيها ؟ !

- صدقيني لم أقصد شيئا مثل هذا على الإطلاق؟!
- لو واصلت تهربك بهذا الشكل.. فلا تتصور أنني سأواصل حصارك فلست من البنات اللاتي يسعين للإيقاع بزوج.. بأي زوج.. فالزواج في نظري شركة متكافئة بين طرفين ناضجين وبرضائهما واقتناعهما الكاملين.. أما اذا كنت تشعر أن ارتباطك بالفتاة التي يخطط الدكتور للإيقاع بها.. سوف يتسبب في تدمير مستقبلك الذي تحرص عليه كل الحرص.. فليس هناك ما يربطنا سويا منذ الآن.. وأنت في حل تام من أي وعد تكون قد قطعته لي على نفسك.. وان كنت لا أتذكر أنك وعدتني بأي شي محدد!!

صمت لألتقط أنفاسي اللاهثة وأتأمل الجانب الأيسر لوجهه الذي يصر على عدم مواجهتي، فلمحت شبه ارتياح يسري في حاجبه وطرفي عينيه وفمه. فواصلت زحفي حتى المعقل الأخير:

- كما أن علاقتنا بالمكتب ستظل كما هي.. علاقة زمالة قائمة على الأحترام.. هذا لم أترك العمل!!

واصل صمته فلم أعد أحتمله:

- أليس لك رأي في هذا أيضا؟! هل السكوت علامة الرضا؟!

تلفت حوله في حذر وحيطة فوجد المكان قد امتلأ بالعشاق الذين أتوا من مصر الجديدة أو من خارجها. فالكازينو يقع على أطراف مصر الجديدة عند حافة الصحرا، ويعتبر مكانا مثاليا للهمسات واللمسات والنظرات والعبرات. همس فهمي

بصوت مبحوح :

ـ لم يعد المكان صالحا لمناقشة مثل هذه الموضوعات ؟ !

لا يسأم التهرب والمرواغة أبداً ! لا يمكن أن أقضى عمره مع رجل من هذا النوع ! ورب ضارة نافعة فعلا ! فقد كشفت محنتى مع غلاب عن معدن هذا « الفهمى » ! الذى ذكرنى بذلك « اللطفى » الذى بشرنى الدكتور غلاب صباح ذلك اليوم بنبأ القبض عليه فعلا مع صاحب الورشة فى شقته وهما يدخنان الحشيش ويشاهدان الأفلام إياها !

كان يجب أن أبتهج لنجاحى أخيرا فى الإنتقام من لطفى الذى دمر حياة حبيبتى هالة فعلا ، لكنه نجاح ذو مرارة غريبة . فقد صارحنى الدكتور فى ذلك الصباح عند نقل النبأ الىّ بأن حبال صبره قد قصرت أخيرا وعلى وشك أن تتقطع ، وأنه لم يقابل الفتاة التى راوغته وتهربت منه مثلما فعلت ! بل على النقيض من ذلك تماما ، فكثيرا ما تهرب هو من بنات أكثر منى أناقة وجمالا كن يتمنين مجرد التنازل والتعطف عليهن ، ومع ذلك لم يعرهن التفاتا ! فأنا لم ألق منه سوى كل اهتمام ورعاية وخير فى حين كان جزاؤه منى التعامى والتجاهل بل والصد والنفور وهو أمر لم ولن يتعوده ! حاولت للمرة الأخيرة نقل الحوار الى قناة أخرى :

ـ وأنا تحت أمر سيادتك فى كل ما تطلب !

ـ هل تعلمت فى كلية التجارة بيع الكلام ؟ ! ألم تتعلمى ألف باء التجارة التى تؤكد أن الحياة نفسها قائمة على تبادل

الأخذ والعطاء ؟ !

- وهل قصرت فى حق العمل فى شئ ؟ ! سيادتك كنت أول من شهد لى بالكفاءة التى تزيد فى مستواها على سنى كثيرا !!

- ها قد عدت الى المراوغة والتجاهل والتعامى مرة أخرى ! أنت تفهمين جيدا ما أعنيه !! وأعتقد أنك من الذكاء بحيث فهمتيه منذ البداية !

لم أجد ما أقوله فى وقفتى أمام مكتبه منكسة الرأس حتى لا أواجه عينيه بعد أن وضعنى فى قفص الإتهام وشرع فى القيام بدور الخصم والحكم ! استأنف :

- لست من النوع الذى يلهث وراء أحد ! الجميع يهرعون الىّ من مجرد اشارة من أصبعى أو ايماءة من رأسى لتلبية كل ما آمر به !

- وأنا تحت أمر سيادتك فى كل ما تطلب وتأمر به !

- كفانى كلاما معسولا . . سأمنحك فرصة أخيرة لتثبتى هذا عمليا !! وأرجو أن تكونى عند حسن ظنى كما كنت دائما !!

ساد الصمت لإنتهاء اللقاء الذى ختمه :

- تفضلى . . مكتبك لا يزال فى انتظارك . . وفكرى بعمق وحكمة فيما قلته لك !

تراجعت الى الخلف بنفس الرأس المنكس حتى خرجت من مكتبه . ذهل فهمى على اصرارى على لقائه فى المساء برغم اتفاقنا المسبق للقاء بعد خمسة أيام ! وفى لقاء المساء تحولت مرارة الصباح الى علقم فى فمى بعد ثبوت كل شكوكى التى

راودتني حول فهمي . وفقد نجاحي في الإنتقام من لطفي معناه ، فعلى الأقل رحلت هالة ولم تعد تهتم بما يجرى للطفى أو لغير لطفي ! أما أنا فكان اصراري على الإنتقام سببا في اسراع الدكتور غلاب بهجومه الأخير على معقلي الذي لا يزال صامداً ! ظن أنني لست بالبراءة التي أتظاهر بها ، فأنا على دراية ـ على الأقل ـ بجلسات الحشيش والأفلام الفاضحة ، كما أنه خدمني في الإنتقام من لطفي من خلال ابن أخته ، فلا أقل من أن أعترف « عمليا » بفضله عليّ بالإضافة الى أفضاله السابقة !

وها هو الرجل الذي ظننت أو تمنيت أو أملت أن يكون سندي في هذه المحنة ، يجلس متأملا فنجان الشاي الذي برد أمامه والذي لم يتناول سوى نصفه ، أما أنا فلم أقترب من فنجاني برغم حاجتي الى طعم السكر فيه ! إذ يبدو أن فهمي قد استراح لصمتي وشرودي فيما جرى في الصباح ! كان هناك بعض المقطوعات الموسيقية الخفيفة التي تصدح في أرجاء المكان بأضوائه الملونة الخافتة التي تنير طريق المستقبل على وجوه العشاق الذين شغلوا معظم الموائد ! مقطوعات طالما طارت بي على أجنحة الأحلام الوردية والنشوة الفضية ، لكنها أصبحت ضجيجا أوشك على إصابتي بالصداع !

كنت في كل لقاء معه أقوم بدور المضيفة اللبقة التي تعرف كيف تدير الحوار من موضوع لآخر مع ضيفها الذي لا يتكلم إلا مجيبا عن سؤال موجه اليه ولا مهرب منه ! لكنني في ذلك المساء الكئيب لم يعد لي ما أقوله فاذ بالصمت سيد الموقف برغم المكان

الذى فقد سكونه أخيرا مع الموسيقى الصادحة ثم الصاخبة مع الفرقة الموسيقية التى وصلت أخيرا ليرقص الرواد على أنغامها التى تلاعبت بالأضواء والأجساد ، والتى تظاهر فهمى بالإنصات اليها انصاتا لم ينطل علىّ ، ولم أحتمله أكثر من ذلك ، فنهضت لأخبره برغبتى فى العودة الى بيتى . نهض بدوره وكأننى ألقيت اليه بحبل النجاة !

أدار محرك عربته الذى أنست الى ضجيجه هربا من وطأة الصمت ! كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء ، والسيارة تعود أدراجها مخترقة قلب مصر الجديدة ، ومارة بجوار مستشفى هليوبوليس الذى ضاعف من كآبتى التى هربت منها بالترحم على هالة التى عشنا معها أياما كالكابوس بين ممراته وغرفه البيضاء ! كان فهمى منهمكا فى القيادة كرائد فضاء منطلق بصاروخه الى كوكب آخر ! فقد أثبت بسلوكه العملى أن كلا منا جاء من كوكب مختلف ، بلغة مختلفة ، وعقل مختلف ، ولا سبيل لأى لقاء بيننا !

توقفت السيارة القديمة عند ناصية شارع هارون الرشيد وشارع العقبة . هبطت منها وصوته المبحوح المختلج برعشة غريبة يقول : تصبحين على خير ! الى اللقاء غدا إن شاء الله ! لم يخرج من فمى سوى : إن شاء الله ! وأسرعت الى بيتى لتخبرنى أمى بأن منى مرت مرتين لكنها أصيبت بخيبة أمل عندما لم تجدنى ، ويبدو أن هناك ما يقلقها إذ أكدت أنها ستزورنى فى اليوم التالى !

لكن الصورة لم تكن قاتمة تماما ! فقبل دخولى الى غرفتى للنوم عاد أخى حاتم ليصارحنى لأول مرة برغبته فى العمل ولو مجرد مهندس تحت التمرين لحين عثوره على الوظيفة الملائمة . فقد اقتنع أخيرا برأى فهمى فى أن العمل فى حد ذاته قيمة عظيمة ، وأن الإنسان هو الذى يمنح العمل قيمته وليس العكس ! ابتسمت أخيرا لأن فهمى أثبت أن له نفعا فى شئ واحد على الأقل ، وسعدت بالتحول الذى طرأ على أخى الذى جلست معه حتى منتصف الليل نقلب الأمر على كل وجوهه ، وهو يصر على أن الدكتور غلاب هو خير من يمكن أن يوصى به خيرا ، لكننى صارحته لأول مرة بأن الأمر ليس بالبساطة والسهولة التى يتصورها لدرجة أن احتمال تركى للعمل أصبح قائما ! بهت حاتم مستفسرا عن الأسباب ، لكننى أوضحت له أن هذه هى طبيعة الأمور فى مثل هذه الشركات التى جاءت مع هوجة الإنفتاح ، وليس لها أى ضابط أو رابط ، وعلى أى عامل بها أن يتوقع أن يجد نفسه بلا مقدمات على الرصيف محروما من دخولها ، أو أن تغلق الشركة نفسها أبوابها بين يوم وليلة !

ندمت للإحباط الذى أصاب أخى ، ومع ذلك أكدت له أن لا حياة مع اليأس ، وأننى سأطرق معه كل الأبواب ! أطرق برأسه دون تعليق فتذكرت أبا منى الذى قضى حياته مفتشا فى مترو مصر الجديدة ، وكان أبا للجميع . عرضت على حاتم فكرة وساطته ليعمل فى ورش المترو التى تناسب قسم الميكانيكا الذى تخرج فيه ، فعبر عن مخاوفه من سخرية زملائه وأصدقائه

الذين لا يزالون فى انتظار وصول الوظيفة . عندئذ ذكرته برأى فهمى فى قيمة العمل فى حد ذاته ، وبخطورة أن يضع الإنسان حياته ومستقبله تحت رحمة الآخرين وسخريتهم ، خاصة اذا كانوا عاطلين !

ابتسم حاتم وقبلنى متمنيا لى ليلة سعيدة ! خرج وكأن الله كان قد أرسله لى ليخفف عنى بعض الشئ من مرارة اليوم الثقيل بصباحه ومسائه ! فقد كان لحاتم الفضل فى أن يتسلل النوم الى جفونى برغم كل ما حدث ! وإن كان متقطعا !

وفى اليوم التالى كنت سعيدة لأول مرة بتحفظ فهمى الذى ابتلعته قوقعته تماما ! لم يعد هناك ما يقال سوى كلمات مقتضبة حول الكشوف والأرقام والحسابات والإحصائيات ، دون تبادل النظرات ! وأيقنت أخيرا أن هذا هو الوضع الطبيعى مع فهمى اذا كان لى أن أستمر فى عملى الذى أصبح على كف عفريت فى مهب الريح ! فقد بدا الحكم مؤجلا بسفر الدكتور غلاب الى الخارج ، لكن صدوره أصبح وشيكا بمجرد عودته لدرجة أننى فكرت فى البحث عن عمل آخر فى أثناء غيابه إذ لا أحب أن يضيع زمام المبادرة من يدى أبداً ! وبالفعل عثرت على عمل فى مكتب للمحاسبة ، وإن كان مرتبه غير مشجع إذ لم يزد على ربع ما أتقاضاه بالفعل ! مما دفعنى الى تأجيل قرارى لحين عودة غلاب لعله يكون قد عاد الى صوابه ، وإن كان أملى فى هذا قد تبخر تماما !

عاد الدكتور غلاب من الخارج وهرع اليه كل من فى الشركة لتهنئته بسلامة العودة . وزع الإبتسامات والتحيات الشاكرة على الجميع متجاهلا اياى تماما ، فتعللت بالأمل القديم فى أن يكون قد أدرك حقيقة طيشه ونزقه ! لكن بمجرد انصراف الجميع وأنا فى ذيلهم ، أشار الىّ بالبقاء فقلت فى نفسى : جاءك الموت يا تارك الصلاة ! خلت الغرفة الفسيحة الفاخرة إلا منى ومنه بعد أن لمحت نفس النظرات غير المريحة فى عيون الخارجين وفى مقدمتهم فهمى الذى انشقت الأرض لتبتلعه فى لمح البصر ! ساد الصمت على وقفتى أمامه وهو يقطعه :

- هل أوحشتك ؟ !

- طبعا . . أوحشتنا كلنا !

- لا تتكلمى بصيغة الجمع !

لم أرد بعد أن أيقنت استحالة إصلاح ما أفسده الدهر . استأنف :

- ما هذا الشحوب والهزال ؟ ! هل هناك ما يضايقك ؟ !

ثم حاول افتعال المرح والدعابة :

- إذا كان سفرى قد ضايقك الى هذا الحد . . فإننى أعدك بأننى لن أسافر مرة أخرى ؟ !

أصابتنى موجة طاغية من الغثيان لدرجة أننى لم أحتمل مجرد النظر الى شعره المتهدل على مؤخرة صلعته ، وعينيه الجاحظتين ، وشفتيه الغليظتين ، خاصة السفلى التى تتدلى بلونها البنى الداكن ، وحلته الحريرية الرمادية ، وقميصه الكحلى ،

ورباط عنقه السماوى ، ومنديله المعطر المدسوس فى كم حلته ، وغليونه الذى ملأ السقف بسحابات من الدخان الخانق ! واصل تساؤله الثقيل :

ـ أين أناقتك المعهودة ؟ ! لماذا عدت الى هذا الجينز المستهلك ؟ ! والذى لا يتناسب مع مرتبك الآخذ فى الزيادة المستمرة ؟ !

فى تلك اللحظة لم أعرف ماذا جرى لى ؟ ! اجتاحتنى موجة عاتية من الذل والمهانة لم أشعر بمثلها من قبل ، لهج لسان حالى فى صمت باللعنة على كل شئ ، وعلى يوم ميلادى قبل أى شئ ! لكن ما لم أتوقعه أو أحب أن يقع هو تلك الدموع اللعينة التى انهمرت دون بكاء على وجنتى ، وأنا التى لم تنهمر دموعها منذ رحيل هالة ! كيف سمحت له أن يساومنى على جسدى وشرفى وكرامتى ؟ ! كنت أظن أننى أتعامى لكننى فى الحقيقة كنت عمياء ! وظللت أتعلق بأمل كاذب فى أن يعود الى صوابه ، لكن منذ متى كنت أتعلل بالسراب ؟ ! وها هى دموعى تنهمر أمامه وفى تلك اللحظة بالذات وكأنها تتآمر ضدى !!

هش وبش لمرأى الدموع فنهض وقادنى من يدى لأجلس الى جواره ، وليضغط على زر أضاء المصباح الأحمر على باب غرفته . ربت على كتفى بذراعه التى أحاطتنى بضغط متزايد :

ـ لا أحب أن أراك هكذا !! لم أرك تبكين من قبل !! روحى فداك لكن لا تبكى هكذا !! سأحقق لك كل أمانيك ! أنت لا تعرفين مدى اعزازى وحبى لك !! صورتك لم تغب عن

وجدانى طوال أيام سفرى! كنت أتعجل الأيام لأعود اليك على أحر من جمر!!

ثم أخرج ساعة ذهبية دقيقة من درج مكتبه وأمسكك بذراعى ليحيطها بها:

ـ وهذه هدية متواضعة. . سأتبعها بما يجعلك أميرة العصر والأوان ! كنت أقاوم الإنهيار السارى داخلى بكل ما أوتيت من قوة وارادة ! فالذئب يظن أننى استسلمت لأنيابه أخيرا ! تمنيت أن تنقض الصواعق على الغرفة ، وتقتلعه العواصف من مقعده ، وتقلب الزلازل المكان كله رأسا على عقب ! تألقت الساعة فى معصمى ، وجرت شفته السفلى الغليظة المتدلية بلونها البنى الداكن لتعلق قطرات الدموع على وجنتى المواجهة له ، وأحسست بلسان الأفعى يلدغ وجهى بالسم الزعاف ، ويواصل لدغاته بين الشفتين الغليظتين اللتين أطبقتا على شفتى بعد أن أدار وجهى بعنف مفاجىء آلم عنقى ! وكانت القشة التى قسمت ظهر البعير !

انتفضت بقوة عشرة رجال ! قوة لم تنبع من داخلى من قبل ، ولم أعرف من أين تدفقت ؟! قوة سبقت فى سرعتها الضوئية كل نبضات التفكير اللماح ! وجدت نفسى أتابع نفسى وكأنها نفس انسان آخر ! خلعت الساعة الرقيقة الدقيقة الثمينة وألقيت بها على المكتب فى حين كان يرزح لأول مرة فى حياته تحت وطأة كابوس من صنعى أنا ! استمعت الى صوتى القوى الرنان :

وألقيت بها على المكتب فى حين كان يرزح لأول مرة فى حياته تحت وطأة كابوس من صنعى أنا ! استمعت الى صوتى القوى الرنان :

ـ إياك أن تظن أننا جواريك اللاتى اشتريتهن بمرتباتك المجزية !! حاولت مراراً أن أفهمك أننى لست من النوع الذى تظنه . . لكن لا فائدة . . أصررت على موقفك وكأنه شرط من شروط الوظيفة !!

استدرك ناهضا فدرت بدورى لأواجهه والمكتب حاجز بيننا . صاح بصوت مكتوم هادر :

ـ اخرسى يا فاجرة . . أسيادك يأتون الى هنا منحنين لتقبل الهبات والمساعدات . . وأنت الخبيرة بجلسات الحشيش والأفلام الفاضحة تدعين الشرف والبراءة . . وتخاطبيننى بلهجة وكلمات لا يجرؤ عليها أسيادك !!

تدفقت أمواج القوة الساخنة الفوارة فى عروقى فتحولت كلماتى الى صرخات :

ـ إذا كنت فاجرة وساقطة كما تظن . . ولابد أن أفرط فى جسدى . . فلن تكون أنت . . يا من له ابنة فى سنى . . لن أسلمه إلا لمن أحب . . أما أنت فلم ولن تخلق المرأة التى يمكن أن تحبك . . وكل اللاتى عرفتهن كن خلف الهبات والمساعدات . . وليس وراء سحرك وجاذبيتك !!

أوشكت عيناه الجاحظتان أن تسقطا من محجريهما :

ـ الخطأ خطئى منذ البداية . . لأننى سمحت لنفسى أن

أتعامل مع الأوباش ! كنت تتجسسين عليّ ؟ ! كيف عرفت أن لى ابنة فى سنك ؟ !

كنت على وشك أن أدلى باسم فهمى فى حمية الموقف الملتهب ، لكن فى اللحظة نفسها تذكرت وعدى له ! كان عقلى فى قمة سيطرته على مجرى الحوار :

- إنكارك أو تجاهلك لإبنتك لا يعنى أن الأمر أصبح سراً مغلقا !

كان صدره يعلو ويهبط مع أنفاسه التى تحولت الى ما يشبه الشخير :

- وأبوك . . ألم يلق بك وبأسرتك كالكلاب . . وذهب ليعيش حياته ! لقد أخبرنى عبد الرحمن بكل شئ عنك . . وأنت التى كذبت وادعيت أنه صديق عزيز لعائلتك التى هرب عائلها ليتركها للتسول الذى لم ينقذها منه سواى !!

- التسول أشرف من بيع الجسد بالهبات والهدايا !

والعجيب أننى فى تلك اللحظة تذكرت المتسولة التى اعتادت أن ترابط عند ناصية عمارة هالة الفاخرة ذات الطراز العربى العريق فى شارع دمشق ، وأن تمد يدها للسابلة وقد أخفت وجهها بملاءة سوداء ! غمرتنى سخرية مريرة لإحساسى بأننى أستميت فى الكفاح حتى لا أصبح أقل منها شرفاً وكرامة ! خرجت كلمات كشظايا متناثرة :

- ستنالين هذا الشرف فى الحال !! بعد أن اقترب مرتبك من مرتب وزير !

ـ أخذت مقابل هذا المرتب كفاحا وجهدا وسهراً بطول الليالى لإنجاز أعمال الشركة قبل أوانها !! فيما عدا هذا .. ليس لك عندى أى مقابل آخر !!

ـ من تظنين نفسك حتى تحصلى على مثل هذا المرتب ؟ !

ـ لم أطلب منك هذا المرتب .. وإنما أنت الذى حددته .. وكنت على استعداد لقبول ربعه أو خمسه .. ولو عرفت أن هناك التزامات أخرى خاصة ليست لها علاقة بالعمل لرفضته منذ البداية !! لكنك افترضت مسبقا قبولى الرضوخ لنزواتك ضمن شروط المرتب الضخم !!

ـ كانت كلماتى لاهثة متدفقة بحيث لم ينجح فى مقاطعتى التى حاولها أكثر من مرة ، لكنه انتهز فرصة التقاطى لأنفاسى :

ـ لشد ما أحتقر نفسى وأنا أتحاور مع واحدة مثلك ! وبهذا الشكل !!

ـ الحمد لله أنك عرفت الإحساس الصادق أخيرا !

دق بيده على المكتب دقة كادت أن تشطر البلور الى أجزاء متناثرة :

ـ أخرجى من هنا .. لا أريد أن ألمح وجهك مرة أخرى !

سرى الهدوء أخيرا فى كلماتى المشحونة المتفجرة :

ـ إنه قرارى قبل أن يكون قرارك .. لكن يجب أن تعلم أن الرزق من الله .. وليس منك .. وعلى كل حال فأنا فخورة بتجربتى مع الشركة .. وما لا يقتلنى لابد أن يقوينى !! يكفى أنك الدكتور محمود غلاب صاحب السطوة والملايين .. قد

فشلت فى تحطيمى !! أنا الفقيرة المكافحة الصامدة !!

ـ هل هذا تهديد منك بنشر الشائعات والأقاويل والأكاذيب عنى عند كل من هب ودب خارج الشركة ؟ !

كنت على وشك أن أقول له إن هذا لم يخطر لى ببال ، لكننى استمتعت بنبرته الراضخة ، وخوفه الذى لمسته لأول مرة ، فقررت أن أقضى على البقية الباقية من هالته :

ـ لم أعرف الكذب فى حياتى . . ولذلك فأنا لا أتكلم إلا عن الحقائق والوقائع !!

ـ وما هى هذه الحقائق والوقائع ؟ !

ـ التى جرت والتى تعرف جيدا أنها جرت !! عن إذنك !!

واستدرت بمنتهى الإعتداد بالنفس لأتوجه الى الباب وأفتحه واذ بالسكرتيرة وقد ألصقت أذنها به ، لكنها سرعان ما تظاهرت بالوقوف الى جوار مكتبها والتقليب فى صفحات بعض الملفات ! واذ بصوت غلاب يصيح فى أعقابى : مها . . مها . . آنسة مها !! لكننى انطلقت الى مكتبى لأجمع حاجياتى وفى لحظات انطلقت بعدها إلى الباب الزجاجى الخارجى والدكتور غلاب يلهث خلفى : مها . . مها . . آنسة مها ! لا أحب أن تفهمى كلماتى على محمل خاطئ شعرت به يتوقف خلفى لعلى أتوقف بدورى ولكننى دفعت الباب الزجاجى لأخرج منه . العجيب والمضحك أن فهمى لمحنى من طرف نظارته السميكة وأنا أجمع حاجياتى من مكتبى لكنه تظاهر بانهماكه فى مراجعة إحدى القوائم متجاهلا وجودى تماما !

خرجت الى الميدان الفسيح الغارق فى ضوء الشمس الساخن المبهر ، وسرت قليلا فى الشارع العريض وكلمات غلاب لا تزال تدوى فى أذنى ، ونظرات الموظفين الذاهلة لا تزال تتراءى أمام عينى ! لم أشعر بسياط الشمس على الشارع الذى بدا ملتويا بعض الشئ ، والأحجار الصغيرة القليلة المتناثرة هنا وهناك تعتور سطحه ، والمطبات والحفر تتربص بالأقدام اللاهية ! ومع ذلك سرت بأقدام ثابتة راسخة ، وعيون مفتوحة واعية بعد أن حطمت الصنم على مشهد من المتعبدين فى محرابه !

● ● ● ● ● ● ● ● ●

البشائر الأولى لخيوط الفجر الوليد تتسلل من خصاص نافذة غرفتى الصغيرة ! والنسمات المنعشة تطارد حرارة الليلة الطويلة ورطوبتها ! والنعاس يسرى الى جفونى مبشرا بنوم عميق ! وأصوات باعة الصحف والخبز واللبن تتردد أصداؤها بين جنبات الشارع الضيق فى هدأة الفجر ! واحساس بميلاد جديد يغسلنى من الداخل بماء بلورى صاف ، ويطفئ بقايا حريق الأمس ! أتثاءب وأنهض لأرتدى قميص نومى وآوى الى فراشى ! أطفئ نور الغرفة وأمدد جسدى الذى أسال لعاب الدكتور غلاب على سن ورمح . إعتاد أن يحصل على كل ما يرغب فيه ! لكننى لقنته درس العمر !

فليس الجميع عبيد احساناته ! صحيح أن أمى سوف تصعق فى الصباح عندما تعلم أن ابنتها التى تنفق على البيت قد

أصبحت عاطلة ! لكننى كنت أضع كل احتمال فى حسبانى ! فقد ادخرت ما يكفينى ويزيد لحين الحصول على وظيفة جديدة لن يتأخر مجيئها بعد أن أصبحت أكثر دراية بالسوق ! صحيح أن مرتبها لن يزيد على ربع مرتب السابقة ، لكننى لن أقبل مرتبا يصل الى مرتب الوزير وأنا لم أتخرج إلا منذ أشهر معدودة ! فقد تعلمت أن لكل شئ ثمن فى نظر معظم العاملين فى السوق ، لكن فى نظرى أنا ، لا شئ يعادل كرامة الإنسان التى إذا فقدها مرة فمن الصعب أن يسترجعها مرة أخرى ، وهذا ليس من باب ادعاء المثالية ، ولكن من خلال الدرس العملى الذى تعلمته أخيرا ! فكيف لفتاة مثلى فقدت مرتبا ضخما بهذا الشكل ، أن تتمدد على فراشها بهذا الإسترخاء ؟ ! فبرغم كل شئ ، فأنا الرابحة ! لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ ! بل إننى أشعر الآن براحة تسرى فى كيانى ، راحة لم أستمتع بمثلها منذ أن التحقت بعملى ! ومع الراحة يسرى النوم ليلمس جفونى بأصابعه السحرية الرقيقة الناعمة ، وأغوص معه بين طيات الأطياف والأحلام الوردية التى تلقى بالماضى خلفها لتنطلق الى آفاق المستقبل ، وفى المنطقة الفاصلة بين دنيا اليقظة وعالم النوم انطبعت فى مخيلتى اللوحة الصغيرة المعلقة على الجدار فوق مكتبى ، ورأيت الصخرة البارزة وسط أمواج المحيط التى تضربها فى عنف ، لكن قممها تتحول الى رذاذ غزير متناثر هنا وهناك ! ولا يبقى منه سوى الزبد !!

● ● ● ● ● ● ● ● ●

تمـــت